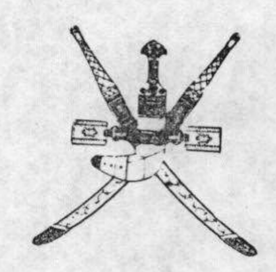
سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة



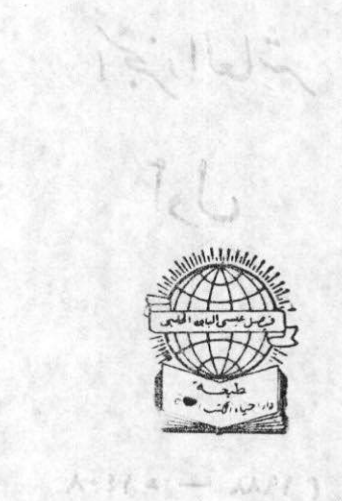
هيميان الزاد إلى دار المعاد

للعالم الحجة
محمد بن يوسف الوهبي الاباضي المصعبي

الجزء العاشر

أول

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م


فيصل عيسى البابي الحلبي
طبعة
دار احياء الكتب



بسم الله الرحمن الرحيم



القطعة العاشرة من التفسير الكبير المسمى هميان الزاد إلى دار المعاد ،

هو للشيخ العالم الفقيه ، المجتهد النبيه ، الذى بلغ من العلوم فى زمانه

ما لم يلحقه فيها أحد من أقرانه من العلوم النقلية والمواهب العقلية ،

الشيخ محمد بن يوسف الوهبى الأباضى اليسجنى المصعبى ،

فإنه قد أتى فيه بالعجب العجاب ، من كل معنى مستطاب ،

من النكت الأدبية ، والمعانى العربية ، لا سيما وقد

أظهر فيه عقائد أهل الاستقامة ، محتجا على أهل

الزيغ بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ،

من الكتاب والسنة ، وإجماع المحققين

من الأمة ، كافأه الله تعالى عن

الإسلام وأهله بنعمه الوافرة ،

وآلائه المتواترة

فى الدنيا

والآخرة

آمين

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أوقف سيدنا ومولانا الأجل الأكرم ، المحترم المعظم الهمام ، على بن سعيد بن سلطان ابن الإمام هذا الكتاب ، وهو تفسير القرآن العظيم المسمى بـ « هميان الزاد إلى دار المعاد » على طلبة العلم المتعلمين والراغبين فيه ابتغاء ما عند الله تعالى من الثواب ، وهرباً من أليم العقاب ، وإنه قد أخذ عهد الله وميثاقه على من صار فى يده شىء من هذا الكتاب أن لا يبيعه ، ولا يهبه ، ولا يرهنه ، ولا يتملكه ، وأن لا يمنعه مَن كان مستحقا للقراءة منه ، وأن لا يعطيه مَن هو غير مأمون عليه ، خوفاً من ضياعه .

وإن احتاج إلى إصلاح فليصلحه مَن صار فى يده وأجره على الله تعالى ، وقفاً مؤبّدًا صحيحاً شرعيًا ، لا يحال ولا يزال . ولا يباع هذا الكتاب ، ولا يورث ، ولا يوهب ، ولا يرهن ، ولا يملك حتى يرث الأرض وارثها .

أشهد الله تعالى على ذلك وكافة المسلمين ، فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم .

كتب هذا عن أمره خادمه الفقير إلى الله يحيى بن خلفان بن أبى نبهان الخروصى بيده فى ٢٧ من ربيع الأول سنة ١٣١٠ هـ .

صحح ذلك السيد على بن سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الكهف

وتسمى سورة أصحاب الكهف كما فى حديث أخرجه ابن مردويه . وروى البيهقى من حديث ابن عباس مرفوعا أنها تدعى فى التوراة الحائلة تحول بين قارئها وبين النار وقال : إنه منكر ، وهى مكية إلا « واصبر نفسك » الآية .

وقيل : إلا أولها إلى « جرزا » وإلا « واصبر نفسك » الآية . وإلا « إن الذين آمنوا » إلى آخر السورة .

وآيها مائة وعشر . وقيل: مائة وخمس عشرة . وقيل: مائة وإحدى عشرة . وكلمها خمسمائة وسبع وسبعون . وحروفها ستة آلاف وثلثمائة وستون .

قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء » . وقال رسول الله ﷺ : « من قرأ عند مضجعه: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ الخ كانت له فى مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعه بمكة كانت له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ » . قال سمرة بن جندب قال النبى ﷺ : « من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً لم تضره فتنة الدجال ومن قرأ السورة كلها دخل الجنة » .

قال إسحاق بن عبد الله بن فروة قال النبى ﷺ : « ألا أدلكم على سورة يشيعها سبعون ألف ملك حين نزلت ملأ عظمها ما بين السماء والأرض ، لتاليها مثل ذلك : قالوا : بلى يا رسول الله . قال : سورة الكهف ومن قرأها يوم الجمعة

غفر له إلى الجمعة الأخـــرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نوراً يبلغ السماء ووقى فتنة الدجال .

وعن جعفر الصـادق : ومن كتبها وجعلها فى إناء زجاج ضيق الفم وجعلها فى منزله فإنها نافية للفقر والدنس ويأمن هو وأهله من أذى الناس ولم يحتج إلى أحد أبداً . وإن كتبت وجعلت فى مخازن الحبوب من القمح والشعـير والحمص وجميع حبوب القطانى وغير ذلك دفعت عنها كل مؤذية بإذن الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله) أى الوصف بالجميل ثابت لله والمراد تلقين العباد كيف يثنون على الله على أعظم نعمه وهو إنزال القرآن فإن تعليق الحكم بالمشتق يشعر بعليته وقد علق الحمد على إنزال الكتاب والموصول الاسمى وصلته كشىء واحد كلاهما وصف . ويجوز أن يكون المراد الإعلام بالثناء ليؤمنوا به وأن يراد ذلك كله . وقد ذكرت ما شاء الله من مسائل الحمد والشكر والمدح فى حاشية أبى مسألة عند كلامه على الشكر والحمد آخر الكتاب .

قيل : إن الحمد اللغوى الثناء باللسان على الجميل الاختيارى عَلَى جهة التبجيل من نعمة وغيرها والعرفى فعل ينبىء عن تعظيم المنعم من حيث إنه منعم سواء كان باللسان أو الأركان والشكر اللغوى والحمد العرفى صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه به من سمع وبصر وغيرهما إلى ما خلق لأجله من العبادة فبين الحمدين عموم وخصوص من وجه يجتمعان فى الثناء باللسان فى مقابلة الإحسان وينفرد اللغوى فى الثناء باللسان لا فى مقابلة الإحسان والعرفى فى الثناء بالجنان والأركان وبين الشكرين عموم مطلق يجتمعان فى فعل منبىء عن تعظيم البارى سبحانه وتعالى وينفرد اللغوى فى فعل منبىء عن تعظيم غيره . وبين الحمد اللغوى والشكر اللغوى عموم من وجه يجتمعان فى اللسان فى مقابلة الإحسان وينفرد الحمد فى غير الإحسان والشكر فى الجنان والأركان وبين الحمد العرفى والشكر العرفى العموم المطلق يجتمعان فى تعظيم غيره وبين الحمد اللغوى والشكر العرفى العموم المطلق كذلك لأنه كما تحقق صرف العبد جميع ما أنعم الله عليه تحقق الثناء باللسان من غير عكس كلى وبين الحمد العرفى والشكر اللغوى التساوى كلما صدق هذا صدق هذا على عدم اشتراط وصول النعمة

إلى الشاكر فى الشكر اللغوى وإن اشترط فالعموم المطلق والعرفى من اللغوى وهذا جدول يجمعها :

بين الحمد اللغوى والحمد العرفى عموم وخصوص من وجه وبين الشكر اللغوى والشكر العرفى عموم مطلق وبين الحمد اللغوى والشكر اللغوى عموم وخصوص من وجه وبين الحمد العرفى والشكر العرفى العموم المطلق وبين الحمد اللغوى والشكر العرفى العموم المطلق وبين الحمد العرفى والشكر اللغوى التساوى .

ومن كتب الآية إلى قوله « أبدا » فى إناء طاهر ومحاها ورشها فى حيطان منزله لا ينال الأرض منها شىء فى أول كل شهر جلب الرزق له وعمر منزله وجمع شمله .

(الَّذِى أنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ) محمد .

(الكِتَابَ) القرآن علق الحمد بإنزال الكتاب لأن إنزاله نعمه عظيمة للعباد فى دنياهم وآخراهم .

(وَلَمْ يَجْعَل لَهُ) أى للكتاب ويجوز كون اللام بمعنى فى .

(عِوَجًا) ميلا عن الاستقامة فى لفظه ولا فى معناه فلفظه فى غاية الفصاحة ومعانيه صحيحة بليغة غير متنافية .

وقد فسر العوج بالاختلاف وبالالتباس وبالتناقض .

وزعموا عن ابن عباس وغيره أن المراد لم يجعله مخلوقا . وهو كذب عنه والمحفوظ عنه على صحة أنه مخلوق وهو الصواب وكذا روى عنه فى قوله عز وعلا « غير ذى عوج » .

قال ابن الأثير : العوج بالكسر فى المعانى وبالفتح فى الأجسام وذلك مشهور وهو أول ما حفظت فى المسألة .

وقال الجوهرى وغيره : إنه بالكسر لما فى أرض أو دين أو معاش وبالفتح لما ينتصب كالحائط والعود . وقال أبو عمرو الشيبانى : هو بالكسر فى المعانى والأجسام وبالفتح المصدر والواو فى « ولم يجعل له عوجا » للحال والجملة حال من الكتاب أو للعطف والجملة معطوفة على أنزل .

(قَيِّماً) مستقيما . وعن ابن عباس : عدلا ويجوز أن يكون المعنى متوسطا لا مكثرا جدا ولا مقلا أو قيما بمصالح العباد فيكون موصوفا بأنه مكمل لغيره بعد كونه كاملا فى نفسه أو قيما على الكتب السابقة يشهد بصحتها وينسخ ما ينسخ منها .

وإن قلت : إذا فسرته بمستقيما فما وجه الجمع بينه وبين نفى العوج وأحدهما يغنى عن الآخر ؟

قلت : جمع بينهما تأكيدا . وقد قيل : إنه حال ثانية من الكتاب مؤكدة ولنفى العوج رأسا ظاهرا وباطنا ولو عند الإمعان فى التصفح والتتبع والاختبار فرب مشهود له بأنه لا عوج فيه لا يخلو من أدنى عوج عند الإمعان فى ذلك .

وإن جعلنا قوله عز وعلا : « ولم يجعل له عوجا » عطفا على أنزل كما مر لم يجز كون قيما حالا من الكتاب لئلا يلزم العطف على الصلة قبل تمام أجزائها .

وقيل بجواز هذا والتزام أنه على نية التقديم والتأخير والأولى حينئذ أن يجعل مفعولا لمحذوف أى اجعله قيما أو حال من محذف هو وعامله أى أنزله قيما أو حال من الكتاب على أن الجملة معترضة لا معطوفة أو من الهاء فإنه إذا أعيدت إلى الكتاب كما مر . ذكر هذه الثلاثة الأخيرة ابن هشام وظاهره جواز عود الهاء إلى عبد وهو صحيح .

ويجوز كون قيما حالا من الهاء عائدة إليه وكونه حالا من عبد على أن جملة لم يجعل له عوجا معترضة أو حال من العبد أو من الكتاب .

قال : وقيل: جملة « لم يجعل له عوجا » حال و« قيما » بدل منها عكس عرفت زيدا أبو مَن هو .

وذكر أن بعضهم سمع شيخاً يعرب « قيما » صفة لـ « عوجا » فقال له : يأهذا كيف يكون العوج قيما وترحمت على من وقف من القراء على ألف التنوين فى عوجا وقفة لطيفة دفعاً لهذا الوهم هذا كله كلام البعض .

قال أبو عمر الدانى : قرأ حفص « عوجا » يسكت سكتة على الألف لطيفة من غير قطع ولا تنوين ثم يقول : « قيما » .

وكذا كان يسكت مع مراد الوصل على الألف فى يس فى « مرقدنا » ثم يقول : « هذا ما وعد الرحمن » .

وكذا كان يسكت على النون فى « القيامة » فى قوله : « مَن » ثم يقول : « راق » .

وكذلك كان يسكت على اللام فى « المطففين » فى قوله : « بل » ثم يقول : «ران » والباقون يصلون ذلك كله من غير سكت ويدغمون النون واللام فى الراء.

وقرئ « قيما » بكسر القاف وفتح الياء غير مشددة .

(لِيُنْذِرَ) أى هو أى عبده فالضمير المستتر عائد إلى العبد المذكور ﷺ ويصح عوده إلى الكتاب والأول أولى لأن إسناد الإنذار والتبشير للكتاب مجاز، ومعنى « ينذر » يخوف وله مفعولان الأول محذوف هكذا لينذر الكافرين .

(بَأْسًا) عذاباً (شَدِيدًا) وحذف الأول للقرينة ولأن المسوق له الكلام بالذات هو الثانى وهو البأس ولكن تعديته للثانى على معنى الجار كأنه قيل : ببأس .

وقيل : منصوب على نزع الخافض وقد ذكرا فى قوله سبحانه وتعالى : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً »

(مِن لَدُنْهُ) متعلق بمحذوف جوازا نعت لبأس أو حال منه لوصفه أى صادر من لدنه أى من عند الله .

وقرأ أبو بكر من لدنه بإسكان الدال وإشمامها شيئاً من الضم وبكسر النون والهاء ويصل الهاء بياء وإنما كسر النون لالتقاء الساكنين . وقيل : للإعراب .

وقرئ أيضاً بكسر الدال مطابقة للنون . والباقون بضم الدال وإسكان النون وضم الهاء بلا صلة إلا ابن كثير فإنه يصلها بالواو مع أن الساكن قبلها .

(وَيُبَشِّرَ) وقرأ حمزة والكسائى هنا وفى سبحان وآل عمران بفتح المثناة وإسكان الموحدة وضم الشين .

(الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ) أى بأن لهم .

(أَجْرًا حَسَنًا) هو الجنة .

(مَاكِثِينَ) مقيمين .

(فِيهِ) أى فى الأجر الحسن وهو الجنة كما علمت . وماكثين حال من الهاء فى لهم مستقبلة أو نعت لأجرا سببى ولذا لم يطابقه ولم يظهر الضمير فيه مع أنه جارٍ على غير صاحبه لأمن اللبس ولو ظهر لقيل ماكثاً هم فيه على أن هم فاعل ماكثا .

ويجوز كون ماكثين حالا مستقبلة سببية لأجرا كذلك .

(أَبَدًا) زماناً دائماً لا ينقطع .

(وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) هم العرب القائلون : الملائكة بنات الله . سبحانه عما يقولون . واليهود القائلون : عزير ابن الله . والنصارى

القائلون : عيسى ابن الله سبحانه وتعالى عما يقولون . وسواء قالوا بالولادة حقيقة أو بالتبنى فإن ادعاء التبنى أيضا شرك . والمفعول الثانى لينذر محذوف لدلالة ما تقدم عليه تقديره : بأساً شديداً . ولعدم كون الكلام مسوقا له بالذات وإنما المسوق له الكلام بالذات هو قولهم : اتخذ الله ولدا ولذلك خصص القائلين بالذكر مع أن القرآن إنذار للمشركين كافة لما استعظم قولهم ذلك خصهم بالذكر وأعاد لفظ ينذر ولم يكتف بالأول لذلك للتأكيد .

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ) صلة فى المبتدأ للتأكيد ، جملة مستأنفة ردا عليهم لا نعت لولد لأنهم لايقولون ما لهم به من علم ولا لآبائهم ويقولون ما لنا به من علم ولا لآبائنا إلا أن يقال : إنه نعت بحسب ما فى نفس الأمر لا باعتبار معتقدهم وهو يفيد منه منطق بعلم وقدم على المصدر لأنه ظرف ولأن العلم ولو كان مصدرا لكنه لا يكون المعنى هنا على انحلاله إلى فعل وحرف مصدر والهاء فى به عائدة إلى الولد أو إلى الاتخاذ الذى أشعر به اتخذ أو إلى القول الذى أشعر به قالوا وعلى هذين الوجهين الأخيرين لا يصح النعت قطعا .

وإن قلت: إنما بقى العلم بشىء إذا كان الشىء موجوداً فكيف يقال ما لهم علم بالولد أو باتخاذ الله الولد وهو منزه عن الولد واتخاذه .

قلت : أراد ـ والله أعلم ـ بنفى العلم بالولد أو باتخاذه نفى الولد أو اتخاذه نفيا للعلم بانتفاء متعلقه فإنه إذا لم يكن ما يتعلق به العلم فالعلم غير موجود وذلك أيضاً نفى للملزوم بنفى لازمه أو نفى لسبب بنفى مسببه فنفى الولد أو اتخاذه وهما ملزومان وسببان بنفى اللازم والمسبب وهما العلم بهما فإن وجود الشىء سبب وملزوم فى الجملة للعلم به والعلم ينفى لعدم إدراك الموجود وينفى لعدم مايتعلق به الإدراك سواء لم يوجد ووجوده محال كما هنا أو لم يوجد ووجوده ممكن .

وإنما قالوا ذلك لعظم جهلهم وتوهمهم الكاذب أو لتقليد آبائهم فى قولهم: إن الله والد أو أنه متبن تعالى عن ذلك، وذلك لا يصح فى الشرع ولا يسوغ فى العقل أو التقليد لآبائهم من غير علم بالمعنى الذى أراده آباؤهم فإن آباءهم كانوا يطلقون الأب والابن بمعنى المؤثر والأثر وتوهموا أن المراد الأب والابن الحقيقيان وقد استفرغت الوسع والحمد لله فظهر لى أنه لا يجوز لأحد أن يتلفظ بلفظ يوهم شركا أو نفاقا أو معصية ولو صح اعتقاده وكان حقًّا مخالما للفظه لأنه لفظ سوء يوهم الباطل ويسىء اعتقاد السامع ويكون داعية إلى ما لا يجوز وذلك كالوقف اختيارا حيث قام مانع شرعى.

(وَلَا لِآبَائِهِمْ) فإنه لا علم لآبائهم فى الولد ولا فى اتخاذه ولا فى تبنيه لعدم وجود ذلك ولا فى إطلاق لفظ الأب على الله بمعنى المؤثر لعدم جوازه.

(كَبُرَتْ) أى عظمت وفاعله مستتر يعود إلى مبهم فى اللفظ هو فى نفس الأمر مقالتهم المذكورة مفسر بالتمييز وهو قوله:

(كَلِمَةً) والمخصوص بالذم محذوف يقدر بعد قوله من أفواههم أى مقالتهم أو هى وذلك أنه استعمل كبر هنا من باب نعم وبئس والقرينة أن المقام مقام استعظام لأن مقالتهم هذه عظيمة فى القبح والكفر لأن فيها تشبيهاً من حيث التحديد وإيهام احتياجه تعالى إلى ما يحتاجه الإنسان من الولد كإعانة وتخلفه بعده وغير ذلك مما هو فى حق الله تعالى شرك وضلال. وباب نعم وبئس وباب التعجب من واد واحد فى الاستعظام ولم يخل باب نعم وبئس من تعجب ففى الآية تعجيب.

وقرئ بإسكان باء كبرت مع إشمام الضم لها ويجوز عود ضمير كبرت إلى جملة اتخذ الله أى كبرت هذه الجملة أو هذه الكلمة كما تسمى الجملتان والجمل الكثيرة كلمة.

وقرئ برفع كلمة على الفاعلية وقراءة النصب أقوى وأبلغ لأنها أظهر في باب نعم وبئس والتعجب .

(تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) نعت لكلمة مفيد زيادة استعظام كأنه قيل هب أن مضمونها قد انطوت عليه قلوبهم فكيف أطاقوا النطق بهـا واجترء مخارجها . وقيل : هذه الجملة نعت للمخصوص بالذم على أنه يقدر هنا نكرة قبل هذه الجملة .

(إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) أى ما قولهم ذلك إلا كذب فالضمير إضافى منظور فيه إلى قولهم اتخذ الله ولداً أى ما قولهم هذا إلا باطل وإلا فقد يصدر منهم الصدق وقد يصدر الكذب فى سائر كلامهم . وفى الآية دليل على أن الكذب الإخبار بخلاف الواقع ولو لم يعلم المخبر أنه خلاف الواقع لأنهم أو أكثرهم يقولون اتخذ الله ولدا ولا يعلمون أن اتخاذه الولد غير واقع وسمى الله قولهم مع ذلك كذبا وأصل الكذب كل انصراف إلى غيرمدلول اللفظ أو غير ظاهر العمل والكذب مصدر أو وصف لمحذوف أى مقولا كذبا كقوله عزوعلا « بدم كذب » .

(فَلَعَلَّكَ) هذه الفاء سببية تدل على أن سبب الجملة نفسه هو قولهم: « اتخذ الله ولدا » .

(بَاخِعٌ) قاتل (نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ) جمع أثر وهو علامة وطء القدم فى الأرض مثلا . شبه الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ لما تداخله من الحزن على إعراض قومه عن الإيمان والإسلام بمن فارقه أحباؤه فكان يتبع آثارهم فى الأرض بجسمه وقلبه أو بقلبه ويتقطع حسرات على فراقهم حتى يقتل نفسه حزنا عليهم وتلهفا .

وقرئ باخعُ نفسِك بإضافة باخع إلى نفسك .

والإضافة لفظية أصلها النصب كما قرأ الجمهور إذا كسرت الهمزة فى قوله تعالى : (إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ) أى القرآن على أن إن شرطية وباخع للاستقبال ولو كانت المضى لكن إن الشرطية تعلق شرطها للمستقبل والإضافة معنوية على قراءة فتح همزة إن على أن إن مخففة وباخع للمضى أى لعلك قد وصلت موصل هلاك النفس لأن لم يؤمنوا فحذف لام الجر .

ولا يجوز التنوين والنصب على قراءة فتح الهمزة إلا على حكاية الحال الماضية بأن نزّل حال وصوله موصل هلاك النفس فيما مضى بحال حاضرة وصل فيها ذلك أو على قول من يجيز عمل الوصف بمعنى الماضى .

وإن قلت : قد اشتهر أن إضافة الوصف الذى هو للحال أو للاستقبال لفظية لا تفيد التخصيص ولا التعريف وإنا لا نشك أن قولك ضارب رجل بالإضافة وضارب عمرو بالإضافة فيه خصوص لم يوجد فى مجرد ضارب بالتنوين بدون ذكر رجل .

قلت : إن الخصوص إنما أفاده المضاف إليه من حيث أنه معمول فى الأصل لا من حيث الإضافة كما أفاده المعمول فى قولك ضاربٌ رجلًا وضاربٌ عمروًا بالتنوين ونصب المعمول . هذا ما ظهر لى . والله أعلم .

(أَسَفًا) حزنا شديدا بحرصك على إيمانهم . وقيل : غيظا وهو مفعول لأجله وناصبه باخع وهذا أولى من كونه حالا مبالغة أو بتقدير مضاف أى ذا أسف أو بتأويله باسم الفاعل أى أسِفا بكسر السين أو أسيفا بالياء .

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ) من زخارف الدنيا كالحيوان غير المكلف والنبات والأنهار والمعادن ونحو ذلك .

وقيل : الرجال خاصة فهم زينة الأرض .

وقيل : العلماء والصلحاء .

وقيل : كل ما على الأرض ولو عقربا أو شيطانا . ومعنى كون العقرب والشيطان ونحوهما زينة أنهم يدلون على وحدانية الله سبحانه وتعالى و كمال قدرته .

والذى يظهر لى وأفهمه من الآية ماذكرته أولا وأما الثانى والثالث فيضعفهما قوله تعالى : « لنبلوهم » وهكذا عموم الرابع للمكلفين لأنه لا يناسب أن يدخل المبتلى فى المبتلَى به إلا أن يقال يبتلى به بعض ببعض أو ليس الابتلاء بما على الأرض بل بالفرض فعلا وتركا كما يتبادر من قوله : « أيهم أحسن عملا » .

(زِينَةً لَهَا) أى للأرض ويجوز تقدير المضاف أى لأهلها .

(لِنَبْلُوَهُمْ) أى الناس مشركهم وموحدهم أى لنختبرهم أى نعاملهم معاملة المختبر وإنا عالمون بما يعملون قبل أن يعملوه .

(أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) أعظم امتثالا للأمر واجتنابا للنهى ومباعدة عن الاغترار بزينة الدنيا كذا أقول . وقال غيرى: أحسن عملا، أزهد فى زينة الدنيا وأقنع ولم يتناول منها إلا الكفاف مما يحل ويصرف منها فى وجوه الأجر .

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا) أى على الأرض .

(صَعِيدًا) ترابا حتى الإنسان والحيوان يتفتت ويرجع ترابا أو كتراب وقد فسر بعضهم الصعيد بالمفتت .

(جُرُزًا) غير نابت وهو نعت لصعيد أى ترابا غير نابت ويجوز أن يكون معنى جعل ما عليها ترابا غير نابت إذهابه وتخليف التراب غير النابت بعده كأنه عوض عنه ويبقى لا شىء عليه من نبات أو غيره .

وقيل : الجرز : الأرض التى قطع نباتها من الجرز : الخراب . ويجوز وقوع

ما على التراب الذى فوق الأرض أى نجعل ما يلى السماء من الأرض تراباً غير نابت وفى هذه الآية والتى قبلها تسكين لرسول الله ﷺ وتزهيد له ولغيره عن متاع الدنيا .

قالوا : من أراد تنكيد عيش العدو وتفريق كلمته وذهاب ماله وفساد حاله فليأخذ أول سبت من شهر محرم قبل طلوع الشمس سبع قبضات تراب من سبعة مواضع من سبيل مهجور ومن دار خلية وحمام عاطل وبستان خرب وبيت فيه جنازة وقبر منسى ومفرق أربع طرق ويتلو «وينذر الذين قالوا - إلى - جرزا» سبع مرات على كل قبضة ويقول فى المرة الآخرة : فلان بن فلان وجميع ما هو فيه من حركة وسكون وقول وعمل ومال وزرع وما أشبه ذلك فى مقابلة نمله ونكال حياته ثم يخلط الجميع ويرش به دار العدو إلى تمام سبعة سبوت وإياك أن تعمل ذلك لمن لا يحل فيه فاتق الله جل وعلا .

(أَمْ حَسِبْتَ) أى بل ظننت فأم بمعنى بل الانتقالية وهمزة الإنكار . أنكر الله جل جلاله على نبينا محمد ﷺ ظنه بالفعل وبالقوة أن أصحاب الكهف والرقيم عجب من دون آياتنا أو أنكر ظنه بالفعل أو بالقوة أنهم أعجب من آياتنا أو أنكر ظنه أنهم من الآيات العظام مع أنهم آية صغيرة بالنسبة إلى ما هو أعظم .

(أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ) الغار الواسع فى الجبل واسم هذا الكهف جيرم .

(وَالرَّقِيمِ) : الوادى الذى فيه كهفهم . روى عن ابن عباس أنه بين عمان وأيلة دون فلسطين . وقيل : الجبل الذى فيه الكهف . وقال كعب الأحبار : سمى الرقيم لأن الناس رقموا أسماءهم فيه . وقال كعب الأحبار : قريتهم التى خرجوا منها . وقيل : كلبهم . قال أمية بن أبى الصلت :

وليس بها إلا الرقيم مجاورا ... وصيدهمُ فى الكهف والقوم هجدا

أى نوام . والوصيد : فِناء البيت والغار ونحوهما أو ما بين العتبتين . وقال سعيد بن جبير وغيره من أئمة الأحبار : من حجر . وقيل : من رصاص رقمت أى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وبلدهم وتاريخهم ومساكنهم وجعلت على باب الكهف فقد تبين لك أن أصحاب الكهف والرقيم قوم واحد أضيفوا للكهف بلا واسطة وللرقيم بواسطة العطف .

وقيل : إن أصحاب الكهف قوم وأصحاب الرقيم قوم آخرون فالقومان مدرجان فى لفظة أصحاب المذكورة فى الآية أو يقدر مضاف أى وأصحاب الرقيم وإنما بقى على الجر مع حذف المضاف لذكر مثل ذلك المضاف المحذوف وعلى هذا القول فأصحاب الرقيم ثلاثة رجال . روى نافع عن أبى عمرو عن النعمان ابن بشير عن رسول الله ﷺ أنهم ثلاثة خرجوا يطلبون الحشيش أو الماء لأهلهم فأمطرت السماء فأووا إلى كهف وليس بالكهف المذكور فى الآية ولام بالفتية المذكورين فيها ولما دخلوا الكهف انحطت صخرة وسدت بابه فقال أحدهم : اذكروا أيكم عمل حسنة لعل الله يرحمنا ببركته . فقال واحد : استعملت أجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل فى بقيته مثل عملهم فأعطيته مثل أجورهم فغضب أحدهم وترك أجره فوضعته فى جانب البيت ثم مرت بى بقرة فاشتريتها فبلغت ما شاء الله فرجع إلىّ بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه وقال : إن لى عندك حقا وذكره لى حتى عرفته فدفعتها إليه وكل ما ولدت وما استغلت فقال : ياعبد الله لا تسخر بى إن لم تصدق علىّ فأعطنى حقى فقلت : والله ما أسخر بك إنما هو حقك ما لى فيه شىء . اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فأفرج عنا فانصدع الجبل حتى رأوا الضوء . وقال آخر : كان لى فضل وأصاب الناس شدة فجاءتنى امرأة فطلبت منى معروفا فقلت : والله ما هو دون نفسك فأبت وعادت

ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت لزوجها فقال: أجيبي وأغيثي عيالك فأتت وسلَّمت إلىّ نفسها فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت: مالكِ ؟ فقالت : أخاف الله فقلت لها : خفتِه في الشدة ولم أخَفْه في الرخاء فتركتها وأعطيتها ملتمسها . اللهم إن كنت فعلته لوجهك فأفرج عنا فأفرج الله الجبل حتى تعارفوا. وقال الثالث: كان لى أبوان هَرِمان وكان لى غنم وكنت أطعمهما وأسقيهما ثم أرجع إلى غنمى فحبسنى ذات يوم غيث فلم أرح حتى أمسيت فأتيت أهلى وأخذت محلبى فحلبت فيه ومضيت إليهما فوجدتهما نائمـين فشق علىّ أن أوقظهما فوقفت ومحلبى على يدى حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما . اللهم إن كنت فعلته لوجهك فأفرج عنا فأفرج الله عنهم فخرجوا . وروى ذلك مرفوعا عن النعمان بن بشير . وروى عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الجبل : طاق ففرج الله عنهم فخرجوا .

(كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) أى كانوا عجباً من بين آياتنا كأنه قيل عجباً من دون آياتنا . والمراد أنهم عجب وسائر آياتنا عجب . وقيل : عجبا بمعنى اعجب ويحتمل أن يريد حسبت أنهم من آياتنا العظام كلا بل هم آية صغيرة بالنسبة إلى العظام كخلق السماء أو أشار إلى أنهم كخلق ما على الأرض من أنواع وأجناس لا تحصى على طبائع متباعدة وهيئات متخالفة تعجب الناظرين من مادة واحدة وهم ثم رد ذلك إلى الأرض كما اتصل الآية هـذه بآية ذلك أو إشارة إلى أنهم كلا آية بالنسبة إلى سائر الآيات ومن آياتنا حال من عجبا وعجبا خبر كان .

(إِذْ) أى اذكر إذ (أَوَى) أى مال أو التجأ .

(الْفِتْيَةُ) جمع فتى وهو الشاب وهذا الجمع غير مقيس (إِلَى الْكَهْفِ) خائفين على إيمانهم وهم أشراف الروم . أراد دقيانوس أن يرجعوا إلى الشرك

فأبوا وهربوا ودخلوا الكهف وهم : تمليخا ومكشلينيا ومشلينيا ، والثلاثة أصحاب يمين الملك ومرنوش ودبرنوش وشادنوش والثلاثة أصحاب يساره وكان يستشيرهم ومدينتهم أفسوس. وقد روى ذلك عن على عنه ﷺ أن أسماء الذين عن يساره مرطليوس وكسطوس وسادنوس . وقيل عن ابن عباس : مكسملينا وتمليخا ومرطولس وسلديبوبس ورنوانس وينبونس وكسفسيططيوس وبطيفويعسيون وأنه الراعى . قال أبو شبل : بلغنى أنه من كتب هـذه الأسماء فى شىء ووضعه فى حريق سكن الحريق بإذن الله تعالى .

وذكر بعض أهل العلم أن قوله تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ـ إلى قوله عز وعلا ـ سنين عددا » ينفع لقلة النوم فمن كتبها فى قرطاس ووضعها تحت رأس إنسان قليل النوم أو قرأها على رأسه سرا إذا كان يريد النوم فإنه ينام إن شاء الله .

(فقالوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَدُنكَ) من عندك (رَحْمَةً) إنعاما بمغفرة ورزق وأمن عدونا دقيانوس وغيره . (وَهَيِّئْ) أعدد وأوجد ويسر يقال : هيأه أى أعده وأوجده وأصل التهيئة إيجاد هيئة الشىء وقيل : المعنى : أصلح .

(لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) أى هداية نصير بها راشدين مهتدين والمراد بالأمر ـ والله أعلم ـ الأمر الذى هم عليه من مفارقة الكفار ويجوز أن تكون الآية من باب التجريد البديعى بأن يكونوا بالغوا فى طلب الرشد بأن يكون أمرهم كله رشدا يتولد من هذا الرشد لعظمه رشد آخر كقولك : رأيت وزيد أسدا فنجاهم الله جل وعلا بدعائهم .

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ) أى ضربنا عليها حجابا عن سمع فلا يسمعون فحذف مفعول ضرب كما يقال : بنى على امرأته وبنى بها إذا دخل بها أول دخول وأصله

بنى عليها قبة أو سترا لئلا ترى أشخاصهما حال الجماع فحذف المفعول والمراد فى الآية بضرب الحجاب على آذانهم إنامة الله عز وجل إياهم إنامة ثقيلة لا تنبههم منها الأصوات الشديدة كأنهم جعل على آذانهم غطاء سدها به .

(فِي الْكَهْفِ سِنِينَ) ظرف زمان وهو مع الجار قبله متعلقان بضربنا .

(عَدَدًا) أى ذوات عدد . ووصف السنين بأنها ذوات عدد لتكثيرها فى نفسها عند الناس أو لتقليلها عنده تعالى فإنها عنده كبعض يوم وكذا هى فى حق أصحاب الكهف إذ ظنوها يوما أو بعض يوم . وذكر الزجاج أن المعدود إذا قل فُهِم ولم يحتج إلى أن يعد وإذا كثر احتاج إلى أن يعد .

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ) أيقظناهم من النوم كما سنبعث الموتى .

(لِنَعْلَمَ) الخ أى ليظهر علمنا فيزداد أهل الكهف إيمانا وكذا غيرهم من المؤمنين ويكون لطفا بهم وآية بينة على الكفار المنكرين للبعث من أهل زمانهم أو غيره أو ليتعلق علمنا بإحصاء المحصين أمدا للبثهم تعلقا حاليا مشاهديا مطابقا للتعلق الأول القديم فإنه سبحانه وتعالى عالم بأمد لبثهم وبما يقوله المحصون قبل وجود الخلق علما قديما لا أول له ولما خلق الخلق وخلق أصحاب الكهف لبثوا ذلك الأمد الذى سبق به العلم القديم بلا زيادة ولا نقصان .

واختلف المحصون كما سبق العلم القديم بأنهم يختلفون وأصاب من سبق العلم القديم بأنه يصيب وأخطأ من سبق العلم القديم بأنه يخطىء وهو تعالى عالم بوقوع اللبث والاختلاف والإصابة ومحال أن يقع شىء ولا يعلم الله بوقوعه وقد علم كيف يقع قبل أن يقع ويظهر لى أن علمه تعالى فى كل شىء قسمان : قديم وحادث فالقديم علمه أنه سيقع بكيفية كذا ومنه زمان الوقوع والحادث علمه بوقوعه إذا وقع ولا يختلف عن الأول ولا يلزم النقص بذلك لأنه

لا يترتب الجهل على إثبات الحادث لأنه على وفق القديم وهو عالم لم يزل ولن يزال ألا ترى أنك لو وصفت الله بأنه عالم بأن كذا قد وقع وهو لم يقع لكان خطأ ووصفه له بجهل له تعالى وتقدس فلو صح قولك أن علمه بوقوع الواقع لما لفعل قديم ولو قيل : إن يقع لكنت قد وصفته بأنه قد علم أن كذا وكذا قد وقع مع أنه لما يقع فيكون كذبا وجهلا تعالى الله وإن كنت قد أخطأت فأنا تائب إلى الله ومجدد إيمانى بقولى : لا إله إلا الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسول الله وما جاء به حق من الله وإنه تعالى منزه عن كل نقص وأنه ليس كمثله شيء .

(أَيُّ الحِزْبَيْنِ) الفريقين المختلفين من أصحاب الكهف أو من غيرهم :

(أَحْصَى) فعل ماض فاعله مستتر عائد إلى أى الاستفهامية وهى مبتدأ وجملة الفعل والفاعل خبره وجملة المبتدأ والخبر فى محل نصب مفعول نعلم قامت مقام مفعولين إذ علق عنها بالاستفهام ومعنى أحصى ضبط وأصاب الحق فى العد .

(لِمَا لَبِثُوا) ما مصدرية والواو لأصحاب الكهف أى للبثهم أو يتعلق بمحذوف حال من قوله : (أَمَدًا) أى مدة أو بأحصى وأمدا مفعول أحصى وقيل : اللام صلة للتأكيد وما اسم موصول مفعول لأحصى وأمدا تمييز ويجوز كون ما فى وجه تعليق اللام بلبثوا اسما موصولا .

وإذا قلنا إنها اسم موصول على القول الثانى فهى واقعة على مبهم هو فى الواقع زمان ولذلك فسر وميز بقوله أمدا لكن ذلك ضعيف لزيادة اللام فى مفعول الفعل مع تأخره من الفعل فلا يحسن التخريج عليه .

وإذا قلنا إنها اسم وعلقنا اللام بأحصى وقلنا أمدا مفعول فما واقعة على اللبث أى أحصى للبث الذى لبثوه أمدا .

وقيل : أحصى اسم تفضيل وأمدا تمييز ولما لبثوا حال منه أو متعلق بأحصى

ويرده أن اسم التفضيل إنما يصاغ من الثلاثى المجرد وأحصى رباعى بالزيادة يقال: أحصاه يحصيه فهو مُحْصَى وصوغه من غير الثلاثى المجرد شاذ فلا يخرج عليه غير القرآن مع إمكان غيره فكيف بالقرآن، كقولهم: هو أعْدَى من الجرب وأحصى للمال وأفلس من ابن المذلق وهو رجل معروف هو وأجداده بالإفلاس وكقولهم هو أعطاهم للدراهم وأولاهم للمعروف وهذا المكان أقفر من غيره وهذا الكلام أخصر من غيره وهذا من الخماسى بالزيادة وفيه شذوذ آخر وهو أنه من المبنى للمفعول.

وقيل: يجوز بناء اسم التفضيل من الرباعى المهدوء بهمزة زائدة قياسا مطلقا وقيل: إن كانت لغير التعدية كأقفر المكان وقد يجاب بأنه قد ورد الثلاثى المجرد من الإحصاء فليكن اسم التفضيل منه ولكن يبقى إشكال فى جعل أمدا تمييز لأن الأمد ليس محصيا بل محصى وتمييز اسم التفضيل أنه ما يكون فاعلا فى المعنى.

وقيل: أحصى اسم تفضيل وأمدا مفعول لمحذوف أى يحصى لما لبثوا أمدا ومن ذلك قوله:

فلم أر مثل الحى حيا مصبحا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا

أكر وأحمى للحقيقة منهمُو وأضرب منا بالسيوف القوانسا

أى يضربون القوانس ودل عليه اضرب. والقونس: أعلى بيضة القتال وما بين أذنى الفرس وإنما لم يجعلوا أمدا وقوانس مفعولا لاسم التفضيل لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول خلافا لبعض النحاة وفى تخريج الآية على أن أحصى اسم تفضيل وأمدا مفعول لمحذوف تكلف مستغنى عنه بجعل أحصى فعلا ماضيا وأمدا مفعولا به له.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) نملى ونقرأ عليك بواسطة جبريل خبرهم .

(بِالْحَقِّ) بالصدق .

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) وهو الله جل وعلا لا رب غيره .

(وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) إيماناً وبصيرة بالتثبيت والتوفيق . وقال ابن عباس : زادهم الله هدى بكلام الكلب لهم كلبُ راعٍ ، إذ أنطقه الله لهم حين تبعهم كما يأتى .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) قوينا قلوبهم بالإيمان والتثبيت والصبر على مفارقة الوطن والأهل والمال والعيش الأنعم وعلى إظهار الحق والرد على ملكهم دقيانوس من شد الوثاق على فم قربة أو غيرها .

(إِذْ قَامُوا) بين يدى ملكهم دقيانوس ويقال دقيوس وهو مشرك جبار عات عاتبهم على ترك عبادة الأصنام وأمرهم بالسجود لها .

(فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أى لا أنت .

(لَنْ نَدْعُوَا) لن نعبد أو نطلب فى كشف الملمات أو جلب الحاجات .

(مِنْ دُونِهِ) أى غيره .

(إِلَهًا) كما تحب وتفعل أنت وقومك عبادة غير الله وطلبه فى الدفع والجلب .

(لَقَدْ قُلْنَا إِذًا) أى إن دعونا إلها من دون رب السموات والأرض .

(شَطَطًا) أى قولا هو فى نفسه أبعد عن الحق والصواب وهو فى نفسه الإفراط فى ظلم أنفسنا وفى نقص من حق رب السموات والأرض تعالى وتقدس عن كل نقص فشططا مصدر نعت به قول محذوف مبالغة أى قولا شططا وذلك مبالغة ولك تقدير مضاف أى قولا ذا شطط والتأويل بالوصف أى قولا شاطا .

(هَؤُلَاءِ) مبتدأ (قَوْمُنَا) عطف بيان وجملة قوله : (اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً) خبر وذلك إخبار استعملوه فى إنشاء إنكار عبادة غير الله عز وجل وذمها فجملة المبتدأ والخبر عندى مجاز مركب فى غير التشبيه فإن أصل هذا الكلام أن يستعمل فى مجرد الإخبار باتخاذهم غير الله آلهة كقول الشاعر :

هواىَ مع الركب اليمانينَ مُصعِدٌ جَنيبٌ وجُثمانى بمكةَ مُوثَقُ

أصله الإخبار بمعناه ومراده التحسر والتحزن ويحتمل هذا البيت التشبيه المسمى بالتمثيل .

(لَوْلَا) حرف تحضيض يتضمن توبيخا .

(يَأْتُونَ عَلَيْهِم) أى على الآلهة التى يدعون ويقدر مضاف أى على صحتهم أو مضافان أى على جواز عبادتهم وعبروا عن الآلهة بضمير العقلاء لأنها عند عابديها عقلاء أو كالعقلاء .

(بِسُلْطَانٍ) حجة أو برهان وهكذا فى القرآن كله وقد فسره الحسن وابن عباس هنا بالحجة وفسره بعضهم فى القرآن كله بالعذر يعنى الحجة التى تكون عذرا .

(بَيِّنٍ) ظاهر لا خفاء به وهذا كلام مفحم فإنه لا توجد أدنى حجة على عبادة الأصنام فضلا عن حجة واضحة وفيه دليل على أنه لا بد من الحجة على ما يؤخذ من أمور الديانات وأن ما لا دليل عليه باطل .

(فَمَنْ أَظْلَمُ) من الاستفهام الإنكارى أى لا أحد أظلم لنفسه وأنقص لحق غيره .

(مِمَّنِ افْتَرَى) اقتطع .

(عَلَى اللهِ كَذِبًا) فإن أنكره أو جعل له شريكا وهذا من جملة كلام أصحاب الكهف متصل بما قبله وقيل من كلام الله معترض بين كلامهم فيكون الكذب محتملا لما ذكر وحده وله مع ادعاء الولد لله تعالى وتقدس عن ذلك كله .

ثم قال أصحاب الكهف بعضهم لبعض بعد ما خرجوا عن حضرة الملك والناس : (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ) ذكر بعض أن إذ تجيء حرف تعليل فعليه تكون تعليلا لقولهم فأووا أى ائووا إلى الكهف لاعتزالكم إياهم فى أمورهم كذبا نحهم وبقلوبكم وما يعبدونه غير الله والفاء صلة للتأكيد ولتشبيه التعليل بالشرط فى التعليق ألا ترى مثل قولك : أمّا أنت برّا فاقترب ، وقوله :

أبا خراشةَ أمّا أنت ذا نفر فإن قوميَ لم تأكلهم الضبُع

ويحتمل استعمال إذ للحال أو للاستقبال مجازاً فتكون ظرفا متعلقا بما بعد الفاء والفاء صلة للتأكيد أو لتضمين إذ معنى إذا فى الاستقبال والشرط إيضاح كونها للحال أنهم فى حال قولهم ائووا معتزلون لهم وإيضاح كونها للاستقبال أن يقال : إن المعنى : وإذا أردتم الدوام على اعتزالكم لهم أو إذا أردتم اعتزالهم بأجسادكم كما اعتزلتموهم بقلوبكم وفى أمورهم .

وقيل فى إذ التى هى حرف تعليل : إنها ظرف والتعليل مستفاد من قوة الكلام وما معطوفة على الهاء فى اعتزلتموهم واقعة على الأصنام والاستثناء منقطع على أنهم لا يعبدون الله بل الأصنام وحدها ومتصل على أنهم يعبدونها معه تعالى وذلك كله من كلامهم ويجوز أن تكون ما نافية والاستثناء مفرغ على هذا فيكون قوله : « وما يعبدون إلا الله » من كلام الله سبحانه وتعالى معترض بين قولهم : « وإذ اعتزلتموهم » وقوله : « فأووا إلى الكهف » لتحقيق اعتزالهم للمشركين وإفادة أنهم فى تلك الحال عابدون لله وحده كما كانوا قبلها أى لا يصدق عليهم فى تلك الحال أن يقال : إنهم قد اتصفوا بعبادة غير الله فيما مضى ولا فى تلك الحال .

وقيل : كانوا مشركين ثم آمنوا وعلى هذا فالمراد نفى عبادة غير الله فى تلك الحال وما يتصل بهـا قبلها مما نزل كله منزلة الحاضر . ومعنى ائووا : التجئوا واذهبوا. وفى مصحف ابن مسعود : وما يعبدون من دون الله وهو أنسب بكونه من كلامهم إذ لا يصح على قراءته أن يكون من كلام الله إلا بحذف أى وما يعبـدون من دون الله وهو مكتوب بهمزة ساكنة هى فاء الكلمة فواو مضمومة هى عين الكلمة فواو الجماعة ولام الكلمة ياء محذوفة وكذلك يقرأ وقياس الكتابة أن يكون بألف غير مهموزة .

وأل فى الكهف للحقيقة أى إلى كهف ما من الكهوف أو للعهد الحضورى إن كانوا يرونه حين القول كما روى أنهم يرونه حين كلامهم أو للعهد الذهنى إن كانوا قد توافقوا على ذلك الكهف قبل . وأما ذكر الكهف قبل هذه الآية فمن كلام الله سبحانه .

(يَنْشُرْ) يبسط . (لَكُمْ رَبُّكُمْ) شيئاً (مِنْ رَحْمَتِهِ) فى الدنيا والآخرة ويوسع عليكم .

(وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً) بفتح الميم وكسر الفاء مصدر ميمى شاذ والقياس فتح الفاء لأن مضارعه مكسور العين ومعناه يهيىء لكم من أمركم رفقاً أى ييسر لكم الرفق بمعنى يرفق بكم بأن يرزقكم ما تنتفعون به من نحو غداء وعشاء وهو من الرفق ضد التغليظ والتشديد أو من الرفق الذى بمعنى الارتفاق وهو الانتفاع أو بمعنى الارتفاق الذى هو الاصطحاب .

وقيل : هو مصدر فى الأصل واستعمل بمعنى مفعول أى ماينتفع به أو مايصطحب به وقرأه غير نافع وابن عامر بكسر الميم وفتح الفاء فيكون اسماً لما يرتفق به أى ينتفع به أو يصطحب وإنما جزموا بأن الله الرحمن الرحيم يهيىء لهم من أمرهم

مرفقاً لخلوص يقينهم وقوة وثوقهم بفضل الله وهذا هو الظاهر المناسب لمن أخلص نفسه إلى الله ويحتمل أن يكون قد أخبرهم بذلك نبي في زمانهم قيل : أو كان بعضهم نبيا فلا يكون قد أشرك قط .

(وَتَرَى الشَّمْسَ) أي تعلمها بإخبارنا إياك أو تراها ببصرك لو رأيت كهفهم حين انتشار الشمس بجوانبه والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تمكن منه الرؤية العلمية أو البصرية .

(إِذَا طَلَعَتْ) وجملة : (تَزَاوَرُ) مفعول ثان لترى بمعنى تعلم أو حال من الشمس على أن ترى بمعنى تبصر وجواب إذا أيضا جملة كهذه دلت عليها هذه أو جوابها هذه وإذا وجوابها مفعول أو حال ومعنى تزاور تميل وأصله تتزاور بتاءين مفتوحتين بعدهما زاي خفيفة أبدلت التاء الثانية زايا فسكنت هذه الزاي وأدغمت في الزاي وقرأه الكوفيون تزاور بحذف إحدى التاءين وتخفيف الزاي وقرأه ابن عامر ويعقوب تَزْوَرّ بإسكان الزاي وتشديد الراء بدون إدخال ألف بينهما وبين الواو قبلها وقرئ هكذا لكن بإدخال الألف بينهما والكل من الزور بمعنى الميل ومنه زاره زيارة أي مال إليه .

(عَنْ كَهْفِهِمْ) أي تميل عنه ولا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم لأن الكهف كان جنوبيا ولأن الله أبعدها عنهم إكراما لهم وما كان في ذلك السمت تصيبه الشمس . وقيل : لأن باب الكهف كان في مقابلة بنات النعش وأقرب مطالع الشمس ومغاربها إلى محاذاة بابه مطلع شمس السرطان ومغربها والشمس إذا كان مدارها مدار رأس السرطان تطلع مائلة عن باب الكهف مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه وتحلل عفونة الكهف وتعدل هواءه ولا تقع عليهم فتؤذي أجسادهم وتبلي ثيابهم .

(ذَاتَ الْيَمِينِ) أى جهة اليمين وهو يمين الكهف فذات ظرف مكان متعلق بتزاور أى تميل فى جهة اليمين كذا قيل وهو تفسير بالواقع وإلا فذات اليمين نفس اليمين أو جهة صاحبة اليمين أى من يمينه فإن يمين الشىء متسع غير محدود وهذه الجهة من جملة يمينه قريبة إليه وقيل : حقيقة ذلك لجهة ذات اسم اليمين .

(وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ) أى تقطعهم بمعنى تعرض عنهم وتتركهم . والقرض : القطع والمراد هنا القطيعة كما ذكرت .

(ذَاتَ الشِّمَالِ) شمال الكهف وفى هذا ما مر فى ذات اليمين وفيه دليل على أن يمين باب البيت يعتبر عند الخروج منه .

(وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ) متسع (مِنْهُ) من الكهف لا ينالهم غم الغار ولا حر الشمس لأنهم فى أوسطه بحيث ينالهم روح الهوى دون الشمس لأن باب الغار بحيث لا تدخل عليهم الشمس أو المعنى : إن الشمس تميل عنهم طلوعاً وغروباً ولا تصيبهم مع أنهم فى مكان واسع منفتح مظنة لأن تصيبهم لولا أن الله حجبها عنهم كما مر .

(ذَٰلِكَ) أى شأنهم والتجاؤهم إلى الكهف على الحد المذكور أو إخبارك بقصتهم بدون أن تقرأها فى كتاب أو يعلمكها إنسان أو تزاور الشمس وقرضها طالعة وغاربة مع أن ما فى ذلك السمت تصيبه الشمس فى العادة لولا أن الله منعها أن تدخل عليهم الغار بقدرته .

(مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) دليل وجوده وكمال قدرته .

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ) بالتوفيق (فَهُوَ الْمُهْتَدِ) مثل أصحاب الكهف وغيرهم من الموفقين وذلك يتضمن الثناء على أصحاب الكهف ولا يقال كيف يثنى عليهم

وهم موفقون لأنا نقول : ليس التوفيق جبرا بل أمر تسببوا فيه بأفعال وأقوال واعتقادات اختيارية قارنها التوفيق وكذا الإضلال ليس جبرا بل تسببوا بأمور قارنها الخذلان ويجوز عندى وجه آخر هو أن المعنى ليس مجرد الآيات موجبا للاهتداء كآية أصحاب الكهف وسائر الآيات بل موجب الاهتداء هداية الله عز وجل بالتوفيق للمتأمل فى الآيات . أثبت ياء المهتدى فى الوصل نافع وأبو عمرو .

(وَمَنْ يُضْلِلْ) يخذله (فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا) من يليه بالتوفيق (مُرْشِدًا) مصلحا لحاله مسددا له .

(وَتَحْسَبُهُمْ) تظنهم يا محمد لو رأيتهم ولم نخبرك بأنهم رقود والخطاب لكل من يصلح للظن أو الخطاب وقرئ بكسر السين .

(أَيْقَاظًا) جمع يقظ بضم القاف وكسرها أى تحسبهم غير نائمين لانفتاح عيونهم وقيل : لكثرة تقلبهم .

(وَهُمْ رُقُودٌ) نائمون . الجملة حال من هاء تحسبهم والرابط واو الحال والضمير بعده أو من ضمير تحسب فالرابط الواو وأنت خبير بأن المراد باليقظة كون الإنسان غير نائم وقيل : المراد الانتباه من النوم كما هو المتبادر .

(وَنُقَلِّبُهُمْ) فى نومهم لئلا تأكل الأرض ثيابهم وأجسامهم وقرئ يقلبهم بالمثناة آخر حروف الهجاء والضمير المستتر عائد إلى الله سبحانه وتعالى والمعنى : نقلبهم ملائكتنا أو نقلبهم ملائكتى فحذف المضاف وجعل الفعل كما يناسب المضاف إليه أو أسند الله سبحانه وتعالى التقليب إلى نفسه لأنه أمر به وواقع بإذنه ويجوز أن يكون تقلبهم بقدرة الله بلا واسطة مَلَك .

وقرئ وتقلبهم بتاء مفتوحة مثناة وقاف كذلك وضم اللام وفتح الباء الموحدة وهو مصدر مفعول به بمحذوف أى وتشاهد تقلبهم يدل عليه قوله عز وجل : وتحسبهم أيقاظا .

واختلفوا فى تقلبهم فقيل : كثير كأمر وقيل : يقلبون فى السنة مرة واحدة يوم عاشوراء وهو رواية عن ابن عباس وقال أبو هريرة: يقلبون كل سنة مرتين .

(ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) أى نوقع التقليب فى جنبهم الأيمن إلى جنب الشمال وفى جنب الشمال منهم إلى الأيمن .

(وَكَلْبُهُمْ) كلبٌ راعٍ مروا به فتبعهم وتبعهم الكلب كما يأتى إن شاء الله وأضيف إليهم لأن الراعى صاحبه واحد منهم أو روعى مصاحبة الكلب لهم فى ذلك المكان أو فيه وفى طريقهم إليه وأضيف إليهم باعتبار تلك الملابسة فقط ولو فى حق مالكه وألغى كونه مالكه ولو اعتبر كونه مالكه واعتبرت الملابسة فى حق غيره للزم استعمال الإضافة فى معناها الحقيقى ومعناها المجازى .

وقرأ جعفر الصادق : وكالبهم بوزن فاعل للنسب كَلَابنٍ وتامرٍ أى وصاحب كلبهم .

وقيل: إن الكلب الذى تبعهم إنما هو كلب تبعهم لما مروا به. وروى أنهم طردوه فأنطقه الله فقال : أنا أحب أحباء الله فناموا وأنا أحرسكم ويؤيد القول الأول قراءة جعفر المذكورة .

(بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ) يديه . قيل: إنه إلى الآن باسط يديه وهو كحالهم حى نائم يقلّب إذا قلبوا ويفترش أذنه . وعلى هذا إنما عمل اسم الفاعل لأنه للحال . وقيل: إنه مات وذهب قبل نزول الآية فقيل : إنما عمل اسم الفاعل مع أنه للماضى تنزيلا للحالة الماضية منزلة الحالة الحاضرة تقريراً لأمر ذلك الكلب وبسطه كأنه مشاهد .

وقال الكسائى : إن اسم الفاعل يعمل ولو كان للماضى لهذه الآية ونحوها وهكذا الخلف فى صيغة المبالغة واسم المفعول وذلك فى نصب المفعول وأما رفع

الفاعل والنائب فلا يشترط الحال أو الاستقبال والمانع لعمل الذى للماضى يؤول ذلك بتنزيل الحال الماضية منزلة الحاضرة ويقدر الفعل ويجعله هو الناصب وذلك عندى تكلف والواضح قول الكسائى لكثرة الأدلة عليه والأصل عدم تأويل الكثير .

(بِالوَصِيدِ) فناء الكهف وقيل : الوصيد : الباب . وقيل : العتبة والباء للظرفية أو للإلصاق . روى عن ابن عباس أن كلبهم أعور فوق القلطى ودون الكردى والقلطى كلب الصين. قال مقاتل: كان أصفر. قال بعض: هو شديد الصفرة حتى ضرب إلى الحمرة وهو قول محمد بن كعب القرظى . وقال الكلبى: لونه كالذهب. وقيل : كلون الحجر وقيل : كلون السماء . وعن ابن عباس: أبيض . وعن علىّ عن رسول الله ﷺ أنه أبلق وأن اسمه قطمير وهكذا روى عن ابن عباس أن اسمه قطمير وعن مجاهد قنطموريا وعن عبد الله بن كثير قطمور. وعن علىّ أيضا حران وعنه أشهربان ، وعن شعيب حران كما مر عن علىّ . وعن الأوزاعى مواو . وعن عبد الله بن سلام بسيط وعن كعب صهبان وعن وهب بنى .

وقالوا : من أراد أن لا ينبح عليه كلب فليقرأ : « وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

وذكروا أن الحيوانات التى تكون فى الجنة : عجل إبراهيم وكبشه الذى فدى به ابنه ، وحوت يونس ، وبقرة قوم موسى المذكورة فى سورة البقرة، وناقة صالح وفصيلها ، وكلب أهل الكهف ، وفأرة سبأ ، وهدهد سليمان ونملته ، وحمار عزير ، وناقة سيدنا محمد وبغلته وحماره يعفور صلى الله على سيدنا محمد وسلم على الأنبياء وباقى الحيوان يكون ترابا .

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) أشرفت عليهم ببصرك وقرئ بضم الواو تشبيها بواو الجمع .

(لَوَلَّيْتَ) لرجعت وراءك . (مِنْهُمْ فِرَارًا) أى هيبة التى ألبسهم الله إياها لئلا يصل إليهم أحد إلى المدة التى أراد الله إيقاظهم فيها أو يميتهم فى منامهم وفراراً مفعول مطلق لأن للتولية المتصلة بالاطلاع بلا فصل لا تخلو عن فرار وأيضا التولية لفظ عام ويجوز كونه مفعولا من أجله أو حالا تأكيدا ومبالغة كأنه نفس الفرار أو بتقدير مضاف أى ذا فرار أو بالتأويل باسم الفاعل أى فارا .

(وَلَمُلِئْتَ) وقرأ نافع وابن كثير بتشديد اللام للمبالغة وقرئ بقلب الهمزة ياء مع التخفيف (مِنْهُمْ) من للتعليل أو للابتداء .

(رُعْبًا) وقرأ ابن عامر والكسائى ويعقوب بضم العين كالراء وهو بالإسكان والضم : الخوف الذى يملأ الصدر من رعبت الشىء ملأته وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة . وقيل : لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجسامهم وانفتاح عيونهم كالمستيقظ الذى أراد أن يتكلم . وقيل : لوحشة مكانهم .

وروى أن معاوية غزا الروم فمر بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء لننظر إليهم فقال له ابن عباس : ليس لك ذلك وقد منع الله عز وجل ذلك من هو خير منك فقال: لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا. فقال له معاوية : لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم : اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم .

وزعم بعضهم أن أهل تلك الأرض يقلمون أظفار أصحاب الكهف ويقصرون شعور رءوسهم ولحاهم وينفضون الغبرة عن ثيابهم مرة فى سنة وأن بعض رسل الملوك رآهم فخرجوا سالمين ولعلهم رسل معاوية وقيل : هم فى رستاق بين عمورية ونقيرة فى جبل علوه ألف ذراع ليس له سَرَب من وجه الأرض يؤدى إليهم وفى أعلى الجبل كهف يشبه البئر ينزل منه إلى باب السَّرَب ويمشى مقدار

ثلاث خطوات ثم يفضى إلى بيوت منقورة منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة وعليه باب من حجر فيه أصحاب الكهف طليت أجسادهم بالصَّبِر والكافور وكلبهم عند أرجلهم رأسه مستدير إلى ذَنَبه لم يبق إلا رأسه وعَجُزه وفِقار ظهره ووهم أهل الأندلس فى قولهم : إنهم الذين فى لَوشة وإنما هؤلاء شهداء قال بعض من وثق به غيرى : لقد رأيت أصحاب الكهف فى ذلك الكهف الذى بين عمورية ونقيرة سنة عشر وخمسمائة .

(وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ) أى بعثناهم من نومهم كما أنمناهم تلك الإنامة دلالة على كمال قدرتنا (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) أى ليسأل بعضهم بعضا عن حالهم ومدة لبثهم فيعرفهم مدة اللبث الذى أرسلوه بالورق إلى المدينة فيزدادوا يقينا وإيمانا بالبعث وكمال القدرة ويشكروا نعمة الله .

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ) هو كبيرهم فيا قيل واسمه مكشلمينا . وقيل : كمسلمينا .

(كَمْ لَبِثْتُمْ) فى نومكم كم هنا ظرف زمان منزل منزلة المفعول به وهى للاستفهام متعلق بلبثتم أى كم ساعة أو نحو ذلك قيل : إنهم استكثروا نومهم فتساءلوا عن مدته وقيل : راعهم مافاتهم من الصلاة فقال ذلك .

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) بناء على غالب ظنهم لأن النائم لايدرى كم نام إلا بدليل يراه وفى ذلك دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب وأنه لا يكون كذبا وإن جاز أن يكون خطأ قاله الزمخشرى ولما لم يتحققوا مدة اللبث ردوا العلم إلى الله .

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ) منكم لأنكم ولو علمتم لكن بظن أو أعلم بمعنى علم أى ربكم عالم دونكم .

(بِمَا لَبِثْتُمْ) ما مصدرية أى بلبثكم ويقدر مضاف أى بمقدار لبثكم أو مدة

لبثكم أو اسم أى بالزمان الذى لبثتموه وإنما كان العائد الهاء المحذوفة العائدة للزمان لأنها نُزِّلت منزلة المفعول به ولو عادت للزمان والملك ساغ حذفها .

ويجوز أن يكون لبثنا يوما أو بعض يوم قول بعض وربكم أعلم بما لبثتم قول آخرين منكرين عليهم الدخول فيما لا علم به لا على سبيل التحريم بل على سبيل التنزه لعدم موجب الدخول فيه .

وقد روى أن كبيرهم المذكور سمع الاختلاف بينهم فقال : دعوا الاختلاف ربكم أعلم بما لبثتم . وقيل : دخلوا الكهف غُدوة فانتهوا بعد الزوال فظنوا أنهم فى يومهم وهو قولهم : أو بعض يوم أو أنهم فى اليوم بعده وهو قولهم : لبثنا يوما فلم يذكروا بعض الذى بعده لأن أو للشك كما هو المتبادر .

ولك أن تجعل أو بمعنى بل أو للتنويع باعتبار الكل والبعض فيكونون قد ذكروا بعض الذى بعده ومذهب سيبويه أنه لاتأتى بمعنى بل إلا إن أعيد الفاعل وتقدم نفى أو نهى .

ويجوز كونها بمعنى الواو فيكونون قد ذكروه ولما نظروا طول أظفارهم وأشعارهم قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم وقيل : قالوا لبثنا يوما فنظروا الشمس بقى منها بقية بأن خرجوا إلى موضع ترى منه فقالوا : أو بعض يوم ولما نظروا طول أظفارهم وشعورهم علموا أنهم لبثوا أكثر من يوم فقالوا : ربكم أعلم بما لبثتم وذلك أظهر من أن يقال : علموا بإلهام أن المدة متطاولة وأن مقدارها مبهم لايعلمه إلا الله ثم أخذوا بعد التحاور فيما يهمهم فقالوا :

(فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ) فبعثوا تمليخا فقد بان لك وجه تفريع هذا على قولهم : ربكم أعلم بما لبثتم فكأنهم قالوا : دعوا الكلام فيما اختص الله بعلمه فإنكم لا تتحصلون منه على شىء وخذوا فيما يهمكم فابعثوا أحدكم .

(بِوَرِقِـكُمْ) فضتـكم وهى دراهم مضروبة ويطلق أيضا على الفضة غير مضروبة والمراد هنا الأول والله أعلم .

وقرأ أبو بكر وحمزة وأبو عمرو وروح عن يعقوب بإسكان الراء .

وقرأه بعضهم بكسر الواو وإسكان الراء وليس من السبعة ولا من العشرة وكذا قراءة بعضهم ونسبت لابن محيصن بكسر الواو وإسكان الراء وإبدال القاف كافا وإدغام الكاف فى الكاف وهو غير جائز لالتقاء الساكنين على غير حدة وقراءة بعضهم بفتح الواو وكسر الراء وإدغام القاف بعد الإبدال وكونها به قراءة خارجة عن السبعة والعشرة هو الذى حفظت وهو ظاهر قول الإمام أبى عمرو الدانى أبو عمرو يعنى ابن العلا وأبو بكر وحمزة بورقكم بإسكان الراء والباقون بكسرها فظاهر قول القاضى إذ قال : إنه قرئ كذلك ولم ينسبه لواحد من العشرة وعادته أنه يصرح باسم القارئ إذا كان منهم. وقال الزمخشرى : إنها قراءة ابن كثير .

(هَٰذِهِ) بدل أو بيان أو نعت وجاز تأنيث الورق لأنه فضة (إِلَى الْمَدِينَةِ) طرسوس بفتح الراء وتسمى قبل الإسلام أفسوس بالفاء أو بالقاف وليست مصاحبتهم لهذه الورق منافية للتوكل لأنها حفظ للمال وتضييع المال إسراف محرم وإن كانت بنية فالتزود أيضا غير مناف للتوكل لأنه عمل الجارحة والتوكل إنما هو أمر قلبى ويتعين أنها تزود إن قيل : إنها من أموال آبائهم . اشتد شوق عالم فقير إلى الحج فكانت أغنياء بلده كلما أراد جماعة منهم الحج أتوه وعرضوا عليه ما يحج به فيرده عليهم فإذا تفرقوا عنه قال : ما عندى لهذا السفر إلا شيئان مثل الهميان والتوكل على الرحمن . والهميان : وعاء الدراهم يعنى شد الهميان من كفافه .

وسئلت عائشة عن مُحْرِم يشد عليه هِميانه فقالت: أوثق عليك نفقتك بل من خرج بلا زاد طامعا فى الناس متوكل عليهم ومن خرج بلا زاد منفردا أو كان لا يقبل عطاء وهو غير معتود لأكل نحو الحشيش إن مات بذلك فقد قتل نفسه.

(فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا) يعنى أى مواضعها أو أى أسواقها هذا ما أقول وقال غيرى : أى أطعمتها ولا يضعفه التمييز بطعاما بعد لأن لفظ الأطعمة غير مذكور بل لو ذكر كان كقوله عز وعلا : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا » وقال غيرى أيضا أى أهلها وعلى كل فأى مبتدأ استفهامية وخبرها اسم التفضيل بعدها والجملة مفعول ينظر عاق على الجملة بالاستفهام لأنه من النظر بمعنى العلم والتدبر فهو قلبى بل يجوز هذا أيضا فى فعل البصر وهو وجه ممكن هنا ولو اشتهر أن التعليق يختص بفعل القلب وعلى الأول فالمفعول هنا مقيد بالجار لأنه يقال : نظرت فيه. قال ابن هشام : وزعم ابن عصفور أنه لا يعلق فعل غير علم وظن حتى يضمن معناهما وعلى هذا فتكون الجملة سادّة مسد المفعولين.

(أَزْكَى طَعَامًا) أطهر وأبعد عن النجس والحرام والريبة وقد قيل : أمروه أن يطلب ذبيحة مؤمن لا ذبيحة من يذبح على الأصنام على أن فى المدينة مؤمنين يخفون إيمانهم وقيل : أجود طعاما وأفضل وقيل : أكثر وأرخص.

(فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) تتقوتون به والهاء عائدة إلى أى.

(وَلْيَتَلَطَّفْ) يكتسب اللطف وهو الرفق ما قدر فى طريقه إلى المدينة وفيها وفى كلامه حتى لا يعرفه أحد ثم صرحوا له لأن المراد بالتلطف أن لا يُعْلِم بهم أحدا كما قال :

(وَلَا يُشْعِرَنَّ) يعلمن (بِكُمْ أَحَدًا) من الكفار أى لا يفعل ولا يقول

مايؤدى إلى أن يعلم بنا أحد فإنهم لا يشكّون أن يقصد ويقصد إشعار أحدهم فعبر بالإشعار عن سببه .

وقيل : يجوز أن يكون معنى التلطف الحذر فى المعاملة لئلا يغبن وفيه عندى ضعف لأن القدر الواجب من القيام على النفس فى المبايعة لا يخلو عند رسولهم أيا كان منهم والتأكيد فى ذلك مع علمهم به حرص على الدنيا ورغبة اللهم إلا إن كانوا لا يعتادون المبايعة فحذروا من يرسلونه منهم أن يغبن .

(إِنَّهُمْ) أى أصحاب المدينة المشركون .

(إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) أى إن يطلعوا عليكم أين أنتم أو يظفروا عليكم .

(يَرْجُمُوكُمْ) يقتلوكم بالرض بالحجارة وكان من عادتهم القتل بها وهو أخبث القتل . وقيل : يعذبوكم وقيل : يشتموكم بالقول .

(أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ) أى يتسببوا فى رجوعكم إلى ملتهم التى كنتم فيها من الشرك بأن يضيقوا عليكم حتى تريدوا . أو المعنى : يطلبوكم أن ترجعوا فى ملتهم . وإنما تكلفت الوجهين لأن العود فى الملة إنما يكون عن القلب فلا يتصور فيه الإعادة بالقهر بل بالأسباب التى يذعن إليها القلب اللهم إلا إن أرادوا الإعادة بحسب الصورة بأن يمنعوهم عن ذكر الله بألسنتهم ونحو ذكره من العبادة الظاهرة ويجبروهم على فعل ما لا يجوز لغير المضطر .

وقيل : إن أصحاب الكهف لم يشركوا قط فمعنى إعادتهم فى الشرك تصييرهم إليه واستعمال العود بمعنى الصيرورة كثير فى كلامهم .

(وَلَنْ تُفْلِحُوا) لن تنجوا من عذاب الله ولن تفوزوا بنعيمه الدائم ورضاه (إِذًا) إن دخلتم فى ملتهم واعتقدتموها . (أَبَدًا) .

(وَكَذَٰلِكَ) أى كما أنمناهم وبعثناهم لما فى ذلك من الحكمة . (أَعْثَرْنَا)

أطلعنا . (عَلَيْهِمْ) قوم بيندريس المنكرين للبعث بعد الموت وغيرهم من المشركين المنكرين للبعث والمؤمنين فى زمانهم حين أيقظناهم .

(لِيَعْلَمُوا) أى ليعلم من ينكرون البعث أو ليستيقن المؤمنون ومنكرو البعث .

(أَنَّ وَعْدَ اللهِ) بالبعث بعد الموت فالوعد مصدر باق على معناه ويجوز أن يكون المعنى أن موعود الله فيكون بمعنى مفعول وموعوده هو البعث (حَقٌّ) فإن الإيقاظ من النوم مطلقاً مثل البعث ولا سيما الإيقاظ من ذلك الموت المتطاول سنين.

(وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ) لاشك . (فِيهَا) وهى وقت القيامة فإن من أخرج نفوسهم وأمسكها سنين وحفظهم عن التفتت ثم أرسلها إليهم فاستيقظوا قادر أن يحشر الموتى وحفظه أبدانهم أقرب إلى الاستدلال من حيث كمال القدرة من أن يعترض به أحد فيقول : إن الموتى متفتتون فيتعذر بعثهم لأن مانع التفتت مع دواعى التفتت ظاهر كمال القدرة فلا يعسر عليه بعث المتفتت بل من التفت بعقله أدنى التفات أغناه عن ادعاء التعذر والعسر ما يراه فيه الأشياء تبتدع بلا تقدم ويرى أنه وأمثاله عاجزون عن إبداعها وأن الشىء لا يوجد نفسه .

(إِذْ) متعلق بأعثرنا أى أعثرنا عليهم حين (يَتَنَازَعُونَ) ليرتفع التنازع إذا رأوهم مبعوثة أرواحهم فى أجسادهم حساسة وهذا المضارع للحال بالحكاية والواو للمؤمنين والمشركين فى زمان أصحاب الكهف .

(بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) ففريق ينكر بعث الأجساد والأرواح وفريق ينكر بعث الأجساد ويثبت بعث الأرواح وفريق يثبت بعثهما معاً وهو الصواب فالمراد بأمرهم أمر دينهم وهو ما ذكرناه .

وقيل : الهاء فى أمرهم عائدة إلى أصحاب الكهف ، وأمرهم هو رجوعهم بعد الاستيقاظ كما كانوا فقال فريق : ماتوا . وقال فريق : ناموا كنومهم الأول وهو الثابت الواضح .

وقيل : أمرهم قصتهم وما ظهر من الآية فيهم وأمرهم منصوب على المفعولية المقيدة على كل حال والمعنى يتنازعون فى أمرهم أو المفعولية المصرحة على تضمين يتنازعون معنى يتجابذون أى يجبذ كل من الفريق الأمر إلى ما يدعى. وما ذكر الله سبحانه وتعالى بقوله : قولوا: ابنوا، ليس تفصيلا لذلك التنازع بل خلاف آخر كما تعلمه من تفسيرى الأمر بما ذكرت.

وقيل : إن تنازعهم فى أمر أصحاب الكهف هو ما خص الله له بقوله (فَقَالُوا) أى قال بعضهم (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا) يسترهم سدًّا للطريق إليهم فلا يأتيهم الناس ولا يتنافسون فى أمرهم ولا يتسارعون إلى أخذ ترابهم .

وقيل : المعنى ابنوا عليهم بنيانا يسكنه الناس وتتخذونه قربة وإلا لا نسب بقوله (رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) وعلى الثانى يقال : المعنى حاصل ما يفعل أن يبني عليهم بنيان وندع التنازع فى أمرهم ربهم أعلم بهم .

وذكر بعضهم أن القائلين ابنوا عليهم بنيانا هم المشركون المنكرون للبعث مطلقاً أو المنكرون لبعث الأجساد فإن أقروا بالله كما هو المتبادر من إنكار بعث الأجساد فالمراد بربهم الله فشرك هؤلاء بإنكار البعث أو إنكار بعث الأجساد وإن لم يقروا به فرادهم بالرب من كان ربًّا لأصحاب الكهف بدون أن يعلم هؤلاء القائلون أن ربهم الله. قال ابن عباس: قال المشركون: نبنى عليهم بنيانا لأنهم من أهل ديننا .

(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا) استولوا أو غلبوا غيرهم .

(عَلَى أَمْرِهِمْ) أمر الفتية أصحاب الكهف وهؤلاء الغالبون هم المؤمنون وقيل : الملوك والرؤساء .

(لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ) من فوقهم أو على باب الكهف . (مَسْجِدًا) يصلى فيه المؤمنون ويتبركون بهم وبمكانهم لأنهم على ديننا . وقيل : كأنهم تنازعوا فى أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم فلم يهتدوا إلى الحقيقة فقالوا : ربهم أعلم بهم فإنه الذى فعل بهم ذلك .

وقيل : ربهم أعلم بهم هو كلام الله عز وجل رد به على الخائضين فى حديثهم من أولئك المتنازعين المذكورين فى الآية أو الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله ﷺ من أهل الكتاب .

وقيل : الأمر الذى تنازعوا فيه هو عدد أصحاب الكهف . وإنما قيل قال الذين غلبوا بدون واو العطف لأن المراد أن يكون جواب سؤال مقدر فإن قوله : ابنوا عليهم بنيانا يستدعى أن يقال : فهل بنوه عليهم ؟ وماذا وقع ولا سيما أنهم تنازعوا فى أمر البنيان كما خرّج عليه بعضهم قوله تعالى: إذ يتنازعون بينهم أمرهم فكأنه قيل أيضاً : وماذا قال الآخرون فأجاب بأنهم قالوا: لنتخذن عليهم مسجدا وأجاب بأن الواقع بناء المسجد لكن هذا يفهم فهما لا تصريحاً من حيث إن قائليه هم الغالبون ومعنى الغلبة على أمر الفتية الاستيلاء عليه ويجوز رد هاء أمرهم إلى الغالبين أى الذين استولوا أو غلبوا غيرهم على أمر أنفسهم الذى أرادوه بحيث صاروا إنما يكون ما أرادوا لا يغلبهم فيه منازعهم .

(سَيَقُولُونَ) الضمير لغير المتنازعين المذكورين فى الآية قيل : بل لأهل الكتاب والمؤمنين المتنازعين فى عدد الفتية أصحاب الكهف فى زمان النبى ﷺ

أخبر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأنه سيقول كل منهم كذا وكذا وقدر الله عز وجل إن اجتمعوا فقال كل منهم مقالته بعد ما أخبر الله بقوله سيقولون أى سيقول بعضهم (ثَلَاثَةٌ) أى الفتية ثلاثة رجال (رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ) قيل : هو قول اليهود والجملة نعت ثلاثة .

(وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ) أى خمسة رجال (سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ) قيل : هو قول النصارى والجملة نعت خمسة قرئ يقولون الأول بالسين دون الثانى والثالث اكتفاء بانسحاب معنى السين عليهما إذ عطفا على الأول المسلط عليه معنى السين كما تقول قد أُكْرِمَ زيد ونصر وتسلط معنى قد من تحقيق أو توقع على الثانى كالأول لعطفه عليه وكما تقول مررت بزيد وبكر وينسحب معنى الإلصاق المستفاد بالباء على بكر لعطفه على ما دخلت عليه الباء .

هذا هو الواضح عندى وأما أن يقال : إن المراد بالثانى والثالث الاستقبال فصحيح فى نفس الأمر لكن يبقى استقبالهما غير مؤكد بالسين وغير مدلول على اتساعه بالسين .

(رَجْمًا) أى ظنا . (بِالْغَيْبِ) أى فى الغيب ووضع الرجم موضع الظن كثيراً والمعنى : رمياً بالخبر الخفى عنهم وهو مفعول مطلق عائد إلى القولين أى يرجمون رجماً بالغيب أو مفعول لأجله أى يقول أصحاب القولين ذلك للرجم بالغيب .

ويجوز تنازع القولين فيه ويجوز إعطاؤه لأحدهما وتقدير مثله للآخر ويجوز أيضا أن يكون مفعولا مطلقاً لأحد القولين على التنازع أو على إعطائه لأحدهما وتقدير مثله للآخر على حد قعدت جلوساً .

(وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ) أى هم سبعة رجال . (وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) هو قول

المسلمين بإخبار رسول الله ﷺ لهم عن جبريل عليه الصلاة والسلام فهو الحق كما يومئ إليه إبطال الأولين بقوله: رجماً بالغيب إبطال مبادرة ويومئ إليه إثبات العلم بهم لطائفة قليلة مع أن عدم إيراد قول رابع فى مثل هذا المحل دليل على عدمه مع أن عدمه الأصل فتبقى ثلاثة نص على أولها وثانيها بالرجم بالغيب المتبادر منه البطلان فيصرف علم القليل بهم إلى أصحاب القول الثالث ولو كان الثالث كالأولين لأتبعه بالرجم أو أخر لفظ الرجم عنه.

ويدل على على صحة الثالث أيضاً الإتيان بالواو تأكيداً للصوق النعت وهو ثامنهم كلبهم بالمنعوت وهو سبعة لصوقا معنويا فالجملة نعت فكأنه قيل: ويقولون قولا عن ثبات واطمئنان نفس: سبعة وثامنهم كلبهم قال ابن عباس: حين وقعت الواو انقطعت العدة أى لم تبق لأحد علة يلتفت إليها.

وروى أن أسيدا والعاقب وأصحابهما من نصارى نجران كانوا عند رسول الله ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقال أسيد وكان يعقوبيا: ثلاثة رابعهم كلبهم. وقال العاقب وكان نسطوريا: خمسة سادسهم كلبهم وقال المسلمون: سبعة وثامنهم كلبهم وهذا الاجتماع والاختلاف بعد نزول الآية.

وقيل: إن الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب والمصيب القول الثالث وأصحابه هم القليل فى قوله: مايعلمهم إلا قليل على هذا القول. وقيل: الواو عاطفة جملة على أخرى أى هم سبعة وثامنهم كلبهم. وقيل: العطف من كلام الله تعالى إ. والمعنى: نعم هم سبعة وثامنهم كلبهم فسبعة من كلامهم أى هم سبعة والجملة معطوف عليها. وقوله: وثامنهم كلبهم من كلام الله جملة معطوفة وأن هذا تصديق للقول الثالث ويؤيده ما مر آنفا عن ابن عباس.

وإن قلت: إذا كان الصادق هو القول الثالث أو كان قوله: وثامنهم كلبهم

تصديقا له من الله تعالى فما وجه مجىء قوله : (قُلْ رَبِّ) وسكن الياء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو . (أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) .

قلت : وجه مجىء قوله : قل ربى أعلم بعدتهم توكيد صحة التصديق بإثبات علم المصدق .

ووجه مجىء قوله: ما يعلمهم إلا قليل الإشعار بأن القائلين تلك المقالة الصادقة قليل أو أن الذى قالها منهم عن يقين قليل أو لما كان التصديق فى الآية خفيا لا يستخرجه إلا مثل ابن عباس قيل ذلك ولهذا كان يقول : أنا من ذلك القليل هم سبعة وثامنهم كلبهم ويذكرهم بأسمائهم التى ذكرتهم بها أولا وذكر أن السابع راعيهم وأنه يسمى كسططيور وأن كلبهم أنهر يسمى قطميرا . وقيل : اسم راعيهم كفشططيوش .

وقيل : الواو للحال ويقدر للمبتدأ اسم إشارة أى هؤلاء سبعة ليكون فى الكلام ما يعمل فى الحال ويرده أن حذف عامل الحال إذا كان معنويا وهو ما فيه معنى الفعل لا حروفه ممتنع وإن قال: نقدر : هؤلاء سبعة معدودون أو اعتبر ما فى قوله سبعة معنى معدودون فالعامل ليس يتعين أن يكون اسم إشارة بل يجوز أن يكون معنى معدودون المضمن فى سبعة أو لفظ معدودون المقدر فلا حاجة إلى التخصيص بالإشارة .

وقيل : الواو واو الثمانية ذكرها جماعة منهم : الحريرى وأبو البقاء والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على وابن خالويه والثعلبى وزعموا أن العرب إذا عدوا قالوا : ستة وسبعة وثمانية إيذانا بأن السبعة عدد تام وأن ما بعده عدد مستأنف وذلك لغة ذكر بعض ذلك ابن هشام .

وذكر الدمامينى وجه كون السبعة تمام العدد أنه إما فرد أو مرتب من

فردين وهو الزوج أو من زوج وفرد أو من زوجين فالثلاثة الأولى فى الثلاثة فإن فى ضمنها الواحد والاثنين والأخير فى الأربعة ومجموع الثلاثة والأربعة سبعة فتمت بها الأصول فالثمانية زوج وزوج وزوج وقد مضى وهكذا والتسعة زوج وفرد ويبحث فيه بأن مثل هذا لا تبنى عليه اللغة .

وقيل : إن أكثر الأشياء سبعة كالسموات والأرض والأيام وأشواط الطواف والسعى ورمى الجمار وأبواب النار ويبحث فيه بأن الأكثرية غير مسلمة وأن مثل هذا ضعيف فى مباحث اللغة .

(فَلَا تُمَارِ) أى تجادل وأصله الإيقاع فى مرية أى شك فيما يظهر لى ويحتمل البقاء على هذا الأصل فى حديث : من تعلم علما ليمارى به السفهاء .

(فِيهِمْ) فى الفتية أصحاب الكهف أى فى شأنهم . (إِلَّا مِرَاءً) جدالا . (ظَاهِرًا) يظهر لك بما أوحى إليك فيه غير متعمق فيه بالدخول فى دقائقه وأبحاثه أو معنى ظاهر أنه خفى مائل عن طريق الدعاء إلى الحق بالسياسة فكأنه قيل : إلا مراء معروفا وهو المراد بما أوحى إليك من غير تغليظ وتجهيل لهم .

(وَلَا تَسْتَفْتِ) لا تطلب الفتوى . (فِيهِمْ) فى الفتية أى فى شأنهم (مِنْهُمْ) من أهل الكتاب حال من قوله : (أَحَدًا) استفتاء مسترشد لأنهم غير رشداء فيرشدوك ولأنهم جاهلون ولأنك على رشد فيما أوحينا إليك من شأنهم ولا استفتاء متعنت وإرادة فضيحتهم وإظهار جهلهم لأن التعنت مخل بمكارم الأخلاق ومخالف لما أمرت به من المداراة واستعمال الجميل .

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ) أى لشأن شىء أى فى شأنه أو لأجل شىء هو بألف بين الشين والياء كما قاله الشاطبى والخراز وغيرهما .

قال أبو عمرو الدانى فى المقنع عن بعضهم : رأيت فى جميع المصاحف شيا بغير

ألف ما خلا ولا تقولن لشيء قال البعض: وفى مصاحف عبد الله رأيتهما كلها بألف قال أبو عمرو : ولم أجد شيئا من ذلك فى مصاحف أهل العراق ولا غيرها بألف اه . وكنت متأملا فى زيادتها هنا وأقول : زيدت تأكيداً ليعلم أن فى الكلمة همزة تتقوى فى خفائها بألف وتمد والفاصل بينهما ساكن فلم يكن حاجزا حصينا وخص هذا بهذا اللفظ فى هذا الموضع اعتناء بالنهى عن عدم الاستثناء فى الكلام ثم بعد ذلك والحمد لله رأيت بعضه منصوصا عليه لشارح عقيلة الشاطبى وشارح الخراز .

روى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ أو قالوا لقريش : سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال : ائتونى غدا أخبركم ولم يقل إن شاء الله فأبطأ عليه الوحى بضعة عشر . وقيل : أقل . وقيل: أربعين فشق عليه ذلك وقد مر ذلك فى سبحان فأنزل الله تعالى تأديبا له : ولا تقولن لشيء (إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ) للشيء (غَدًا) حقيقته اليوم الذى بعد يومى متصلا به والمراد عندى هنا مطلق المستقبل ولو فى يومك أو بعد اليوم الذى يلى يومك فتكون لفظة غد مجازاً مرسلا لعلاقة الإطلاق أو التقييد أو هما وذلك أن الغد موضوع المستقبل بقيد كونه تالى يومك واستعمل فى مطلق المستقبل فيلزم الاستثناء كل من يقول : إنى أفعل أو سأفعل أو نحو ذلك مما أريد به الاستقبال سواء نطق بمادة فعل أم لا كأجىء وأعطيك فإن ذلك داخل فى قوله فاعل .

وقال بعض : لا يلزم الاستثناء الأمر من ذكر لفظة غد أو نحوها مما يكون مؤديا لمعناها اتباعا لظاهر الآية على أن المراد بلفظ الغد مدلول لفظ الغد بأى لفظ فقط .

واختلف فى اعتقاد الفعل بدون النطق هل يلزم فيه الاستثناء أم لا والذى

كالإثبات قياسا فى النطق والاعتقاد وقد يتكلف دخوله فى قوله فاعل فإنه قد يطلق الفعل على القدر المشترك بين الترك وعدمه ويدل له دخول ترك الصلاة ونحوها فى نحو من يعمل سوءا يجز به . وقيل : لا يلزم الاستثناء فى النفى .

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) والمراد الاستثناء بهذا المعنى بأى لفظ ولو بغير إلا أو بغير لفظ المشيئة أو بغير لفظ الجلالة من أسماء الله أو بغير إلا ونحوها بل بكسر الهمزة استثناء من النهى وهو منقطع وأن مصدرية ناصبة أى إلا مشيئة الله ويجوز كونه متصلا مفرغا وفيه أوجه :

الأول : أن يقدر الجار ويعلق بحال محذوفة أى إلا متلفظا بمشيئة الله أو ملتبسا بمشيئة الله ونحو ذلك ومعنى التلفظ بها والالتباس بها أن يقول : إن شاء الله .

الثانى : أن يجعل المصدر مفعولا لحال محذوفة أى إلا ذاكرا مشيئة الله أو إلا قائلا مشيئة الله وإنما نصب القول المفرد لأن هذا المفرد كناية عن الجملة مثل قولك : إن شاء الله .

الثالث : أن يجعل المصدر نائبا عن ظرف الزمان أى لا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا وقت مشيئة الله بأن يقول لك : قل إنى أفعله غدا أو يخبرك بأنك فاعله غدا هذا مراد الزمخشرى بقوله : ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء أن تقوله بأن يأذن لك فيه . وفهم ابن هشام أن معناه إلا إن قضى الله أن تقوله وقدر قوله فرد عليه بأن ذلك معلوم فى كل أمر ونهى وبأنه يقتضى النهى عن قوله : إنى فاعل ذلك غدا مطلقا وليس كما فهم فرده غير ثابت .

وردّ أيضا بالرأى الأخير على قول الزمخشرى : إن هناك وجها هو أن يكون إن شاء الله فى معنى كلمة تأبد كأنه قيل ولا تقولـه أبدا كقوله : وما كان

لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله؛ لأن عودهم فى الشرك لا يشاؤه الله أبدا وبه رد أيضا على من قال: إن الاستثناء منقطع وقد قلت به من رأى وأقول رده بذلك لا يصح لأن المعنى على التأبيد أو الانقطاع لا تتقل مجرد إلى فاعل ذلك غدا أبدا ولكن مشيئته هى الواقعة ولاشك أن قوله ذلك مجردا عن الاستثناء لا يجوز أبدا.

وذكر عن السهيلى أن الاستثناء لا يتعلق بقوله فاعل إذ لم ينه عن أن يصل إلا أن يشاء الله بقوله ذلك ولا بالنهى لأنك إذا قلت أنت منهى عن أن تقول إلا أن يشاء الله فلست بمنهى فقد سلطته عن أن يقوم ويقول شاء الله ذلك ولا وجه لقولك أنت منهى ولا وجه لقولك نهيت عن أن تقول: إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله فعله ولا لقولك نهيت عن أن تقول إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله عدم فعله فالأول استثناء لا حاجة إليه والثانى مأمور به لا منهى عنه وأوّل ذلك أن الأصل إلا قائلا أن يشاء الله وحذف القول كثير قال: فقد تضمن كلامه حذف أداة الاستثناء والمستثنى جميعا والصواب أن الاستثناء مفرغ وأن المستثني مصدر أو حال أى إلا قولا مصحوبا بأن يشاء الله أو إلا ملتبسا بأن يشاء الله وقد علم أنه لا يكون القول مصحوبا بذلك إلا مع حرف الاستثناء فطوى ذكره لذلك وعليهما فالباء محذوفة من أن. وقوله طوى ذكره أى من غير تقديره فى الكلام ليغاير كلام السهلى.

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ) أى مشيئة ربك وقل إن شاء الله.

(إِذَا نَسِيتَ) الاستثناء عند الكلام ثم تذكرت أو نبهك أحد وقد روى أنه ﷺ لما قال لسائليه عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين: أخبركم غدا ونزل: ولا تقولن لشىء الخ قال: إن شاء الله قال ابن عباس: ينفع الاستثناء ولو بعد سنة ما لم يحنث رواه الطبرانى وكذا عن سعيد بن جبير.

وقال الحسن وطاووس : له الاستثناء ما دام فى مجلسه وعن عطاء مقدار حلب ناقة غزيرة وقال الجمهور وأبو حنيفة لا يفيد الاستثناء إلا إن كان متصلا باليمين أو مفصولا بمانع كعطاس وسعلة وتثاؤب ولو كان كما قال غيرهم لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب .

وحكى أنه بلغ المنصورَ أن أبا حنيفة خالف ابن عباس واستحضره لينكر عليه فقال أبو حنيفة: هذا يرجع عليك لأنك تأخذ البيعة بالأيمان أفترضى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن كلامه ورضى عنه .

وقيل :يفيد الاستثناء ما لم يتكلم وعن ابن عمر عنه ﷺ : إذا استثنى فله ثنياه ولا يفيد الاستثناء بالقلب وحده.

وقيل: المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء حثاً فى البعث على الاهتمام بالاستثناء .

وقيل : اذكره إذا غضبت فنسيت ذكره ثم تذكرت أو نُبهت قال وهب : ذكر الله جل وعلا فى التوراة والإنجيل : يا ابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب .

وقيل : اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى . وقيل : ذكره هو أداء الصلاة المنسية إذا تذكرها كما ورد فى الحديث : من نام عن صلاة أو نسيها ثم ذكرها فذلك وقتها .

وقيل : اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك الذكر على التدارك وهذا يصرف لغيره ﷺ ولو كان الخطاب له ويجوز أن يكون لمن يمكن منه الترك .

(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ) ربى بإثبوت الياء بعد النون وصلا فى قراءة نافع وأبى عمرو وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفا والمعنى أن يدلنى ويرشدنى .

(رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذَا) أى من أصحاب الكهف. (رَشَدًا) علما ودلالة على نبوتى ورسالتى . وهداه الله سبحانه لأعظم من خبر أصحاب الكهف كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم وأخبار الغيب والحوادث المستقبلة إلى قيام الساعة وسائر الحجج والبراهين فألخم معانديه إلخاما عاما سألوه عن أصحاب الكهف والروح وذى القرنين فأجاب بالحق مع ما سبق له من المعجزات وزاد لهم : إنى سيكون لى ما هو أعظم برهانا من ذلك وأقرب منه إلى ما أقوله لكم من أنى نبى مرسل وعسى من الله واجبة ولما أمر نبيه أن يقولها علمنا أن ذلك وعد له والله سبحانه لا يخلف الوعد والجملة مستأنفة معترضة فى قصة أصحاب الكهف أو معطوفة على اذكر عطف قصة على أخرى .

ويجوز أن يكون قوله وقل عسى الخ متصلا بقوله : واذكر ربك إذا نسيت فى المعنى وعطفا عليه أى إذا نسيت شيئا فاذكر ربك وقل عسى أن يهدينى لشىء آخر خير مما نسيت وأقرب نفعا منه ولعل النسيان خيرة وقوله عسى ربى زيادة على الذكر الذى أمر به ويحتمل أن يكون إياه .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ) بدل من ثلاث لا من مائة لأنه لو أسقط مائة لبقى ثلاث سنين فيفسد المعنى وقد يقال : إنه تصح البدلية مع ذلك فإن كثيرا من الأبدال لا يصح إسقاط مبدلاتها فإن معنى قولهم البدل فى نية طرح المبدل منه أن المبدل منه سيق تمهيدا للبدل لا قصدا بالذات وأن المقصود بالذات البدل هذا ما ظهر لى ثم رأيت الأخفش أجاز كون سنين بدلا من مائة ورد عليه ابن هشام بما ذكر من أنه لا يصح أن يقال ثلاث سنين لفساد المعنى هنا مهجاب

عنه بما ذكرت وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة لسنين فلا تنون لفظة مائة بخلافها على قراءة الجمهور فإنها منونة

وإن قلت : الألف والمائة يضافان للواحد ؟

قلت : أضيف مائة هنا للجمع لأنه منزل منزلة الواحد لأن الياء والنون فيه عوض عن لام سنة وهى واو أو هاء مع أن الأصل فى العدد أن يضاف للجمع وقرأ أبىّ ثلثمائة سنة بإفراد سنة وإضافة مائة إليها .

(وَازْدَادُوا تِسْعاً) أى تسع سنين لبثا مضروبا فيه على آذانهم ثم بعثهم الله لأهل زمانهم وهذا بيان لما أجمل فى قوله وضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً .

وإن قلت : إذا كان هذا إخبارا من الله عز وجل فما وجه قوله : (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ) أى له علم ما غاب عن الخلق من السموات والأرض وما فيهن وأحوالهن أو عنده غيبهن فهو عالم به ؟

قلت وجهه : أن المتنازعين لم يقولوا : إن مدة لبثهم ثلاث مائة سنين وتسع بل منهم من قال: ثلثمائة، ومنهم من قال أقلّ فأجابهم الله بأنها ثلثمائة وتسع وأنه تعالى أعلم منكم بما لبثوا كما أنه اختص بعلم الغيب على الإطلاق وأن الحق ما قاله . وقد قيل : إنه لما نزل : ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا قالت نصارى نجران : أما ثلاث المائة فقد عرفناها ، وأما التسع فلا علم لنا بها فنزل قل الله أعلم بما لبثوا الخ فلذلك غيّر الأسلوب إذ قال : وازدادوا تسعا ولم يقل وتسعا وعلى الوجه قبل هذا فإنما غيَّر الأسلوب تكثيرا أو تقليلا بلفظ تسع منعوتا بلفظ الزيادة كأنه قال : ولبثوا مع ذلك أيضا تسعا . أو قال لم يلبثوا فوق ذلك إلا قليلا هو تسع .

وقيل : إن مدة لبثهم تسعمائة بحساب العجم على سير الشمس وبه حسب أهل الكتاب كنصارى نجران وثلثمائة وتسع بحساب العرب على سير القمر والتفاوت بين مائة سنة عجمية ومائة عربية ثلاث سنين فذلك تسع سنين والسنون فى الآية عربية .

وإن قلت : فلم قال : قل الله أعلم بما لبثوا مع أنهم قد وافقوا ؟

قلت : لأنهم ولو وافقوا لكن لايقين لهم ولأنهم لما ذكر لهم التسع أنكروها فقال : إن الله أعلم بالحساب فإنه أنزل القرآن على كيفية تعرفها العرب وكأن الحساب بزيادة التسع ولا معرفة لكم بوجه التفاوت بين الثلاث المائة التى علمتم وثلاث المائة والتسع التى لم تعلموا .

وقال قتادة : إن قوله : ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا من كلام أهل الكتاب فرد الله عليهم بقوله : قل الله أعلم بما لبثوا الخ . ويدل له مافى مصحف ابن مسعود : وقالوا لبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا .

وقيل : إنهم قالوا هذا باعتبار دخول الفتية الكهف إلى مدة الاجتماع بالنبى ﷺ فرد الله عليهم بأنه لاعلم لأحد بمدة دخولهم الكهف إلى وقتك هذا والصحيح أن ذلك إخبار من الله تعالى بمدة لبثهم إلى أن أيقظهم الله فى زمانهم .

(أَبْصِرْ بِهِ) أى بالله . أبصر : فعل ماض على صورة الأمر مبنى على فتح مقدر منع من ظهوره سكون صورة الأمر والهاء فى محل جر بالباء وفى محل رفع على أنها فاعل لأبصر ودخلت عليه الباء للتأكيد ولإزالة صورة إسناد صورة فعل الأمر إلى اسم غيبة وذلك هو العلة فى مثل أحسن بزيد مع زيادة أن فعل الأمر لا يرام الظاهر وإنما صح كون الهاء فاعلا مع أنها ضمير نصب أو جر بواسطة دخول الباء وذلك ما كنت أقوله ، وهو الصواب إن شاء الله فاحفظه .

وقال الأخفش : الفاعل ضمير مستتر عائد إلى كل أحد على سبيل البدلية لا الشمول ولفظ الهاء مفعول به إما صريح على أن الهمزة للتعدية والباء صلة للتأكيد . وإما متيد بالجار المذكور على أن الهمزة للصيرورة فالجار للتعدية .

(وَأَسْمِعْ) أى وأسمع به فحذف لدلالة الأول . والمعنى : عظم بصره وسمعه جدا كما يقال ما أبصر زيدا وما أسمعه وذلك تلويح إلى إبصاره الذى هو إدراك الأجسام وسمعه الذى هو إدراك الأصوات خارجان عن حد سمع الحادث وإبصاره لأنهما لا يشذ عنهما شىء ما وقد ورد مثل ما أوله فى حق الله وهو فى صحيح الربيع ابن حبيب وهو مجاز .

(مَا لَهُمْ) أى لأهل السموات والأرض (مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ) يتولى أمورهم (وَلَا يُشْرِكُ) أى الله (فِي حُكْمِهِ) أى فى قضائه . وقيل : فى غيبه (أَحَدًا) من أهل السموات والأرض لا يجعل لأحد منهم مدخلا فى قضائه لأنه غنى عن الشريك ولأن غيره لا يتأهل لذلك .

وقرأ ابن عامر ويعقوب فى رواية قالون ولا يشرك بالمثناة التحتية وإسكان الكاف ورفع أحد على نهى كل أحد عن الإشراك فى حكمه أى لا يدّع أحد شاركة .

وقرأ الحسن بالتاء المثناة الفوقية وإسكان الكاف على النهى ونصب أحد والخطاب لكل أحد على سبيل البدلية أو للنبى والمقصود سواه . والله أعلم .

قال بعضهم : حدثنا ابن أبى إسحاق البصرى عن عبد الرحمن بن مزاحم أنه قال : دخلت مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ونظرت فإذا أنا بحلقة عظيمة فنظرت فإذا أنا بابن عباس رضى الله عنه فجلست أمامه فقلت له : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك لا تحدثنا بقصة أهل الكهف والرقيم أين كانوا أو كيف كانت مسألتهم ؟ وما كان صفة الكلب ولونه ؟ وما اسمه ؟

فقال ابن عباس رضى الله عنه : ياعبد الله سألتنى عن أمر عظيم وحديث طريف . كان فى زمان بنى إسرائيل رجل يقال له : دقيوس ، وكان راعيا يرعى غنما له فلما كان ذات يوم استحرت عليه الشمس فأوى إلى بئر فى فلاة يريد أن يقيل حولها ويسقى غنمه فأدلى دلوه إذ لاح له لوح من الذهب الأحمر وفيه أسطار مكتوبة بالعبرانية فأخذه وترك غنمه وسار إلى الكوفة فلم يجد فيها صغيرا ولا كبيرا يحسن قراءته فسار إلى بيت المقدس فلم يلق فى بيت المقدس من يحسن قراءته إلا رجلا من بنى إسرائيل شيخا كبيرا انحنى ظهره وسقط حاجباه على عينيه له من العمر ثلاثمائة سنة سمع باللوح فقال : علىّ به فاستخرج عصابة فعصب حواجبه فلم يزل ينظر فيه وفى وجه دقيوس ويبكى . فقال : مايبكيك ياشيخ ؟

فقال : هذا اللوح يدل أنك تدعى الربوبية من دون الله وهذه الأسطار تدل على كنز من كنوز الأرض فيه من الأموال ما لا يحصى عدده إلا الله .

فقال له دقيوس : دلى عليه .

فقال : نعم إن أعطيتنى الميثاق والعهد أن لا تغدر بى ولا تقتلنى وتجعلنى وزيرك .

فأعطاه العهد والميثاق على ذلك وأوقفه على خربة قديمة فضرب فيها بالمعول فانفتح باب المغارة .

فلما رأى دقيوس كثرة المال والسلاح غدر بالشيخ فضربه بالمعول فقتله واشترى دقيوس الخيل والعبيد وجيش الجيوش والناس يتطايرون عليه رغبة لما عنده من الأموال حتى جيّش جيوشا عظيمة .

ثم أخذ المال وسار بالجيوش يطلب موضعًا يتخذه منزلا فكان يجول فى الأرض فانتهى إلى رومة فبادر إليه ملكها بالجيش فلم يزالوا يقاتلون حتى انتصف

النهار فهزم دقهوص ملك رومة وقتل رجاله ودخل المدينة فسباها وأخذ أهلها ودخل الكنيسة العظمى التى كان بهـا صنم من الذهب الأحمر وعيناه من ياقوت وعلى رأسه ثلاثمائة وصيف يزيحون عنه الذباب ويمسحون عنه الغبار وكان أهل رومة يسجدون له من دون الله فأخذ دقهوس ما فى الكنيسة ما لا يحصى من الأموال وأخذ أموال رومة .

ثم سار يطلب موضعا يسكنه حتى انتهى إلى موضع كثير الأشجار أرضه بيضاء معتدلة فأمر أن تبنى فيها مدينة وسماها أفسوس وجعـل لها ثلاثة أسوار وجعل فيهـا قصراً من الرخام الأحمر ، له من الأبواب والطاقات عدد أيام السنة وجعل فيه مجلسا وأقام فى المجلس قبة من الذهب الأحمر وكوكبها بكواكب الدر والياقوت والجوهر .

واتخذ لنفسه سبع فتيان من خيار قومه وألبسهم الحلى وجعلهم وزراءه وأمرهم بالوقوف بين يديه ووضع الكراسى على يمين القبة وشمالها وأرسـل إلى الملوك وأقعدهم عليها وأحضر لهم الطعام والشراب وقال لهم : كلوا واشربوا ووضع لهم الصنم على سرير القبة البيضاء وأمرهم بالسجود له من دون الله سبحانه ثم أتوه يوما فسجدوا له فقال : ارفعوا رءوسكم ليس هذا وقت سجود ما الذى دهاكم ؟

فقالوا له : دهانا عساكر الفرس فى ثلاثة آلاف فاصفر لونه ووقع مغشيا عليه وسقط التاج عن رأسه فطيبوه بالطيب ورشوه بالمسك وقالوا : لا يهولنك هذا .

ولما أفاق احتجب ثلاثة أيام فى قصره فاجتمع الفتيان فى ليلة عنـد أكبرهم سنا وقد مر اسمه .

وقيل : إن أكبرهم سنا هو تمليخا اجتمعوا عنده وكان أفصحهم لسانا فى مجلس رخام وأحضر طعاما وشرابا فأكلوا وشربوا وناموا فخرج تمليخا إلى

وسط الدار فكبر ورفع رأسه إلى السماء فرآها مشتبكة بالنجوم وليس فى وسط الدار إلا الحى القيوم .

فقال تمليخا : ليت شعرى من كوكب هـذه الكواكب ، يا ليت شعرى مَن خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، يا ليت شعرى مَن أمطر الأمطار وأنبت أوراق الأشجـار ، يا ليت شعرى من أرسل الريح وسخر البحر . اعلمى يا نفسى أن لهذه خالقا خلقها وصانعا صنعها ومدبراً دبرها فبكى بكاء شديداً وخرّ ساجداً لمن خلق السماء والأرض ودخل المسجد باكيا وأيقظ أصحابه وقالوا له : يا حبيبنا تمليخا ما الذى يبكيك ؟

فقال لهم : إنى تفكرت فى الذى كان من الملك لدقيـوس حين اصفر لونه وسقط التاج عن رأسه من الفزع فلو كان إلٰها كما زعم ما فزع وما هـذا شأن إلٰه يُمهد ولكن يا أصحابى خرجت إلى وسط الدار فرأيت السماء مشتبكة بالنجوم فعلمت أن لها خالقا خلقها وصانعا صنعها ومدبرا دبرها بقدرته فهل يقدر دقيوس أن يخلق الليل والنهار والشمس والقمر ؟! ولكن يا أصحابى تعالوا نعبد الله الذى هو على العرش استوى .

فقالوا له : كيف السبيل إلى عبادة هذا الإلٰه .

فقال لهم : تعالوا نقل لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وما جاءت به الأنبياء حق .

فقالوا بأجمعهم : لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له .

فقال لهم تمليخا : إذا جَنّ الليل نخرج إلى هذا الجبل الذى كان حولنا نعبد إلٰهنا فعسى ربنا أن يغفر لنا ما سلف من ذنوبنا .

فقالوا : نعم إلى ماذا نقيم على الكفر !

فكانوا إذا جنّ الليل خرجوا من منازلهم إلى ذلك الجبل فاشتغلوا فيه بعبادة الله عز وجل إلى طلوع الفجر ورجعوا إلى منازلهم.

فأقاموا على ذلك مدة طويلة حتى نحلت أجسامهم واصفرت ألوانهم وسارت الدموع فى خدودهم طرقات من كثرة بكائهم على ما مضى من كثرة عصيانهم لربهم فكانوا يقومون الليل وإذا أقبل النهار يلبسون الحلى والحلل والتيجان ويقومون بين يدى الملك.

فأقاموا على ذلك زمانا طويلا حتى اطلع عليهم رجل من أعوان الملك فعلم أنهم يعبدون الله عز وجل فانطلق من ساعته حتى دخل عَلَى الملك وخرّ بين يديه ساجدا، لعنهما الله. فقال له الملك: ارفع رأسك ليس هذا وقت ركوع ولاسجود الذى جاء بك؟

فقال له: وزراؤك كرهوا صحبتك يأكلون رزقك ويتقلبون فى نعمتك ويعبدون إلها غيرك.

فبعث إليهم الملك رسوله فبادر لتمليخا رجل فقال: يا تمليخا اعلم أن الملك علم أنكم تعبدون إله السماء وقد أرسل رسوله نحوكم فاثبتوا عند سؤال الملك.

ولما ورد عليهم رسول الملك قاموا وركبوا الخيل ولبسوا الحلل وتطيبوا بالطيب ولما دخلوا عليه وضع لهم الصنم على سرير من الذهب الأحمر وأمرهم بالسجود وسجدوا لله رب العالمين وقالوا: ربنا إليك سجدنا وما عندك طلبنا يا إله السماء نجنا من عدونا وأغثنا بغيثك يا من لا يحول ولا يزول فظن دقيوس أنهم سجدوا له وأنهم يبكون من خوفه. فقال للرجل الذى جاءه بخبرهم: ويحك أنت نمام. فقال لبعض عبيده: اضربوا عنقه فعجل الله بروحه إلى النار وأقاموا يعبدون الله تعالى ويصومون النهار ويقومون الليل حتى اطلع عليهم دقيوس بنفسه،

وظن أنهم يعبدون إله السماء فكتم ذلك عليهم ولم يبده لأحد منهم وحضر له عيد يقوم فيه أربعين يوما بلوالبها يذبحون الذبائح ويأمرون الناس بالسجود للأصنام من دون رب العالمين ، وأمر الناس بالخروج إلى العيد وأمر البوابين بالعمود على أبواب المدينة لئلا يخرج الفتية . وقال لهم : إن خرجوا ليلا أو نهارا ضربت أعناقكم وأعناق أهلكم حتى أرجع من عيدى فأحرقهم بالنار أو أذرى رمادهم على الجبال العالية تهوى بها الريح وسار إلى عيده فاجتمع الفتية إلى تمليخا فى مجلس لهم وقد أدركه تعب العبادة فنامت عيناه وأصحابه ينظرون وإذا به قد قام فزعا مرعوبا فقالوا له : ما الذى روعك ياحبيبنا يا تمليخا ؟

فقال لهم : إنى رأيت فى منامى هذا شابين أمردين عليهما ثياب من نور وأردية من نور راكبين على فرسين لايشبهان خيلنا بأيديهما صوالج من الذهب وكورة من الفضة البيضاء وهم يلعبون بها فى المدينة فسمعت واحدا يقول : اضرب الكورة ياجبريل فضربها بالصالجة فطارت فى الهواء وهما على آثارها فسمعت قائلا يقول : اضربها أنت ياميكائيل فلم يزالا يضربانها حتى سارا بها إلى باب المدينة فانفتح الباب بقدرة من يقول للشىء : كن فيكون فخرجا قائلين : نخرج إلى الله رب العالمين فهذا يا أصحابى إلهام من الله كيف نخرج من هذه المدينة تعالوا نصنع صوالج وكورة .

فقالوا : لا نعرف ذلك .

فقال : ولا أنا ولكن أمثلها كما رأيت فى المنام فجمعوا دنانير ودراهم وساروا إلى صائغ فى المدينة فقالوا له : اصنع لنا صوالج وكورة من هذه الدنانير والدراهم .

فقال لهم : لا أعرف ذلك يا وزراء الملك وقد جازت علىّ مائة وخمسون سنة ما سمعت أحدا فى المدينة يقول الصوالج ولا الكورة فقال له تمليخا: ولا نحن نعرفها ولكن أمثلها الك كما رأيت فى منامى فمثّلها له فقال لهم: إنى أصنعها لكم فدفعوا إليه الدنانير والدراهم . فقالوا له : متى نرجع إليك ؟

فقال لهم : إذا نامت العيون فتعالوا إلىّ ندفعها إليكم .

فانصرف تمليخا وأصحابه إلى منازلهم وكان لتمليخا كرم مثمر فباعه بخمسة وثمانين درهما من الدراهم دقيوس وكان الدراهم مثل حافر الجمل مكتوبا عليه بالعبرانية لا إله إلا دقيوس فأخذها فى كيس وأخذ زاده ومشى مع أصحابه وأتوا الصائغ فى الوقت الذى وعدهم بعد أن لبسوا الحلى وجعلوا التيجان على رءوسهم وتطيبوا بالطيب وركبوا الخيل ثم وصلوا إلى الصائغ فدفع لهم الصوالج والكورة ووضعها بين أيديهم فى الأرض وجعلوا يضربونها بالصوالج وكان لها دوى عظيم فجعل الناس يتعجبون ويضحكون ويقولون : إن هذا اللعب ظريف ما رأينا مثله قط وأقبل البوابون والعبيد يتعجبون ويضحكون . وأنساهم الله سبحانه ما أوصاهم دقيوس به . ولما انتهت إلى باب المدينة ضربها تمليخا فخرجت إلى الباب ففتحه البوابون فردها أحد الفتية بالضرب إلى المدينة ثم ضربها تمليخا فخرجت .

فقال الجليل جل جلاله لجبريل عليه السلام : اهبط إلى الكورة واحملها بريشة من جناحك فهبط إليها جبريل عليه السلام أسرع من طرف العين فحملها بريشة يستدرجها من أرض إلى أرض وهم على أثرها يضحكون ويضربها الفتية حتى بلغت خمسة وثلاثين ميلا فى وقت قريب فنظر تمليخا نحو المدينة فلم يرها ولا أحدا من أهلها فقال : يا أصحابى ما فعلت المدينة ؟

فقالوا له : لا علم عندنا الله أعلم ولا نعلم إلا ما علمنا .

فقال لهم : يا أصحابى اسمعوا منى فأنا أكبر منكم سنا ، وإنى عرفت الله قبلكم فأخلصوا قلوبكم إلى ما كان لله انزلوا على الخيل ، واتركوا التيجان والإكليل ، والبسوا ثياب الصوف ، وتحزموا بالحبال ، وخذوا زادكم نهرب بدينا إلى إله السماء .

فقالوا له : كيف نطيق المشى حفاة ونحن أبناء الملوك تربينا على النعمة ولا نعرف المشى ؟

فقال لهم تمليخا : يا أصحابى افعلوا ما أمرتكم به لعل إله السماء يغيثنا وينجينا من عدونا .

قال: ففعلوا ما أمرهم فبينما هم يمشون إذ براع يرعى غنما على ربوة له كلب عظيم مجترئ ولما رآهم بادر إليهم ووضع لهم خده إلى الأرض وعيناه ناظرتان إلى السماء وبسط لهم ذراعيه وأخرج لهم لسانه وجعل يحرك ذنبه وعيناه تذرفان بالدموع.

فقال الراعى : الله أكبر ما رأيته خضع لأحد إلا لهؤلاء وكان الكلب قبل يعقر الفارس .

فقال الراعى : إن لهؤلاء عند الله منزلة رفيعة فترك غنمه وسار إليهم فوقف لهم على قارعة الطريق وركز مايتكىء عليه فلما رآه تمليخا قال : ماشاء الله كان لا قوة إلا بالله ولا معبود سواه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

فقال له : السلام عليك يا راعى .

قال له الراعى : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته أين تريدون ؟ وما أظنكم إلا هاربين من الملك أنقرب بكم إلى الملك أردكم إليه فيطعمنى ويسقينى وأكون عنده بالمنزلة الرفيعة .

فقال له : لا تفعل يا راعى بل نحن من وزراء الملك هربنا إلى إله السماء .

فلما سمع الراعى ذلك رفع عينيه إلى السماء وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وما جاءت به الرسل حق يا أصحابى لى فى هذه البلاد مائة سنة أرعى الغنم والله ما سمعت أحدا يذكر الله بلسانه إلا أنتم ولكن أين تريدون ؟

فقالوا له : نريد الهروب إلى ربنا بديننا .

فقال لهم : أنا صاحبكم فى الله ولكن اسمعوا منى أنا أكبر منكم سنا وأنا عرفت الله قبلكم وليس فى هذه الأرض طريق أو شجرة إلا عرفتها وأنتم غرباء ارجونى حتى أصرف الغنم إلى أربابها لئلا أتركها تأكلها الذئاب ويسألنى عنها علام الغيوب وآخذ زادى وأعود إليكم نهرب بديننا إلى إله السماء .

فقال له تمليخا : لاسبيل إلى مضيك معنا .

فقال له : لِمَ ذلك ؟

قال : خفنا أن تكون عدوا من أعداء الله تعالى تخبر بنا وتدل علينا فيردونا إلى الملك الكافر دقيوس فيقتلنا أو يردنا عن عبادة الله .

فقال لهم : كيف يكون ذلك وأنا عرفت الله قبلكم تخذوا علىّ عهد الله وميثاقه .

فقال له تمليخا : اصرف الغنم إلى أربابها وعد إلينا ولا تدل علينا بحق إله السماء .

فانطلق بالغنم إلى أربابها وأخذ زاده سبعة أقراص من خبز الشعير وشيئا من الزبيب ورجع فلما التحق بالفتية تقدم أمامهم وهم يتبعونه فبينما هم يسيرون إذ نظر نحو المدينة وإذا بكلب الراعى يتبعهم . فقال تمليخا له : انصرف عنا فما فى صحبتك خير .

قال : ولِمَ ذلك ؟

قال : إن هذا الكلب ينبح فيدل الناس علينا .

فقال لهم : اتركوه يمضى معنا يحرسكم إذا نمتم من عدوكم ومن السباع والهوام ولا يصل إليكم أحد لا يجىء فارس إلا قتله .

فقالوا له : إليقا .

فقال لهم : يا أصحابى إن هذا الكلب له معى مائة سنة إذا صليت يصلى معى بصلاتى وإذا دعوت الله رأيته رافعا عينيه إلى السماء يدعو بدعائى وإذا بكيت يبكى ببكائى فاتركوه يمضى معنا فوالله ما رأيت منه إلا الخير .

فقالوا له : لا ؟

فقال : ارجموه وأنا والله لا أفعل ذلك فطردوه بالحجارة .

فلما تكاثرت عليه الحجارة قعد على ذَنَبِه ورفع عينيه إلى السماء فأنطق الله لسانه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وما جاءت به الرسل حق يا أصحابى ما لكم ترجمونى بالحجارة وأنا عرفت الله قبلكم لى مائة سنة أعبد الله فاتركونى معكم وهكذا قضى علام الغيوب .

فبادروا إليه وحملوه على أعناقهم بالدولة ويمسحون عن وجهه الغبار ويقبلونه بين عينيه ويقولون : مرحباً بمن أنطقه لنا علام الغيوب .

فبينما هم سائرون إذ لاح لهم ماء جارٍ وكرْم مثمر وأشجار عالية وهو عظيم فقال لهم أحدهم ـ قيل فطاطيس ـ : مسنا الكلل والجوع اقعدوا تأكلوا من الزاد ونشرب من هذا الماء ونستظل فى هذا الكهف هربنا بديننا إلى إله السماء ففعلوا ذلك وتوسدوا ونامت أعينهم وعلق الله أرواحهم فى قناديل من نور تحت العرش ووكل ملائكة تقلبهم ذات اليمين رذات الشمال .

فلما رجع دقيوس من عيده إلى المدينة سأل عن تمليخا وأصحابه فقالوا له : صنعوا لعباً ظريفاً خيلوا به على أعين الناس وهربوا بدينهم إلى إله السماء فأرسل إلى الفهد والهوابين وضرب أعناقهم وقال لأهل المدينة : اركبوا الخيل السباق والنجب الرقاق فركبوا وخرجوا وليس فيهم من يقول : لا إله إلا الله لعنهم الله فقاموا على البحث عنهم حتى وصلوا إلى باب الكهف فاجتمع العساكر عند باب الكهف

فقال دقيوس لرجل من أعوانه : ادخل الكهف وانظر ما فعلوا وما فعل بهم إلههم الذى هربوا إليه فلما دخل الرجل أى أعينهم يقظانة والملائكة تقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد فولى هارباً وقلبه يخفق كالطائر فى الهواء .

فقال له دقيوس : ما الذى دهاك ؟

فقال له : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . فدخل عليهم فرآهم كذلك فولى فراراً وملئ رعبا كذلك وهو يقول : يا أهل أفسوس ما كنت أعذبهم بالذى عذبهم به إلههم الذى هربوا إليه ناولونى الحجارة فبنى عليهم باب الكهف .

فلما تم البناء ناداهم بأعلى صوته : قولوا لإلهكم الذى هربتم إليه ينجيكم من وراء هذا البناء الذى بنيت عليكم وسار إلى المدينة وقام فيها ما شاء الله فلما أراد الله هلاكه زعم أن له فى السماء شريكا فقال لقومه : إنى أريد أن أمضى للذى فى السماء وأكلمه ويكلمنى تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فجيّش جيشاً عظيما وسار إلى الجبل وقال لأهله : امكثوا حتى أكلم شريكى على هذا الجبل تعالى الله عن ذلك فلما استوى على الجبل أخرج الله إليه جراداً فلما رآه قال: هل رأيتم قط مثل

هذا الجراد الذى أرسل إلىّ شريكى نترا كم من جوانبه حتى استوى عليه فأكله.

ثم أرسل الله سبحانه عيسى بن مريم عليه السلام فآمن به أهل المدينة وكان باب المدينة مكتوباً عليه لا إله غير دقيوس فمحاه وكتب فى موضعه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن عيسى روح الله فاستخلف عيسى على المدينة ملكا مؤمناً ليقضى بين الناس بالحق .

ولما أراد الله إخراج أهل الكهف آية أرسل إليهم إسرافيل فجر يده على أجسامهم فأول من استيقظ تمليخا فنفض التراب عن رأسه واستيقظوا بعده. وقيل: لما استيقظ وجد نفسه عطشان فسار إلى باب الكهف وإذا بالحجارة لما جاز عليها من السنين تهدمت وسار إلى العين يشرب فوجدها قد غارت فقال : ما شاء الله أين الماء الجارى هنا شربنا منه بالأمس والتفت إلى الكلب فظن أنه نائم فجعل يحرك عينيه ورجع إلى أصحابه وأيقظهم بأسمائهم وأسماء آبائهم وأسماء أمهاتهم فاستيقظوا كلهم بقدرة الله عز وجل . فقال لهم : كم لبثتم فى كهفكم هذا ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم وقال لهم : من بنى هذا البنيان الذى تهدم وما فعل الماء الجارى والشجر والكرم؟ فقالوا : لا علم لنا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً فأخذ تمليخا الدراهم وقال للراعى : خذ هذه الدراهم واذهب بها إلى المدينة واشتر لنا خبزاً وزيتوناً أو زبيباً وارجع إلينا فقال له الراعى : أنت تربيت فى المدينة وأنت عارف بها وبأسواقها وأنا راع لا أعرف فيها شيئاً خذ عصاى فاذهب أنت إلى المدينة فقال : نعم فلبس ثياب الراعى وأخذ العصى بيده وودع أصحابه ولما خرج من الكهف تغيرت عليه الأرض ولم يعرف الطرقات وتحيّر وظن أنه نائم ونظر إلى السماء وبكى بكاء شديداً وقال : يا غياث أغثنى

بغيثك يا من لا يحول ولا يزول فبينما هو يدعو الله فإذا هو براع فتى من بنى إسرائيل لا نبات بعارضيه فقال فى نفسه : هذا الراعى ما أوقفه هنا إلا دقيوس فقال : السلام عليك يا راعى فقال له : وعليك السلام ورحمة الله . فقال تمليخا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فقال الراعى : نعم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . فقال تمليخا : يا راعى بحق من تعبد إلا أعلمتنى هل رجع دقيوس من عيده أم لا ؟ فقال : أنا ولدت فى هذه المدينة وفيها تربيت ما سمعت قط من يقول دقيوس ولا أظن هذا إلا من أسماء الجن فنعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال تمليخا: إن كان الحق ما تقول فدلنى على المدينة . فقال له: أى مدينة تريد ؟ فقال: أفسوس فقال له هى: أمامك فسار تمليخا حتى وصل إلى بابها فإذا مكتوب عليه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن عيسى روح الله فقال تمليخا : يا ليت شعرى أنا نائم أم يقظان مَن كتب هذا بباب المدينة وبالأمس كان مكتوبا عليه لا إله غير دقيوس فجعل يتفكر فى نفسه وإذا بفتى من بنى إسرائيل دخل المدينة فقال له : يا فتى قف فوقف فقال له : بحق مَن تعبد إلا ما أخبرتنى هل رجع دقيوس من عيده أم لا . فقال له : فى هذه المدينة ولدت وفيها تربيت وفيها قرأت التوراة والإنجيل والله ما سمعت أحدا يذكر دقيوس . فقال له : إن كان الحق ما تقول فدلنى على سوق الخبازين فسار به إلى السوق فإذا هو سوق من رخام مشبك بالحرير وعلى الخبازين الثياب الحسنة وعمائم متطيبين بأيديهم مراوح وعلى تلك الألواح الخبز وعلى الخبز مناديل الديباج فقال لفتى منهم : السلام عليك يا خباز فقال له : وعليك السلام ورحمة الله تعالى وبركاته فقال تمليخا : اشهد أن لا إله إلا الله فقال الخباز : نعم أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن عيسى روح الله ورسوله . فقال له تمليخا : سألتك بالله العظيم انظر فى وجهى هل

كنت نائما أو يقظان فقال: كيف تكون نائما وأنت تكلمني وأكلمك. فقال له تمليخا: إن كان الحق ماتقول فما الذى فى يدى فقال الخباز : إن بيديك درهمين صحيحين . فقال تمليخا : إن كنت يقظان فخذ هذين الدرهمين وأعطنى ما أتزود به أنا وأصحابى تركتهم جياعا عطاشا فوضع الدرهمين فى يد الخباز فأنكرهما الخباز وقال : يا فتى الصدق أمانة والكذب خيانة إن كنت أصبت كنزا من كنوز الأرض فاذهب به إلى الملك وأعطه منه خمسه كما أمر به رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام وينزل الله البركة فى الباقى ولا تحرم الكثير بالقليل واعلم أن إله السماء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء فقال له تمليخا : وحق إله السماء ما أصبت كنزاً وهذه الدراهم إنما هى من ثمن كرم بعته بالأمس فى هذه المدينة سألتك بالله العظيم أرجع دقيوس من عيده أم لا ؟ فقال له الخباز : والله ما سمعت أحدا يذكر دقيوس إلا أنت ولا أظنه إلا من أسماء الجن وأنكر الناس الدرهمين ووصل الخبر إلى الملك وقال الملك : أين صاحبهما فجىء بتمليخا إليه فقال له : إن أصبت كنزا فأعطى منه الخمس الذى هو حق الله تعالى كما أمر به عيسى بن مريم عليه السلام فقال له تمليخا: ألست بالكافر دقيوس وحق إله السماء ما أصبت كنزا وإنما الدرهمان من ثمن كرم بعته بالأمس وخرجت أنا وأصحابى هاربين بديننا إلى إله السماء وخليتك فى عيدك ياعدو الله ألست وزيرك تمليخا فقال له الملك : وكان شبيها بدقيوس : أنا مؤمن ولست بدقيوس لاتخاف بالله كان يا فتى خرجت من هذه المدينة ؟ فقال له : بالأمس فقال : هل تركت فيها دارا وأولادا فقال : نعم ولى فى الدار علامات فقال له : ما علاماتك ؟ قال : فيها مجلس من الرخام وعلى بابها سرية من الرخام الأبيض ولى تحتها كنز من الدراهم فقال له الملك : إن كان الحق ما تقول فأرنا دارك فقال له : سر أنت ومن معك

من أهل المدينة فسار تمليخا والناس خلفه كالجراد المنتشر فأنكر الطرق وتغيرت عليه وتحير ونظر نظرة إلى السماء وقال : ياغياث المستغيثين سألتك باسمك العظيم أن تبعث لى رجلا من جيرانى يجمع بينى وبين دارى فإنى لا أعرفها ولا تفضحنى على رءوس الخلائق يا من لا يخلف الميعاد فلم يزل يدعو والملائكة يؤمنون على دعائه فأمر الله جبريل أن اهبط لعبدى تمليخا فى صفة رجل من جيرانه فنزل فقال : الله أكبر هذا جارى فلان دلنى على دارى فدله عليها فقال : الله أكبر هذه دارى وحق إله السماء فحمد الله وأثنى عليه وصعد جبريل إلى السماء ودنا تمليخا من الباب فقرع الباب فأجابه شيخ كبير عليه جبة صوف قد انحنى ظهره من الكبر فقال له : السلام عليك يا شيخ ما الذى أدخلك دارى ؟ فقال له الشيخ : وحق إله السماء ما هذه الدار إلا دارى ورثتها عن أبى وأبى عن جدى فقال له تمليخا : كذبت يا شيخ الدار دارى وأنا بنيتها ولى فيها علامات فقال له : ما علامتك ؟ فقال : إن فيها مجلساً من الرخام الأحمر وفى بابه سارية من الرخام الأسود وتحت السارية لوح من الرخام الأبيض وتحته دهليز من الفضة البيضاء فلما سمع الشيخ الأمارة قال لأهله : ناولونى الكتاب الذى فى التابوت فأخرجت إليه الكتاب وفيه سطور مكتوبة بالذهب الأحمر فيه صفة أهل الكهف وقصتهم فلم يزل الشيخ ينظر فى الكتاب وينظر فى وجه تمليخا وعيناه تذرف بالدموع فلم يزل يقرأ ويبكى حتى بلغت دموعه الأرض فقال له تمليخا : ما يبكيك شيخ ؟ فقال الشيخ : أنت تمليخا ؟ فقال له : نعم . فقال له : أنت والله جدى ولكن ما فعل أصحابك المؤمنون ؟ فقال : تركتهم فى الكهف جياعا عطاشا فبادر إليه الشيخ وعانقه وقبله بين عينيه وضمه إلى صدره وهو يبكى فقال الشيخ : أيها الملك

ترجل من جوادك هذه آية بعثها الله إلينا لم نسمع مثلها فى الأولين هـذا جدى وهو تمليخا أحد الفتية الذين قبض الله أرواحهم وعلقت فى قناديل من نور تحت ساق العرش وهؤلاء الذين أنطق الله إليهم الكلب بالحق والإيمان وهؤلاء الذين هربوا بدينهم لإله السماء فى زمان دقيوس وقـد رد الله أرواحهم فى أجسادهم وبعثهم إلينا آية فلما سمع الملك ذلك ترجل عن جواده وترجل الوزراء كلهم وبادر الملك إليه وعانقه وضمه إلى صدره وقبّله بين عينيه وأقبل الناس كلهم يسلمون عليه ومَن كان على غير طهارة تطهر ومن كان على غـير وضوء توضأ فلم يزالوا يسلمون عليه ويبكون حتى سلم عليه كل من كان فى المدينة وقال له الشيخ: يا تمليخا كم لك من خروجك من هذه المدينة؟ فقال له: يوم أو بعض يوم فقال له: لك والله ثلاثمائة سنة وتسع ثم قال له الشيخ: اجمع بيننا وبين أصحابك المؤمنين فعسى أن يدعوا لنا فخرج تمليخا والملك يتبعه والناس من وراء الملك ولما وصلوا إلى باب الكهف قال تمليخا: قفوا مكانكم فإن أصحابى يظنون أن الملك دقيوس حى فيفزعون فإنى أدخل عليهم وأبشرهم بعيسى بن مريم عليه السلام وهلاك الكافر دقيوس فتطمئن قلوبهم فيخرجون إليكم فوقفوا ودخل تمليخا على أصحابه فقال: السلام عليكم.

فقالوا له: وعليك السلام يا حبيبنا أبطأت عنا وروعتنا.

فقال لهم: كم لبثتم فى كهفكم؟

قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.

قال: لبثتم والله ثلاثمائة سنة وتسعا وقد مات الكافر دقيوس وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام بعده وآمن أهل المدينة بإله السماء وهؤلاء إخوانكم

المؤمنون يريدون أن تخرجوا إليهم وتدعوا لهم أن لا يعذبهم الله بشىء من عذابه أتريدون الخروج ؟

فقالوا له : يا تمليخا أشر لنا برأيك الجميل .

فقال : أتسمعون منى إن قلت لكم شيئاً ؟

فقالوا : نعم لولا أنت ما عرفنا الله عز وجل .

فقال لهم : إنى خشيت أن تخرجوا إليهم فيقول بعضهم لبعض : هؤلاء الفتية ويشيرون إليكم بالأصابع ، وهؤلاء المؤمنون ، وهؤلاء الذين هربوا بدينهم ، وهؤلاء الذين أنطق الله لهم الكلاب ، وهؤلاء الذين قبض الله أرواحهم فعلقت فى قناديل من نور أى أنامهم ، وهؤلاء الذين أقاموا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا فإذا سمعتم ذلك كله أدرككم العجب فإذا عجبتم بأنفسكم أحبط الله أعمالكم فبأى شىء تلقون الله عز وجل الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟

فقالوا له : صدقت والله ياحبيبنا يا تمليخا فما ترى من الرأى ؟

فقال لهم : يختار الله ما لا نختار لأنفسنا .

فقالوا له : ياحبيبنا ادع الله لنا أن يميتنا سرا كما عبدناه سرا ويدخلنا الجنة سرا وهو القادر على ما يشاء فسجدوا لله تعالى يدعون الله ويبكون والملائكة يؤمّنون على دعائهم حتى قبل الله دعاءهم وقبض أرواحهم أى أنامهم بقدرته فلما طال الحال على الملك أراد الدخول عليهم فخرجت عليهم من الكهف ريح عاصف ففرقتهم .

وذكر فى عرائس القرآن أن أصحاب الكهف بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وأن قوما من أحبار اليهود قالوا لعمر : نسألك عن خصال إن أخبرتنا علمنا أن الإسلام حق وأن محمدا نبى .

فقال : سلوا .

فقالوا : ما أقفال السموات ومفاتيحها ، وقبر مشى ، ومنذر قومه ليس من الثقلين، وخمسة أحياء فى الأرض لم يكونوا فى الأرحام، وما يقول الديك والفرس والضفدع والحمار والقمبر ؟

فنكس عمر رأسه فقال: لا عيب بعمر إذ سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم .

فوثبوا فقالوا : نشهد أن الإسلام باطل ومحمدا غير نبى .

فقال سلمان : قفوا قليلا وتوجه إلى علىّ : أنت لكل معضلة أغث الإسلام .

قال : وما ذاك ؟ فأخبره فأقبل يرفل فى بردة رسول الله ﷺ فاعتنقه عمر فقال : أنت لكل معضلة وشدة .

فقال علىّ لليهود : سلوا فإن النبى ﷺ علمنى ألف باب من العلم فأخبركم بشرط أن تؤمنوا .

فقالوا : نعم فسلوه عن ذلك فقال : أقفال السموات الشرك لأن العبد لا يقبل عنه معه عمل ومفاتيحها لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، والقبر الماشى حوت يونس مشى به سبعة أبحر ، ومنذر قومه من غير الثقلين نملة سليمان قالت : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، والخمسة الذين لم يكونوا فى الرحم : آدم وحواء وناقة صالح وكبش إسماعيل وعصى موسى عليهم السلام . ويقول الدراج فى صياحه : الرحمن على العرش استوى ، والديك : اذكروا الله يا غافلين والفرس : انصر عبادك المؤمنين على الكافرين ، والحمار : لعن الله العشار ، والضفدع : سبحان ربى المعبود المسبح فى لجج البحار ، والقمبر : اللهم العن مبغض محمد وآل محمد .

وقال اثنان : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وقال الثالث : بقيت لى خصلة هى قوم ماتوا ثلاثمائة سنة وتسعا ثم أحياهم الله .

فقال على : هم أصحاب الكهف وقد أنزل الله تعالى قرآنا فيهم فإن شئت قرأتها عليك .

فقال : ما أكثر ما سمعت قرآنكم إن كنت عالما بهم فأخبرنى عن أسمائهم وأسماء آبائهم ومدينتهم وملكهم وكلبهم وجبلهم وكهفهم وأحوالهم .

فقال : حدثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان بأرض رومية مدينة يقال لها : أفسوس ويقال لها فى الإسلام : طرسوس ملكها صالح فمات وانتشر أمرهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له : دقيانوس جبار كافر فأقبل بعسكره حتى اتخذها دار مملكته وبنى فيها قصرا .

فقال : صفه لى .

فقال : فرسخ طولا وفرسخ عرضا من الرخام فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب وألف قنديل من الذهب بسلاسل فضة وسرير طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون مرصع بالجوهر وعن يمين السرير ثمانون كرسيا من الذهب يجلس عليها بطارقته وعن شماله مثلها يجلس عليها قضاته وهراقلته ويجلس على السرير ويضع التاج على رأسه .

قال اليهودى : مم كان تاجه ؟

قال : من الذهب له سبعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضىء كما يضىء المصباح فى الليلة الظلماء واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة فمنطقهم بمناطق الديباج الأحمر ولهم سراويلات من القز الأحمر وتوجهم ودملجهم وأمطاهم أعمدة الذهب

وأقامهم على رأسه واصطنع ستة غلمان من أولاد البطارقة فاتخذهم وزراء فما يقطع أمراً دونهم وأقام ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن يساره.

فقال: أخبرنى عن الثلاثة عن يمينه والثلاثة عن يساره فأخبره كما مر فى الآية. وإذا جلس فى صحن داره واجتمع الناس عنده دخل ثلاثة أغلمة فى يدى أحدهم جام من الذهب مملوء مسكا وفى يد الآخر جام من الفضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيقع فى جام الورد فيتمرغ فيه فيحمل ما فى الجام بريشه ثم يصيح به الثالث ثلاث مرات فيطير فيقع فى جام المسك فيتمرغ فيه فيحمل ما فيه فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه عليه فمكث الملك كذلك ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا مخاط فأعجب بنفسه وماله فطغى وتجبر وادعى الربوبية ودعا وجوه قومه. فمن أجابه أعطاه وخلع عليه ومن لم يتابعه قتله وأقام يُعبد من دون الله وبينما هو على سريره والتاج على رأسه جاءه بعض بطارقته فأخبره أن عساكر الفرس غشيته فاغتم حتى سقط عن السرير وسقط التاج عن رأسه فتفكّر تمليخا أن دقيوس لو كان إلهاً لما حزن ولما كان ينام ويتغوط وكان الفتية الستة يلبثون كل يوم عند أحدهم وكان يوم تمليخا فأكلوا وشربوا إلا تمليخا فقالوا: مالك؟

فقال: يا إخوتى وقع فى قلبى ما منع عن ذلك وعن النوم.

قالوا: ما هو؟

قال: تفكرت مَن رفع السماء سقفاً محفوظا بلا علّاقة ولا دعامة وأجرى شمسها وقمرها وزيّنها بالنجوم وبسط الأرض وربطها بالجبال ومن أخرجنى من البطن جنينا وغذانى وربانى فعلمت أن فاعل ذلك غير دقيوس.

فقبّلوا رجليه وقالوا: يا تمليخا قد وقع فى قلوبنا ما وقع فى قلبك فأشر علينا.

فقال : يا إخوتى ما أجد حيلة إلا الهرب إلى ملك السماء والأرض .

فقالوا : نعم . فباع تمرا من جنان بثلاثة دراهم فصرّها وركبوا خيلهم ولما صاروا إلى ثلاثة أميال من المدينة قال لهم : يا إخوتاه ذهب ملك الدنيا فامشوا على أرجلكم لعل الله يجعل لكم مخرجا فتركوا خيلهم ومشوا سبعة فراسخ فكانت أرجلهم تقطر دما لأنهم لا يعتادون ذلك فاستقبلهم راع فقالوا : ياراعى أعندك شربة من ماء ولبن ؟

فقال : عندى ما تحبون ولكنى أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم إلا هربتم فأخبرونى بقصتكم فقالوا : دخلنا فى دين لا يحل فيه الكذب فينجينا الصدق فأخبروه فقبّل أرجلهم وقال : وقع فى قلبى ما وقع فى قلوبكم فقفوا أرد الغنم لأهلها فوقفوا لعله يردها لأهلها فردها فرجع يسعى وتبعهم كلبه .

قال اليهودى : ما كان لون الكلب ؟

قال : حدثنى حبيبى رسول الله ﷺ أنه أبلق بسواد وأن اسمه قطمير .

فنظروا إلى الكلب فقال بعضهم : نخاف أن يفضحنا بنباحه فطردوه بالحجارة فأقعى وقال : ياقوم لم تطردوننى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعونى أحرسكم من عدوكم وأتقرب إلى الله بذلك فتركوه ومضوا وصعد الراعى جبلا وانحط بهم على كهف .

فقال اليهودى : ما اسم الجبل ؟

قال : سحلوس ، واسم الكهف : الكثير . وقيل : حرم وإذا بفناء الكهف أشجار مثمرة وعين ماء فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء وجنّهم الليل فأووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يده عليه وأمر ملك الموت

بقبض أرواحهم ووكل بكل واحد ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين .

وذلك المروب كان ودقيوس فى عيده ولما رجع من عيده سأل عن الفتية فقيل : اتخذوا إلها غيرك وهربوا منك فركب فى ثمانين ألف فارس يقْفون أثرهم حتى وقف عليهم فى الغار فقال لأصحابه : لو أردت أن أعذبهم ما عذبتهم بأكثر مما عذبوا به أنفسهم فائتونى بالبنائين فردم عليهم باب الكهف بالرصاص والحجارة وقال لأصحابه : قولوا لهم أن يقولوا لإلههم الذى فى السماء أن يخرجهم إن كانوا صادقين ورد الله أرواحهم على تمام ثلاثمائة وتسع وقد بقى للشمس قليل أن تغيب فقالوا : لقد غفلنا فى هذه الليلة عن عبادة الله قوموا إلى الماء فإن العين غارت والأحجار تيبست فأرادوا الطعام بالوَرِق من المدينة .

فقال تمليخا : لا يأتيكم به غيرى فأبدل ثيابه بثياب الراعى وأخذ عصى الراعى فى يده وأنكر الطرق ووجد بباب المدينة : لا إله إلا الله عيسى روح الله فطفق ينظر ويمسح عينيه ويقول: أرانى نائما ودخل المدينة ومر بأقوام يقرأون الإنجيل فاستقبله أقوام لا يعرفهم ودخل السوق فقال لخباز : ما اسم مدينتكم ؟

فقال : أفسوس .

قال : ما اسم ملككم ؟

قال : عبد الرحمن .

قال : إن صدقت فى أمرى عجب ادفع لى بهذه الدراهم طعاما فعجب الخباز منها .

قال اليهودى : يا علىّ كم وزن كل منها ؟

قال : حدثني حبيبي محمد ﷺ أن وزن كل درهم منها عشرة دراهم وثلثا درهم .

فقال الخباز : أصبت كنزا فأعطنا نصفه وإلا ذهبت بك إلى الملك .

فقال : ما أصبت كنزا إنما ذلك من ثمن تمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقد خرجت من هذه المدينة وأهلها يعبدون دقيانوس الملك .

فغضب الخباز وقال : ألا ترضى أنك أصبت كنزا ولا تعطنا بعضه حتى تذكر رجلا جبارا يدعى الربوبية قد مات منذ ثلاث مائة سنة أتسخر بي فلبيه واجتمع الناس عليه فأتى به إلى الملك وكان عاقلا عادلا فقال : ماله ؟

قال : أصاب كنزا .

فقال الملك : لا تخف فإن نبينا عيسى عليه السلام أمرنا أن لا نأخذ من الكنوز إلا خمسا فادفع إلينا خمس هذا الكنز وامض سالما

فقال : أيها الملك تثبَّت في أمري ما أصبت كنزا وأنا من أهل هذه المدينة .

قال : أنت من أهلها ؟

قال : نعم .

قال : أفتعرف فيها أحدا ؟

قال : نعم .

قال : سم فسمى له نحوا من ألف رجل فلم يعرفوا منهم رجلا واحدا .

قالوا : يا هذا ما نعرف هذه الأسماء وليست أسماء أهل زماننا هل لك في هذه المدينة دار ؟

قال : نعم أيها الملك ابعث معى فبعث معه فذهب والناس معه حتى أتى بهم إلى أرفع دار فى المدينة فقال : هـذه دارى فقرع الباب فخرج شيخ هرم استرخى حاجباه من الـكبر فزعا مرعوبا وقال : ما لـكم ؟

فقال رسول الملك : إن هذا الفتى يزعم أن هـذه الدار داره فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وقال : ما اسمك ؟

قال : اسمى تمليخا بن فسطين .

قال : أعِدْ علىّ فأعاد عليه فانـكب عَلَى رجليه ويديه يقبلهن وقال : هذا جدى ورب المسيح وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك إلى ملك السموات والأرض ولقد أخبرنا عيسى بقصتهم وأنهم سيحيون .

فانتهى إلى ذلك الملك فركب وحضر فنزل وحمل تمليخـا على عاتقه وجعل الناس يقبلون يديه ورجليه وقالوا : مافعل أصحابك ؟

فأخبر أنهم فى الـكهف وكانت المدينة قد وليها رجلان : مسلم وكافر نصرانى فركبا فى أصحابهما فلما صارا قريبا من الـكهف قال لهم : ياقوم إنى أخاف أن يحس أصحابى وقع حوافر الخيل وصلصلة اللُّجُم والسلاح فيظنوا أن دقيانوس قد غشيهم قفوا قليلا حتى أدخل عليهم فأخبرهم فوقفوا ودخل فاعتنقوه وقالوا : الحمد لله الذى نجاك من دقيانوس .

فقال : دعونى من دقيانوس كم لبثتم ؟

قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم .

قال : بل لبثتم ثلاثمائة وتسعا وقد مات دقيانوس ، وانقرض قرن بعد قرن ، وآمن أهل المدينة وقد جاءوكم .

فقالوا : تمليخا أتريد أن تصيرنا فتنة للعالمين .

قال : فما تريدون ؟

قالوا : ترفع يديك ونرفع أيدينا فرفعوا . وقالوا : اللهم بحق ما أوتينا من العجائب فى أنفسنا إلا ماقبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد فأمر الله ملك الموت بقبض أرواحهم يعنى روح اليقظة ، وطمس باب الكهف وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام لا يجدان بابا ولا منفذا ولا مسلكا فأيقنا بصنع الله الكريم ، وأن حالهم عبرة أراناالله إياها .

قال على : هذا ما كان من قصتهم يا يهودى سألتك بالله العظيم أيوافق مافى توراتكم ؟

قال : مازدت حرفا ولا نقصت حرفا يا أبا الحسن لاتسمنى يهوديا فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ، وأنك عالم هذه الأمة .

وعن عبيد بن عمير : كان أصحاب الكهف فتيانا مطوقين مسورين ذوى ذوائب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا فى عيد لهم عظيم فى زى ومركب ، وأخرجوا آلهتهم معهم . وقذف الله تعالى فى قلوبهم الإيمان وكان أحدهم وزير الملك فآمنوا وأخفى كل واحد منهم إيمانهم فجلس واحد منهم تحت شجرة فجاءه آخر ثم جاءوا واحدا بعد واحد . فقال بعضهم لبعض : ماجمعكم ؟ وقال آخرون : بل ماجمعكم ؟ ثم قالوا : ليخرج كل فتيين فيخلوا ثم يفشى كل منكما إلى صاحبه أمره فترافقا . ثم تكاما فذكر كل منهما أمره لصاحبه فأقبلا مستبشرين إلى صاحبهما فقالا : قد اتفقنا على أمر واحد ، إذا هم جميعا على الإيمان وإذا الكهف من الجبل قريب فقال بعضهم : « فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا » الآية . فدخلوه بكلبهم فناموا ثلاث مائة سنة وتسعا ففقدهم قومهم فطلبوهم فأعمى الله عليهم آثارهم وكهفهم فلم يقدروا فكتبوا

أسماءهم وأنسابهم فى لوح وأنهم فقدموا شهر كذا سنة كذا فى مملكة فلان ووضعوا اللوح فى خزانة الملك وقالوا : قد يكون لهم شأن .

وعن جعفر الباقر كان : أصحاب الكهف صيارفة .

وعن وهب بن منبه : جاء حوارى من أصحاب عيسى عليه السلام إلى مدينة أصحاب الكهف فأراد أن يدخلها فقيل له : إن على بابها صنما لا يدخلها أحد إلا سجد له فكره أن يدخلها وأتى حماما قريبا منها فكان يعمل لصاحبه بالأجرة فرأى صاحبه البركة فأخبره بأمر الله وتبعه فتية من أهل المدينة فجعل يخبرهم خبر السماء والأرض وخبر الآخرة حتى آمنوا به وصدقوه وكانوا على هيئته واشترط على صاحب الحمام أنه لا يعمل فى الليل بل يصلى وأتى ابن الملك بامرأة فدخل الحمام فعيره الحوارى وقال : أنت ابن الملك وتدخل الحمام بهذه المرأة فاستحى فذهب ورجع مرة أخرى وقال له مثل ذلك فسبه ونهره ولم يلتفت إليه حتى دخلا معا فماتا فقالوا : إن صاحب الحمام قتل ابنك فالتمسه فلم يقدر عليه فسأل عمن يصحبه فدخل له الفتية فالتمسهم وخرجوا من المدينة فمروا بصاحب لهم فى زرع وهو على إيمانهم فذكروا لهم أنهم التمسوا فانطلق معهم كلب حتى آواهم الليل إلى الكهف فدخلوه فقالوا : نبيت فيه الليلة فضرب الله تعالى على آذانهم فخرج الملك وأصحابه يتبعونهم حتى وصلوا إلى الكهف فكل من أراد الدخول رعب فلم يطق فقال قائل : ألست لو قدرت عليهم قتلتهم ؟

قال : بلا .

قال : فابن عليهم الكهف واتركهم فيه فيموتوا عطشا وجوعا ففعل ذلك ثم إن راعيا أدركه المطر عند الكهف فقال : لو فتحته وأدخلت غنمى فيه من المطر فعالجه حتى فتحه ورد الله سبحانه وتعالى أرواحهم من الغداة حين أصبحوا .

وذكر ابن إسحاق أنه لما عظمت خطايا أهل الإنجيل طغت الملوك وعبدوا الأصنام وذبحوا لها وفيهم بقايا على دين المسيح متمسكين بعبادة الله وتوحيده تعالى وكان من ملوك الروم ملك يسمى دقيانوس عبد الأصنام وذبح لها وقتل من خالفه وينزل فى قرى الروم فلا يترك فى قرية نزلها أحداً إلا فتنه فى دينه حتى يعبد الأصنام أو يقتله .

ونزل أفسوس واستخفى منه أهل الإيمان وهربوا فى كل جهة فاتخذ شُرَطاً من الكفار يتبعونهم فيحضرونهم إلى دقيانوس يخيرهم بين الشرك والقتل فمنهم من يتبعه على عبادة الأصنام ومنهم من يقتل ويقطع ويجعل قطعه على سور المدينة وأبوابها فقام ثمانية نفر واشتغلوا بالصوم والصلاة والصدقة والتسبيح والدعاء وكانوا من أشراف الروم وبكوا وتضرعوا إلى الله عز وجل وجعلوا يقولون : ربنا رب السموات والأرض لن ندعوَا من دونه إلٰها قد قلنا إذا شططا اكشف عن عبادك المؤمنين هذه الفتنة .

فدخل عليهم الشُرَط سجداً باكين متضرعين إلى الله عز وجل فقالوا : ما خلفكم عن أمر الملك ؟ فأخبروا الملك فبعث إليهم فأوتى بهم تفيض أعينهم معفرة وجوههم فخيرهم أن يذبحوا للأصنام أو يقتلوا فقال مكسلمينا وهو أكبرهم سنا : إن لنا إلٰهاً ملأ السموات والأرض عظمة لن ندعو من دونه إلٰهاً أبداً له التحميد والتكبير من أنفسنا خالصة أبداً إياه نعبد وإياه نسأل النجاة والخير فاصنع ما بدا لك وقال أصحابه كذلك .

فأمر بنزع ثيابهم وحليهم من ذهب وفضة وقال : سأفرغ لكم وأنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة وما يمنعنى أن أعجل ذلك إلا أنى أراكم شباناً فمهلت لكم لعلكم تذكرون وترجعون إلى عقولكم فأخرجهم من عنده وانطلق

دقيانوس إلى مدينة قريبة لأمر فتشاوروا واتفقوا أن يأخذوا من بيوت آبائهم ويتصدقوا ويتزودوا ويبادروا الخروج فانطلقوا إلى كهف قريب من المدينة فى جبل يقال له بنجلوس يعبدون الله فيه حتى إذا رجع دقيانوس أتوه ليفعل ما بدا له ففعلوا وتبعهم كلب كان لهم. وقال كعب: مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مراراً فقال لهم الكلب: ما تريدون منى لا تخشوا منى أنا أحب أحباب الله عز وجل فناموا أحرسكم.

والذى عن ابن عباس: أنهم هربوا من دقيانوس وتبعهم كلب الراعى كما مر وأنهم سبعة. قال ابن إسحاق: فلبثوا فيه مشتغلين بالصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى فجعلوا تمليخا يبتاع لهم من المدينة أرزاقهم سرًّا وكان أجملهم وأجلدهم إذا رأوا دخول المدينة لبس ثيابا رثة كثياب المساكين فيشترى طعاما وشرابا ويتحسس لهم الأخبار ثم رجع دقيانوس المدينة وأمر عظماء أهلها أن يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك أهل الإيمان وتمليخا فى المدينة يشترى الطعام فرجع بطعام قليل يبكى وقال لهم: إن الجبار قد دخل المدينة وأنهم قد ذكروا ففزعوا وقاموا يدعون الله ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة.

فقال لهم تمليخا: يا إخوتاه ارفعوا رءوسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رءوسهم وأعينهم تفيض وذلك عند الغروب ثم جلسوا يتحدثون ويذكر بعضهم بعضاً فضرب الله على آذانهم فى الكهف وعلى أذنى كلبهم فى الوصيد ونفقتهم عند رءوسهم.

ففقدهم دقيانوس من الغد فلم يجدهم فقال لبعض عظماء المدينة: لقد ساءنى شأن هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد ظنوا أنّ بى غضباً عليهم لجهلهم أمرى ما كنت لأجهل عليهم إن هم تابوا وعبدوا آلهتى.

فقال عظماء المدينة : ما كنت بحقيق أن ترحم قوماً فجرة مردة عصاة قد أجلت لهم أجلا ولو شاءوا لرجعوا لكن لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضباً شديداً ثم أرسل إلى آبائهم فأتى بهم فقال : أخبرونى عن أبنائكم المردة الذين عصونى .

فقالوا: أما نحن فلم نعصك فلِمَ تقتلنا بقوم مردة إنهم ذهبوا بأموالنا فأهلكوها فى أسواق المدينة ثم انطلقوا إلى جبل يدعى بنجلوس فخلى سبيلهم فتحيَّر . ثم أمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعا وعطشا ويكون الكهف الذى اختاروه قبراً لهم يظنهم أيقاظا يعلمون ما يصنع بهم ثم إن مؤمنين فى بيت الملك يكتمان إيمانهما : بيدروس ودوناس كتبا أسماءهم وأنسابهم وأخبارهم فى لوحين من رصاص وجعلاه فى تابوت من نحاس وجعلا التابوت فى البنيان لعل الله يفتح عليهم قبل يوم القيامة فيعلم الناس خبرهم .

وتعاقبت ملوك وملك رجل صالح يقال له : تندرليس ثمانيا وستين سنة فتحزب الناس فى ملكه فكانوا أحزابا مكذبا بالبعث ومصدقا به فكبُر ذلك عليه وتضرع إلى الله لما رأى أهل الباطل يظهرون على أهل الحق ويقولون : إنما تبعث الأرواح فأرسل إلى من يظن بهم خيراً وأنهم أئمة الخلق فكذبوا فأدخل بيته وأغلق بابه ولبس مِسحا وجعل تحته رماداً فجلس عليه فدأب ليله ونهاره يتضرع إلى الله تعالى ويبكى ويقول : ربى قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبيِّن لهم .

ثم إن الله الرحمن الرحيم أراد إظهار الآية لعباده فألقى فى نفسه الرأس أن يهدم البنيان الذى على فم الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه واستأجر غلامين فنزعا الحجارة وبنيا الحظيرة وفتحا باب الكهف وأحيا الله الفتية فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههم طيبة أنفسهم مسلما بعضهم على بعض كأنهم استيقظوا من ساعتهم

التي يستيقظون بها إذا أصبحوا من ليلتهم ثم قاموا إلى الصلاة فصلوا كعادتهم ولا يرى في وجوههم ولا ألوانهم شيء ينكرونه ويرون أن دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم : ما قال الناس فينا أمس عند الجبار ؟

فقال : قد التمستم لتذبحوا للطواغيت

فقال لهم مكسلمينا : يا إخوتاه إعلموا أنكم ملاقو الله فلا تكفروا بعد إيمانكم إذا دعاكم عدو الله ثم قالوا لتمليخا : انطلق إلى المدينة لتسمع ما يقال لنا بها وابتع لنا طعاما أكثر من طعام أمس فقد أصبحنا جياعا .

فانطلق تمليخا بورقهم لابسا ثياب الراعي فمر بباب الكهف : ووجد بناء على باب الكهف منهدما فعجب ثم مر ولم يبال حتى وصل إلى باب المدينة مستخفيا عن أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيظن أن دقيانوس حي ورأى على الباب لا إله إلا الله عيسى روح الله وجعل ينظر إليه مستخفيا يمينا وشمالا ومضى إلى باب آخر فرأى مثل ذلك تخيل إليه أن المدينة ليست أفسوس ولا يرى إلا من لا يعرف ويخيل إليه أنه حيران .

ثم رجع إلى الباب الذي أتى منه فجعل يتعجب بينه وبين نفسه ويقول : ياليت شعري ما هذا عشية أمس كان المسلمين يخفون هذه العلامة لعلي نائم فجعل كساءه على رأسه ومشى في أسواقها وسمع الناس يحلفون بعيسى بن مريم فزاد تحيرا كيف يظهر ذكر عيسى وكان بالأمس يخفى فقال : لعلها ليست أفسوس فلقي فتى فقال له : ما اسم هذه المدينة ؟

فقال : أفسوس .

فقال : لعل بي جنونا والله يحق لي أن أسرع الخروج قبل أن يصيبني فيها شر فدنا إلى الذين يبيعون الطعام فقال لواحد : بع لي طعاما بهذه الورق فأخذها

فعجب منها فناولها الآخر فجعلوا يتطارحونها من رجل لآخر متعجبين وقال بعضهم لبعض : أصاب كنزاً قديماً فرعد خوفاً وظن أنهم قد فطنوا به وأنهم يريدون أن يذهبوا به إلى الملك دقيانوس واجتمعوا يتعارفونه فقال: انفصلوا عنى أمسكتم ورِق لا حاجة لى بطعامكم .

فقالوا : مَن أنت لقد وجدت كنزاً للأولين شاركنا فيه وإلا سلمناك للسلطان يقتلك .

فقال : والله لقد وقعت فى كل شىء كنت أحذر منه .

فقالوا له : والله لا تستطيع أن تكتم ما وجدت ولا يدرى ما يقول فطرحوا كساءه فى عنقه وسحبوه فى سكك المدينة حتى سمع به مَن فيها وكل من رآه قال: لا أعرفه فى المدينة وهو معتقد أن أباه وإخوته فى المدينة يسبقونه إذا سمعوا به وكانوا من عظماء المدينة .

فبينما هو قائم كالحيران منتظر لهم جروه لملكي المدينة رجلين صالحين : أريوس وأطيوس وظن أنه مجرور إلى دقيانوس فكان يلتفت يميناً وشمالا ويبكي ويسخرون منه كالمجنون . ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إله السماء وإله الأرض أفرغ علىّ اليوم صبراً وأولج معى روحاً منك تؤيدنى بها عند هذا الجبار وإنا كنا قد تواثقنا على الإيمان بالله ولا نشرك به شيئاً ولا نفترق فى حياة ولا موت فلما انتهى إليهما ولا يرى دقيانوس سكن وأخذا الورِق وعجبا منها فقالا: أين الكنز الذى وجدت يا فتى ؟

فقال : ما وجدت كنزا ولكنه ورِق أبى ونقش هذه المدينة ولكن والله ما أدرى ما شأنى .

فقال له أحدهما : مَن أنت ؟

فقال : أنا ، أنا .

فقال أحدهما : أنت كذاب لا تخبرنا بالحق فنكس رأسه للأرض .

فقال بعض من حوله : هذا رجل مجنون .

وقال بعض : يحمق نفسه عمداً لينقلب منكم فنظر إليه أحدهما نظراً شديداً : أتظن أنّا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك ونقش هذه المدينة وضربها وله أكثر من ثلاث مائة سنة وأنت غلام شاب أتظن أنك تأفكنا وتسخر منا ونحن شيوخ شُمْط وحولك سراة المدينة وولاتها وخزائنها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار نوثقك حتى تعترف .

فقال لهم : أخبروني عما أسألكم عنه فإن فعلتم صدقتكم ما عندى .

فقالوا : اسأل لا نكتمك شيئاً .

فقال : ما فعل بالملك دقيانوس ؟

فقالوا : لا نعرف على الأرض دقيانوس هو ملك هلك فى الزمان الأول وله زمان طويل فهلك بعده قرون .

فقال : إنى لحيران وما يصدقنى أحد من الناس لقد كنا فتية أكرهنا الملك على عبادة الأصنام والذبح لها فهربنا عشية أمس فأتينا الكهف الذى فى جبل بنجلوس فبتنا فيه فلما انتبهنا خرجت لأشترى طعاما لأصحابى وأتحسس الأخبار ، فانطلقوا إلى الكهف هناك أصحابى .

فلما سمع أريوس قال : لعل هذه آية من آيات الله لكم على يد هذا الفتى فانطلقوا بنا معه حتى يرينا أصحابه فانطلق أريوس وأطيوس وأهل المدينة صغيرا وكبيرا إلى الكهف ؛ فظن أصحابه أنه ذهبوا به إلى دقيانوس لبطئه عنهم عن

العادة فهم يتوقعون فسمعوا أصوات الحوافر والصلصلة على الخيل فظنوا أن ذلك رسل دقيانوس فقامـــوا إلى الصلاة وسلم بعضهم على بعض وتواصوا وقالوا : انطلقوا إلى تمليخا فإنه الآن بين يدى دقيانوس ينتظرنا فإذا أريوس وأصحابه بباب الكهف فدخل تمليخا يبكى فبكوا فسألوه فقص عليهم الخبر فعرفوا أنهم كانوا نياما ذلك الزمان الطويل أيقظهم الله ليكونوا الآية على قيام الساعة والبعث فدخل أريوس فرأى تابوت نحاس مختوماً بخاتم فضة ودعا جماعة من عظماء المدينة وأمر بفتحه فوجد لوحين من رصاص مكتوباً فيهما : مكسلمينا ومحسلمينا وتمليخا وأرطوس وكطونس وبيرونس ودبيونس ومطيونس .

وروى أن أسماءهم : أمليخا ومشليتا وموبرا وأبوس وفواس ومرطيوش وفطلطايش كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس بدينهم إلى هذا الكهف فسده عليهم وكتبنا شأنهم ليعلمه من يقف عليـــه فعجبوا وحمدوا الله أن أراهم آية تدل عن البعث ورفعوا صوتهم بالتسبيح والتحميد فدخلوا الكهف فوجدوهم جلوساً مشرقة وجوههم لم تبل ثيابهم فخروا سجدا وأخبرهم الفتية عما لقوا من الملك دقيانوس .

فبعث أريوس وأصحابه إلى الملك تندروليس : أن أعْجِلْ لترى آية من آيات الله تدل على صدق البعث ، فتية ماتوا منذ ثلاث مائة وأكثر بعثهم الله سبحانه فذهب همه وقال : أحمدك اللهم رب السموات و لأرض وأعبدك وأسبح لك تطولت علىّ ورحمتنى ولم تطفىء النور الذى جعلت لآبائى فركب وركب معه مَن فى المدينة حتى أتوا مدينة أفسوس فسار معه أهلهـا نحو الكهف فلما رأى تندروليس ومَن معه عانقهم وبكى وهم جلوس يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم

قال الفقية لتندروليس : نستودعك الله والسلام عليك ورحمة الله وبركاته حفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الجن والإنس .

فبينما الملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا فقام فجعل ثيابهم عليهم وجعل كلا منهم فى تابوت ذهب فلما أمسى ونام أتوه فى منامه فقالوا : إنا لم نخلق من ذهب ولا من فضة بل من تراب وإليه نصير فاتركنا على الأرض كما كنا .

فصل . وقيل : جعلهم بعد هذا فى تابوت من ساج وحجبهم الله بالرعب بعد ذلك فلا يقدر أحد أن يدخل عليهم وأمر أن يُتخذ على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما يؤتى فى كل سنة .

وقيل : لما حملوا تمليخا إلى الملك قال له : مَن أنت ؟

قال : رجل من هذه المدينة خرجنا منهـا منذ أيام وذكر منزله وأناساً لايعرفهم وقد سمع الملك بفتية ذهبوا فى الزمان الأول وأسماؤهم مكتوبة فى لوح فى خزانته فدعا به فنظر فقال : ما اسمك ؟

قال : تمليخا فوجده مكتوباً فذكر له أسماء الباقين فقال : هم أصحابى فركب ومَن معه إلى الكهف فقال : دعنى حتى أدخل على أصحابى وأبشرهم فلا يخافوا فدخل فبشرهم فأنامه الله وأنامهم وأعمى أثرهم عن الملك وأصحابه فلم يهتدوا إليهم والله أعلم .

وقال جماعة من قومنا : إن النبى ﷺ سأل ربه أن يريه أصحاب الكهف فقال الله تعالى : إنك لن تراهم فى الدنيـا ولكن ابعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان بك فقال رسول الله ﷺ : كيف أبعث إليهم ؟

فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الثانى عمر

وعلى الثالث عليا وعلى الرابع أباذر ثم ادع الرخاء المسخرة لسليمان بن داود عليهما السلام فإن الله تعالى أمرها أن تطيعك ففعل النبى ﷺ ما أمر به فحملتهم الريح حتى انطلقت بهم إلى باب الكهف فلما دنوا من الباب قلعوا منه حجرا فقام الكلب فنبح عليهم حين أبصر الضوء وهش وحمل عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذنبه وأومأ برأسه ادخلوا الكهف فدخلوا وقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد الله عليهم أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا: وعليكم السلام وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض وعليكم بما بلغتم وجلسوا يتحدثون وآمنوا بمحمد ﷺ وقبلوا دينه وقالوا: أقرئوا محمداً منا السلام وحمدوا الله على مثه محمدا ﷺ وتوجيه محمد رسله إليهم ثم جلس كل منهم على مكانه فى النوب وحملتهم الريح. فهبط جبريل فأخبره بما قالوا كله. فلما أوصلتهم الريح إليه ﷺ أخبروا بما قال أصحاب الكهف وما قالوا لهم كله على وفق جبريل بعد سؤاله ﷺ إياهم عن ذلك.

ولما قضى الكلام بينهم وبين أصحاب الكهف اضطجعوا فقبض الله أرواحهم وذكروا ذلك له ﷺ وكذا جبريل وسيحييهم الله للمهدى فيسلم عليهم فيجيبونه ويرجعون موتى. وقيل: يحيون فى زمان المهدى وعيسى ويخرجون أربعين سنة ويحجون معه لأنهم لم يحجوا. ولما اشتمل القرآن على ذكر مغيبات تكون لرسول الله ﷺ معجزات وكانوا يقولون: ائت بقرآن غير هذا أو بدله أمره الله عز وجل بقوله: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ) أى اقرأ القرآن ودم على قراءته فإنه معجز لا يطاق ولا تستمع اقوالهم: ائت بقرآن غير هذا أو بدله.

(لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) لا قادر على تبديلها إلا الله تعالى فإنه إن شاء نسخ آية ببدل أو بلا بدل . وقيل : معنى لا مبدل لكلماته لا مبدل لوعيده للكفار أى مبدل له بخير أو بدون شيء .

(وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) موضع ميل أى موضعا تلتجىء إليه عن الله إن هممت بالالتجاء والميل إلى غيره وعن حكمه ولا مانع لك من عقابه والماء لله أو لن تجد من دون القرآن حرزا عن عذاب الله وكيد أعدائك من الإنس والجن والخطاب للنبى ﷺ والمراد غيره أو لكل من يصلح للخطاب .
(وَاصْبِرْ) احبس . (نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ) يعبدون (رَبَّهُم) وهم: صهيب وعمار وخبّاب بن الأرتّ وسلمان الفارسى وسالم مولى أبى حذيفة وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين وكانت ثيابهم متمزقة مرقعة .

دخل عيينة بن حصن الفزارى على رسول الله ﷺ . قيل : وعنده هؤلاء المؤمنون المذكورون وعلى سلمان شملة صوف قد عرق فيها وبيده خوص يشقه وينسجه . فقال عيينة : أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا أسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحّهم حتى نتبعك واجعل لنا مجلساً فنزل : « واصبر نفسك » إلى آخره .

وروى أن قوما من رؤساء الكفرة قالوا لرسول الله ﷺ : نحّ هؤلاء الموالى الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك فنزل : « واصبر نفسك » إلى آخره . وذلك كقول قوم نوح : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » .

وعن أبى صالح : قال سلمان الفارسى : إنها نزلت فى . دخلت على رسول الله ﷺ وهو جالس على بساط فجلست إلى جنبه وعلىّ شملة قد عرقت فيها وذلك فى يوم حار فدخل عيينة بن حصن على رسول الله ﷺ فجلس بينى وبينه وفى يدى

خوص أصبغه فجعل يدفعنى بمرفقه حتى أبعدنى عن البساط فقال : يا محمد إنّا رؤساء مضر وإن نُسْلِم يُسْلِم الناس والله ما يمنعنا من اتباعك والدخول عليك إلا هـذا وضرباؤه فلو أنك أخرجتهم عنك اتبعناك فإذا دخلنا عليك فأخرج هذا وضُرباءه فوالله إنه ليؤذينى الآن بيّن ريحه أو ما يؤذيك ريحه فإذا خرجنا من عندك فائذن لهم فإن لنا عليك حقا ونحن وجوه مضر وسادات قومنا ثم أنا صاحب مرباعها ورأسها فى الجاهلية إلى يومنا هذا وقد كان من قَدَّمِنا وقدم آبائنا ما بلغك فإنا نكره أن نكون نحن وهذا عندك سواء بمنزلة فنزل : « واصبر نفسك » إلى آخره .

وقيل : نزلت فى أصحاب الصُّفَّة وهم سبعمائة رجل فقراء فى مسجد رسول الله ﷺ لا يرجعون إلى تجر ولا زرع ولا ضرع يصلون صلاة وينتظرون أخرى ولما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر معهم .

(بالغَدَاةِ) أى فى الصبح .وقرأ ابن عامر بالغدوة . قيل : غدوة فى الأكثر علَم فتكون أل فيه على تأويل التنكير .

(وَالْعَشِىِّ) الواحد عشية والعشية كالكلم والكلمة .

قيل : المراد بدعائهم فى هذين الوقتين صلاة الفجر وصلاة العصر . وقيل : المراد العبادة مطلقا الصلاة وغيرها فى لوقتين وغيرهما فعبَّر عن سائر الأوقات بذكر الوقتين المتطرفين للنهار والليل .

(يُرِيدُونَ) بعبادتهم . (وَجْهَهُ) أى ذاته هو ويقدر مضاف أى يريدون رضى ذاته وكأنه قيل: يريدون رضاه وإذا رضى عنهم لم يعذبهم وأثابهم

ولا يريدون بعبادتهم فيها الله من عرض الدنيا أو رياء أو سمعة . والجملة حال من واو يدعون .

(وَلَا تَعْدُ) لا تنصرف وتتجاوز (عَيْنَاكَ) فاعل تعد وذلك من صيغة نهى الغائب كقولك فى نهى عمرو عن القيام : لا يقم عمرو كأنك قلت : لا تقم يا عمرو. ظاهر الكلام نهى العينين والمراد نهى رسول الله ﷺ عن أن يحتقر فقراء المسلمين ويعرض عنهم لضعف ثيابهم وتمزقها وترقيعها ووسخ أبدانهم إلى نظافة الثوب والبدن ، كأنه قال: لا تعد يا محمد بعينيك . (عَنْهم) وعدا متعد بنفسه وتعدى هنا بعن لتضمنه معنى تنصرف أو تنبو أى لا تنبُ عيناك عنهم أى لا تكونا غير متعلقتين بهم .

وقرئ : ولا تعد بضم التاء وإسكان العين وكسر الدال مضارع أعدى بالهمزة . وقرئ بضم التاء وفتح العين وكسر الدال مشددة ، وعينيك بياء التثنية على القراءتين بالنصب على المفعولية وفى الفعل تعد ضمير المخاطب والهمزة والتشديد فى القراءتين عندى للتعدية كأنه قيل : لا تجعل عينيك نابيتين عنهم أى غير متعلقتين بهم أو لا تجعلهما منصرفتين . وزعم أنهما لموافقة الثلاثى المجرد وإلا لتعديا إلى مفعولين وهو معتبر لأصل عدا فإنه متعد لمفعول بمعنى جاوز فيتعدى الاثنان بالهمز أو التشديد وأنه معتبر لمعنى الفعل اللازم الذى تضمنه عدا فلما ضعف وأدخلت عليه الهمزة تعدى لواحد . واعلم أن لفظة (عن) أشد فى إظهار المجاوزة من تركها فاختير لا تعد عيناك عنهم عن لا تعدهم عيناك .

(تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) من حسن الثياب والأبدان ونظافتهما ومجالسة الأغنياء والأشراف والجملة حال من الكاف فى عيناك فى القراءة الأولى ولا ضمير

عليها فى تعد وحال من الضمير المستتر فى تعد العائد إلى المخاطب فى القراءتين الأخيرتين بنصب «عينيك» فإن فى تعد عليهما ضمير .

(وَلَا تُطِعْ) فى طرد الفقراء المؤمنين عن مجلسك . (مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) كعيينة بن حصن وأمية بن خلف والهمزة فى أغفلنا للتعدية أى صيرنا قلبه غافلا عن ذكرنا فكان يدعوك إلى طرد الفقراء الذاكرين الله عن مجلسك ليجالسك هو وأضرابه وليس هذا التصيير جبراً بل خذلانا وتخلية فاختاروا عدم الذكر وغفلوا واختيارهم وغفلتهم مخلوقان لله تعالى . ويجوز أن تكون الهمزة لوجود الشىء على حال أى من وجد قلبه غافلا عن ذكرنا كقولك أجبنته وأخجلته إذا وجدته جبانا وخجلا أو للنسبة أى من نسبنا قلبه إلى الغفلة عن الذكر كقولك : أكفرت عمراً أى نسبته إلى الكفر وذلك من أغفلت الإبل إذا تركتها بلا علامة أى لم نعلمه بالتشديد بالذكر كما علمنا قلوب المؤمنين وليس ذكر هذه الأوجه خروجا عن الوجه الأول الذى هو عدم الجبر بل تصرف فى محتملات الآية مع إثبات الاختيار ونفى الجبر ويدل لنفيه قوله : (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) فهذه طريقة وسطى حاصلها أنه لا جبر وأنه لا خالق إلا الله .

وقرئ «وأغفلَنا قلبُه» بفتح لام أغفلنا ورفع قلب على الفاعلية أى حَسِبَنا بفتح الباء قلبُه غافلين عن ذكرنا إياه بالمؤاخذة على معاصيه وإضافة المصدر على هذه القراءة فى ذكرنا من إضافة المصدر لفاعله .

(وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) متقدما على الحق ومصادرا عنه فيجعل الحق وراء ظهره ومنه الفَرَط لمن يتقدم القوم ويهيئ لهم الماء وفرس فرط أى يتقدم الخيل . وقيل : المعنى كان أمره تضييعا وتفريطا كقوله : ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله . وقيل : إسرافا والآية دلت على أن الداعى فى طلب عيينة وأمية ونحوهما طرد

الفقراء المؤمنين عن المجلس هو غفلة قلوبهم عن ذكر الله سبحانه واتباع أهوائهم وتقدمهم عن الحق وانهما كهم فى الزينـات المحسوسات كنظافة بدن وثوب ولم يعلموا أن الزينة إنما هى الزينة المعقولة . وهى امتثال الأمر واجتناب النهى الفائز بها هؤلاء الفقراء المؤمنون .

(وَقُلِ الْحَقُّ) مبتدأ (مِنْ رَبِّكُمْ) خبر أى الحق ثابت من الله أو الخبر كون خاص أى آت من ربكم لا ثابت ولا آت من جهة أهوائكم فالحق هو ماجاء عن ربكم لا غير ويجوز كون الحق فاعلا لمحذوف أى جاء الحق من ربكم فيتعلق الجار بجاء المحذوف أو كون الحق خبراً لمحذوف أى القرآن الحق أو ما أوحى إليك هو الحق أو هذا هو الحق فتعلق بمحذوف حال من الخبر .

(فَمَنْ شَاءَ) الإيمان . (فَلْيُؤْمِنْ) ولا يشترط طرد المؤمنين بل يحسن له أن يوافقهم ويعينهم لأمر الدين والدنيا .

(وَمَنْ شَاءَ) الكفر لشرط طرد المؤمنين . (فَلْيَكْفُرْ) فإنى لا أطردهم لا أبالى بإيمان مؤمن ولا كفر كافر فإن النفع أو الضر عائد إلى صاحبه فالآية تتضمن التهديد وزيادة ولا نسخ فى ذلك .

وزعموا عن قتادة والسدى أنه منسوخ بقوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ولا دليل فى الآية على استقلال العبد بفعله لأنه ولو علق الإيمان والكفر على مشيئة العبد لكن فعله خلق من الله بل مشيئته أيضا خلق من الله والاكتساب من المخلوق .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا) تحقيق هذا الفعل أن همزته للتعدية وفاؤه هو الحرف بعد الهمزة وعينه هو التاء فهو أصل وثلاثيه عتد أى حضر فيقال : أعتدته بمعنى

أحضرته وهيّأته فالمعنى إنا أحضرنا وهيأنا . (لِلظَّالِمِينَ) المشركين والمنافقين (نَارًا) أخروية .

(أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) فسطاطها شبه ما يحيط بهم من النار وكان عليهم كالجدار بالفسطاط المضروب كبيوت الشعر وغيره فسماه باسم الفسطاط بجامع إحاطة كل بما فى داخله وذلك مقتضى قول ابن عباس . أو شبّه ما يحيط بهم من حيطان جهنم من حديد أو حجر أو مما شاء الله وعمد ممددة بالفسطاط فسماه باسمه وذلك بعد قوله : « اخسئوا فيها ولا تكلمون » .

وقيل : السرادق : الحجرة التى تكون حول الفسطاط . وقيل : دخانها وذلك أيضا على التشبيه . روى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : سرادق النار أربعة جدر كثف كل جدار أربعون سنة أخرجه الترمذى وذلك كله بعد الحشر ودخول النار والتحقق وقوع ذلك بعد لا محالة صيره بمنزلة الواقع فقال : أحاط ولم يقل يحيط أو هو مستعمل بمعنى يحيط .

وقيل : المراد بالسرادق دخان يحيط بهم فى الموقف وقيل : عنق من النار يخرج ويحيط بهم فى الموقف فيجرهم إليهم وذلك أيضا مستقبل بمنزلة الواقع عافانا الله بمنه وكرمه .

(وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا) يطلبوا الغوث بماء لشدة العطش . (يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ) أى كدُرْدِىّ الزيت فى الغلظ قاله ابن عباس رضى الله عنهما . (يَشْوِى الْوُجُوهَ) إذا قرب إليها لشدة الحرارة أى يحرق الوجوه قال رسول الله ﷺ : المهل : عكر الزيت أى دُرْديه . فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه أى جلدة وجهه أخرجه الترمذى عن أبى سعيد .

وقيل : المهل : المذاب من نحو رصاص ونحاس وفضة . أتى ابن مسعود

بفضة وذهب كثيرين فأمر فأذيبا حتى أزبدا وماعا أى صار مائعين كما قال لغلامه : ادع من بحضرتنا من أهل الكوفة فدعا رهطا فقال لهم : أترون هذا ؟ قالوا : نعم قال : ما رأينا فى الدنيا شبهاً للمهل أدنى من هذا الذهب وهذه الفضة إذا أذيبا حتى أزبدا وماعا . وقال مجاهد : المهل : القيح والدم وإن قلت : كيف قال : يغاثوا ولا نفع لهم فى ماء كالمهل يشوى الوجوه قلت ذلك تهكم كقوله :

نَقْرِيهِمُو لَهْذَمِيَّاتٍ نَقُدُّ بِهَا   ما كان خاط عليهم كلُّ زَرَّادِ

فإن القرى وهو الضيافة لا يكون باللهذميات وهو الأسنّة القاطعة وقوله تعالى : « فبشرهم بعذاب أليم » على أحد الأوجه فيه وقول بشر بن أبى خازم الأسدى :

غضبت تميمٌ أن يقتل عامر   يوم النسار فأعتبت بالصيلم

أى أزيل عتابهم وأرضوا بالسيف أو الداهية والأمر العظيم نزّل الداهية أو السيف بالعتاب الجارى بين الأحبة وجملة : يشوى الوجوه نعت ثان لماء والأول هو قوله كالمهل أو حال من ضمير الماء المستتر فى قوله كالمهل أو من المهل .

(بِئْسَ الشَّرَابُ) المخصوص بالذم محذوف أى ذلك الماء أو هو (وَسَاءَتْ) أى النار . (مُرْتَفَقًا) أى موضع ارتفاق أى نزول فكأنه قيل : ساءت منزلا كما قال ابن عباس وقيل : موضع اجتماع وقيل : المرتفق ما يتكئون عليه أى ساء موضع الاتكاء فيها .

وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد والمرفق ما يتكأ عليه وذلك تهكم بهم لأنه لا ارتفاق لأهل النار أو استعارة لمواضعهم فى النار وهو اسم مكان ويجوز أن يكون مصدراً ميميا أو نزولا أو اجتماعا أو اتكاء ويجوز كونه مصدراً ميمياً بمعنى الأصحاب ونصبه على الأوجه كلها نصب تمييز الذى هو فاعل فى المعنى وهذه

الأوجه كلها ممكنة فى قوله حسنت مرتفقا وعبر هنا بمرتفقا مشاكلة لقوله بعد : « وحسنت مرتفقا » إذا فسرناهما بالمتكأ .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) بل نثنيه على عمله وجملة إن الثانية واسمها وخبرها خبر للأولى والرابط بين اسم الأولى وخبرها محذوف تقديره إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم ومن هذه التى قدرتها هى من التبعيضية لأنه قد يؤمن الإنسان ويعمل صالحا ولا يحسن ويجوز أن يكون الرابط العموم على أن المراد بعمل الصالحات عملهن بالإحسان والمراد بعامليها عاملوها من هذه الأمة وبمن أحسن عملا كل من أحسنه منها أو من غيرها فهو أعم .

ويجوز أن يكون الرابط من فيكون من وضع الظاهر موضع المضمر ويكون من أحسن عملا والذين آمنوا وعملوا الصالحات شيئاً واحداً كأنه قيل : إنا لا نضيع أجره وما ذكرته من أن مَن ظاهر هو الذى أعتقده من أن الأسماء الموصولات وأسماء الإشارة أسماء ظاهرة وقال ابن بابشاذ : لا ظاهرة ولا مضمرة بل قسم آخر وأحسن فعل ماض وعملا مفعول به وإحسانه هو إخلاصه عما يفسده أو ينقصه .

(أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ) أى إقامة وخلود والجملة خبر ثان لإن الأولى أو مستأنفة لبيان الأجر ويجوز أن تكون هى الخبر فتكون جملة : إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا معترضة بين اسم إن وخبرها .

(تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ) أى فى مواضع تقرب من تحتهم بجانبهم أو تجرى من تحتهم على الحقيقة . (الْأَنْهَارُ) لأن أفضل المنازل ما يجرى فيه الماء .

(يُحَلَّوْنَ فِيهَا) يلبسون الحلىّ أى يجعلون لابسين الحلى أى ما يتزين وقد يبينه بقوله : (مِنْ أَسَاوِرَ) بإن مِن هذه للبيان يتعلق بمحذوف نعت لمفعول ثان ليحلى محذوف .

والأول هو الواو النائبة عن الفاعل أى يحلون فيها أشياء من أساور أى أشياء هى أساور جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهو لباس عريض من نحو ذهب وفضة يلبس فى الذراع .

(مِنْ ذَهَبٍ) من للابتـداء أى أساور مصوغة من ذهب أو للبيان أى أساور هى ذهب أو للتبعيض وعلى كل تتعلق بمحذوف نعت لأساور . ومن أجاز زيادة مِن فى الإثبات أجاز أن تكون مِن الأولى صلة للتأكيد وأساور مفعولا ثانيا . ونـكّر أساور للتعظيم ولإبهام أمرها فى الحسن . قيل عن رسول الله ﷺ : إن الرجل من أهـل الجنة لو بدا سواره لغلب على ضوء الشمس وذكروا أنه ما من أحد من أهل الجنة إلا فى يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ لقوله تعالى : « يحلون فيها من أساور من ذهب » وقوله عز وجل : « وحلوا أساور من فضة » ، وقوله سبحانه : « لؤلؤاً ولباسهم فيها حرير » .

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا) لأن الخضرة أحسن الألوان وأكثرها طراوة وينفتح لها القلب مالا ينفتح لغيره (مِنْ سُنْدُسٍ) الحرير الرقيق . (وَإِسْتَبْرَقٍ) الحرير الغليظ جمع لهم فيها بين النوعين تلذذا لهم بمـا تشتهيه النفس وتلذه العين وذكر ذلك ترغيبا فى الجنة فيتوصل إليها بالإيمان والأعمال الصالحات .

وقيل : السندس : المنسوج المذهب وذكر بعض الكوفيين أن إستبرقا معرب إستبرط بالفارسية .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا) أى فى الجنة حال من واو يلبسون وهى مقارنة ويقدر مثله لؤلؤا يحلون فإن ما تلبسهم الملائكة الأساور متكئين والملائكة قاعدون وكذا يلبسون الثياب الخضر وهم متكئون وذلك تشريف عظيم أو حال مقدرة وذلك بأن يدخلوا الجنة فيتكئوا وبعد ذلك يلبسون الثياب الخضر ويحلون الأساور أو حال مقدرة من الماء فى لهم .

(عَلَى الْأَرَائِكِ) جمع أريكة وهو السرير بشرط أن يكون فى بيت مزين بالثياب والستور للعروس . وخص الاتكاء لأنه هيئة الملوك والمتنعمين .

وذكر بعضهم أنه يعانق الرجل زوجته قدر عمر الدنيا لا تمله ولا يملها . وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرجل من أهل الجنة ليتمتع فى تكأة واحدة سبعين عاماً . وعن ابن عباس : إن الرجل من أهل الجنة ليتكىء على أحد شقيه ينظر إلى زوجته كذا وكذا سنة ثم يتكىء على الشق الآخر وينظر إليها مثل ذلك فى قبة حمراء من ياقوتة حمراء لها ألف باب وله فيها سبع مائة امرأة . ثم زاد الله الرحمن الرحيم للجنة طراوة وتعظيما بقوله : (نِعْمَ الثَّوَابُ) المخصوص بالمدح محذوف أى الجنة ونعيمها . (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) منزلا أو متكأً ومر كلام فى ذلك .

(وَاضْرِبْ لَهُمْ) أى الكفار مع المؤمنين أو للكفار والمؤمنين . وقيل : مثل بعيينة وأصحابه وسلمان وأصحابه . (مَثَلًا) مفعول به لاضرب أى ضع لهم مثلا . (رَجُلَيْنِ) بدل من مثلا أو يضمن اضرب معنى اجعل فيكون مثلا مفعولا ثانياً ورجلين مفعولا أول والرجلان من بنى مخزوم من أهل مكة أحدهما مسلم وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عبد ياليل وهو زوج أم سلمة قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ والآخر كافر والأشد هو بشين معجمة ودال مشددة

وقيل : الأسد بمهملة وتخفيف وكذا الآنى لأنه واحد وهو أخوه الأسود بن عبد الأشد وقيل : هما أخوان فى بنى إسرائيل أحدهما مسلم .

وقال ابن عباس : اسمه يهوذا وقيل : تمليخا وكافر اسمه قطروس قيل : هما المراد فى قوله تعالى: «قال قائل منهم إنى كان لى قرين» ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطاء الخراسانى : رجلان اشتركا فى ذلك واقتسماه فاشترى أحدهما أرضاً بألف دينار وهو الكافر فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضاً بألف دينار وإنى أشترى منك أرضاً فى الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم إن الكافر بنى دارا بألف دينار فقال المسلم : اللهم إنه ابتنى دارا بألف دينار فأنا أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم تزوج الكافر امرأة فأنفق عليها ألف دينار فقال المسلم : اللهم إنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم اشترى الكافر خدما ومتاعاً بألف دينار فقال المسلم : اللهم إنى أشترى منك خدما ومتاعا من الجنة بألف دينار فتصدق بألف دينار .

وقيل : قال : اللهم إنى أشترى منك الوِلدان المخلدين بألف دينار فتصدق بألف دينار ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لو أتيت صاحبى أو قال : أخى على الخلاف هل هما أخوان أو رجلان مشتركان لعله ينالنى بمعروف فجلس على طريقه حتى مر به فى حشمه فتعرض له قائما فنظر إليه فعرفه فقال : فلان ؟ قال : نعم قال ما شأنك ؟ قال : أصابتنى حاجة بعدك فأتيتك لتصيبنى بخير فقال : مافعل مالك ؟ وقد اقتسمنا مالا وأخذت شطره فقص عليه قصته فقال : أئنك لمن الصادقين

اذهب فلا أعطيك شيئاً ووبخه أنك لمن المتصدقين بأموالهم تصديقاً بالبعث والجزاء وكان هو مكذباً .

وقيل : لما تعرض له أخذ بيده وطاف به يريه أمواله وفيهما نزل : « واضرب لهم مثلا رجلين » (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا) وهو الكافر (جَنَّتَيْنِ) بستانين . (مِنْ أَعْنَابٍ) الجملة مستأنفة لبيان ضرب المثل أو نعت لرجلين .

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) أى الجنتين أى أحطناهما بنخل وجعلنا حافتهما أى ماحولهما نخلا محيطة بهما وهذه الباء للتعدية إلى مفعول ثان كقولك : أحطته بكذا وغشيته به . (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا) أى بين الجنتين أى بين الواحدة والأخرى . وقيل : بين أجزاء كل واحدة أى وسط كل واحدة .

(زَرْعًا) ليكون بهما وبما بين الواحدة والأخرى جامعا للأقوات والفواكه متصل العمارة مع الشكل الحسن والترتيب المهذب أو لتكون كل جنة جامعة لذلك والزرع ما يزرع كبُرّ وشعير وذرة وحمص ونحو ذلك مما يقتات به .

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا) أى أحضرت مأكولها أى ما يؤكل منها من الثمار أو جملته آتيا فإن الآتى بعد أوله هو أتى بقصره زيدت عليه همزة التعدية فقلبت الهمزة الثانية ألفا . والأكل بضم الهمزة : المأكول أى ما يؤكل وإنما أفرد آتت لمراعاة لفظ كلتا فإنه مفرد ولو أعرب إعراب المثنى ولا سيما أنه أعرب هنا مقصوراً لإضافته للظاهر فإن كلا وكلتا ككل وجميع مما هو اسم مفرد لا يثنى ولا يجمع ولكنه يدل على ما فوق الواحد ولو روعى معنى كلتا لقيل : آتتا أكلهما ولم تظلما .

وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه كل الجنتين آتى أُكُله ولم يظلم بضم كاف كل

وضم لامه وتشديدها وبهاء المذكر فى قوله أكله وإسقاط تاء التأنيث من آتت ورد الألف المحذوفة لأجلها .

وقرئ الجنتين آتت أكلها بضم الكاف والهمزة جميعا فى أكلها وهو أيضا ما يؤكل .

وإن قلت : قد جعلت الهمزة فى آتت للتعدية وأصله متعد لواحد بلا همزة فأين الثانى بعد وجودها ؟

قلت : محذوف أى آتت أكلها صاحبها أو جانيه وحذف لأن المقام ليس مقام التعلق بذكره وقد يقال : لايقدر أصلا أى لم يُسَق الكلام له .

(وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا) أى لم تنقص من أكلها أى من ثمارها شيئا قط بل تأتى كل عام بثمارها وافرة لا كسائر الجنات تأتى فى عام بغلة وافرة وتنقص أو لا تثمر أصلا فى عام آخر أو ما فوقه .

(وَفَجَّرْنَا) أنبعنا أو شققنا (خِلَالَهُمَا) وسطهما أى بين الواحدة والأخرى أو فى وسط كل واحدة (نَهَرًا) عينا تسقى به كل واحدة منهما وهو بينهما أو تسقى كل منهما بعين فيها على حدة لتكون مادة لهما لا تضعفان ولا تيبسان وهو أفضل من السقى بالزجر لصعوبته فيعجز عنه ومن السقى بالمطر لأن العادة جارية على انقطاعه .

وقرأ يعقوب وفجرنا بتخفيف الجيم عن التشديد .

(وَكَانَ لَهُ) أى لصاحبها الكافر (ثُمُرٌ) بضم الثاء والميم أى أنواع من المال كالذهب والفضة وقد فسره بهما مجاهد .

وقيل : الثمر : الأصول من قولك : ثمَّر ماله إذا أكثره وذلك من غلة

الجنتين فكان بهما تام الغِنَى واليسار متمكنا من عمارة الأرض كيف شاء والمفرد ثمرة بفتح الثاء والميم أى نوع من المال ومثله خشبة وخشب .

وقرأ ابن عاصم وكان له ثمر بفتحهما والواحد ثمرة بفتحهما وهى ثمرة الشجرة والنخلة ومثله شجرة وشجر .

وقرأ أبو عمرو وكان له ثمر بضم فإسكان جمع ثمرة بضمهما وهى ثمرتهما ومثله بدنة بضم الباء والدال وبدن بضم الباء وإسكان الدال .

وقيل : من كتب : « واضرب لهم مثلا رجلين ـ إلى قوله ـ ثمر » يوم الجمعة فى الساعة الرابعة فى اثنى عشر شقفا من طين بقلم نحاس وبخرها بعرق الصفصاف ثم رماها فى ساقية جارية فأى شجرة شربت من ذلك الماء نجبت وكثر خيرها بإذن الله تعالى .

(فَقَالَ) صاحب الجنتين الكافر . (لِصَاحِبِهِ) المؤمن . (وَهُوَ) أى الكافر . (يُحَاوِرُهُ) يراجع المؤمن فى الكلام ويخاطبه مفاعلة من حار إذا رجع :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) أغلب عشيرة والمراد من يتبعه وينصره وإلا فعشيرتهما واحدة على القول بأنهما أخوان أبوهما واحد وأما على القول بأنهما مشتركان فيمكن أن تكون عشيرة أحدهما غير عشيرة الآخر . وقيل: أعز أولادا ذكورا وعبر عنهم بلفظ النفر تلويحا بأنهم ينفرون إذا نفر فهو يتقوى بهم لا كالبنات ويدل لهذا القول قوله تعالى : « إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا » .

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) مع صاحبه المؤمن يطوف به فيها ويفاخره بها بدل وإضافة الجنة للهاء للجنس فيصدق بالجنتين فالمراد الجنتان فالمراد جميعا وإنما أفرد فى قوله : « أن تبيد هذه أبدا » مراعاة للفظ جنة وقد رجع إلى المراد إذ قال : « لأجدن خيرا منها منقلبا » هذا ما كنت أقرأ به معنى الآية .

ويحتمل أن يكون الله سبحانه نزل الجنتين منزلة الجنة الواحدة لاتصالهما أو لعدم فصلهما إلا بزرع هو تقوية لهما وشبيه بهما أو أفرد إرادة الروضة أو نظراً للمبدأ فقط لأن الدخول يكون فى واحدة بعد واحدة فيكون قد قال فى الثانية : وما أظن أن تبيد هذه أبدا كما قاله فى الأولى ويدل لذلك جمعهما فى قوله : « لأجدن خيراً منها » .

ثم ظهر لى وجه آخر هو أن يراد بالجنة الجنتان لا على طريق الجنس كما فى الوجه الأول على طريق ما يروى : الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن إشارة إلى أنه ليس له فى الآخرة إلا النار وما ملكه فى الدنيا من الجنتين فهو جنته .

(وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ) ضارلها بالعجب المطغى والكفر بالبعث .

(قَالَ مَا أَظُنُّ) أى ما أرجح بل أشك أو ما أعلم أو ما أشك .

(أَنْ تَبِيدَ) تهلك وهلاك الجنان فناؤها أو تيبسها .

(هَٰذِهِ) أى الجنة . (أَبَدًا) لطول أمره وأمرها وما رأى حاله وحالها إلا على زيادة وتمادى غفلته فاغتر بحسنها حتى توهم أنها لا تفنى .

ويحتمل أن يريد ما أظن أن تبيد بقيام الساعة لأنه لا يعتقد قيامها ويحتمل أن يريد ما أظن أن تبيد مدة حياتى كلها على أن الأبد بمعنى مدة حياته أى فى الزمان المستقبل كله من عمره .

(وَمَا أَظُنُّ) هو مثل الذى مر . (السَّاعَةَ) التى تدعيها يا صاحبى المؤمن وهو وقت موت الناس وغيرهم كلهم إلا الحى الدائم الذى لا يموت أو وقت قيامهم من قبورهم (قَائِمَةً) كائنة .

(وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي) بالبعث بعد موتى كما تدعى (لَأَجِدَنَّ) عنده لى (خَيْرًا مِنْهَا) من الجنتين إذ لم يعطهما فى الدنيا إلا لكرامتى عنده فهو يعطينى

خيراً منهما في الآخرة إن صح أمر الآخرة كما تدعى وذلك قراءة نافع وابن كثير وابن عامر .

وقرأ غيرهم : « لأجدن خيراً منها » بالإفراد على حد ما مر أى من جنتى .

(مُنْقَلَبًا) مرجعاً وعاقبة لأنهما فانيتان وما أجده بعد البعث ـ إن صح كما تدعى ـ دائم لا يفنى ومنقلبا تمييز وهو مصدر ميمى أى انقلابى إلى ما أجد عنده بعد البعث ـ إن صح ـ خير من انقلابى إلى جنتىّ هاتين حين انقلبت إليهما بالملك والانقلاب إنما هو فعله وإنما صح إثباته فى الآية للجنتين وما يجده لأن انقلابه إلى الجنتين وما يجده والمراد انقلاب ما أجده عنده خير من انقلاب هاتين الجنتين لأن انقلابهما إلى الفناء وانقلاب ما أجده إلى الدوام لأنه كلما تقلب فى مدة انقلب إلى أخرى فهو منقلب انقلاباً دائماً .

ويجوز كونه اسم زمان منصوبا على التمييز وذلك لأن زمان انقلاب الجنتين خير من زمان انقلاب ما أجده عنده تعالى لأن زمان تقلبهما منقطع دون زمان تقلب ما أجده فإنه لا ينقطع أو زمان المنقلبتين هما إليه هو زمان فنائهما وزمان المنقلب ما يجده زمان وجود أبداً هذا ما ظهر لى من الأوجه فتأملها ولست بمستغن عن مثل هذا البحث وإن استغنت نفسك فاعلم أنك قاصر والكمال إنما هو لله سبحانه وتعالى وكثير من أغنياء الموحدين تنطق ألسنة أحوالهم بما نطق به لسان مقال الكافر المذكور وأعوذ بك اللهم من شر نفسى .

(قَالَ لَهُ) أى لصاحب الجنتين الكافر . (صَاحِبُهُ) المسلم . (وَهُوَ) أى صاحبه المسلم (يُحَاوِرُهُ) أى يحاور الكافر بالجواب .

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ) الهمزة للتوبيخ وإنكار جواز الكفر وإنما علم كفره من قوله : « أئنك لمن المصدقين » بأموالهم اعتقاداً للبعث وقوله : « إن رددت » بصيغة الشك فى الرد وهو البعث وغير ذلك مما علمه من أحواله .

(مِنْ تُرَابٍ) بخلق أبيك منه فإن من تولد ممن خلق من تراب مخلوق من تراب ولو كثرت وسائط تولده منه هـذا ما أقرر به المعنى وهو إن شاء الله أولى من تقدير خلق أباك من تراب فالتراب المادة البعيدة لـكل ولد آدم .

(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ) نفس النطفة التى كنتها ثم صرت حيوانا فهى المادة القريبة.

(ثُمَّ سَوَّاكَ) عدلك وكملك . (رَجُلا) أى ذكراً لا أنثى فإنه قد يطلق الرجل على الذكر ولو طفلا أوجنينا أو المراد ذكراً بالغا ورجلا حال مقدرة شبيهة بالمقارنة لأنه فى حال تسويته ينقله من حال إلى حال فى أزمان متعددة غير رجل حتى تتم تسويته فيتصل بها كونه رجلا اتصالا شديداً ومثل المتصلة ولو أقل من هذه قد تسمى مقارنة ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لسوى بمعنى صيّر وإنما علق الإنكار والتوبيخ بالخلق من تراب ثم من نطفة وبتسويته رجلا تنبيها له على أن ذلك نعمة قد كفرها ولم يشكرها ورداً عليه فى شكه فى كمال قدرة الله جل وعلا بأن من قدر على بدء خلقه من التراب يقدر على إعادته قطعا .

(لَـٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى) استدراك من قوله : أكفرت كأنه قال : أنت كافر بالله لـكن أنا مؤمن به كقولك : زيد غائب لـكن عمرو حاضر .

ولـكن هذه حرف خفيف النون لا عمل له أدغمت نونه فى نون أنا أصله لـكن أنا حذفت الهمزة مع حركتها فالتقت النونان فأدغمت الأولى الساكنة أو نقلت فتحة الهمزة للنون فحذفت الهمزة ثم سكنت النون وأدغمت والأول أقرب وكل ذلك تخفيف والحذف على الأول يسمى حذفا اعتباطيا أى حذفا بلا علة غير التخفيف وعلى الثانى حذفا قياسيا كما قال ابن هشام فهناك ثلاث مبتدآت: الأول أنا المحذوف الهمزة . والثانى هو على أنه ضمير الشأن . والثالث لفظ الجلالة وربى خبره والجملة خبر الثانى والثانى وخبره خبر الأول .

ويجوز كون هو ضمير الله سبحانه وتعالى ولفظ الجلالة بدله أو عطف بيان عليه وربى خبر هو والجملة خبر الأول فيكون مبتدآن فقط قال ابن هشام : والأول أظهر .

ويجوز كذلك كون هو ضميرا للذات الواجب الوجود الخالق المسوى مبتدأ ولفظ الجلالة خبره والجملة خبر الأول وربى خبر ثان لهو أو بدل من لفظ الجلالة وألف لكنا مثبتة فى الوصل على قراءة ابن عامر بإثباتها فى الوقف أعنى الألف بعد النون والباقون يحذفونها فى الوصل ويثبتونها فى الوقف كذا قال أبو عمرو الدانى .

وقرأ أبو جعفر ويعقوب فى رواية عنه كابن عامر ووجه قراءتهم تعويض إثبات الألف عن الهمزة المحذوفة أو لإجراء الوصل مُجرى الوقف .

وروى عن أبى عمرو أنه وقف بالهاء وحذف الألف وهى هاء السكت .

وقرأ أُبىّ بن كعب لكن أنا بإثبات الهمزة على الأصل .

وقرأ ابن مسعود لكن أنا لا إله إلا هو ربى بإثبات الهمزة .

وقرأ بعض لكن هو الله ربى بسكون النون وطرح أنا .

(وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا) فى عبادة ولا فى غيرها كما أشركت أنت هواك والشيطان به فى العبادة وكما سويته بغيره فى عدم القدرة على البعث أو فى عدم البعث وسكّن غير نافع وابن كثير وأبى عمرو ياء ربى .

(وَلَوْلَا) حرف توبيخ وتنديم داخل على قلت المذكور بعد . (إذْ) متعلق بقلت المذكورة بعد .

(دَخَلْتَ جَنَّتَكَ) الإضافة للجنس أو للحقيقة أو نزلها منزلة جنة واحدة لاتصالها فيقول لها قولا واحداً عند الدخول من أحدها .

(قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ) خبر لمحذوف أى الأمر ما شاء الله أو الذى فى جنتى من خير وصلاح حال ما شاء الله أو هذا ما شاء الله أو مبتدأ محذوف الخبر أى ما شاء الله كائن وما موصولة ويجوز أن تكون شرطية محذوفة الجواب أى ما شاء الله كان فتكون مفعولا لشاء .

(لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ) لا قوة لى على دفع الضر عنها وحفظها وعمارتها وتدبير أمرها إلا بالله أى إلا بمعونة الله وإقداره ولو لم يشأ الله أن تكون كما هى لخربها ولم يؤثر فيها عمارتك وحفظك وتدبيرك .

قال رسول الله ﷺ من رأى شيئا وأعجبه وقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره . رواه البيهقى وقال رسول الله ﷺ : من أعطِىَ خيراً من أهل أو مال فيقول عند ذلك : ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروها .

وكان عروة بن الزبير إذا رأى من ماله شيئا يعجبه أو دخل حائطا من حيطانه قال : ماشاء الله لاقوة بالله وكان يثلم حائطه أيام الرطب فيدخل من شاء وكان إذا دخله ردد هذه الآية حتى يخرج ومعنى يثلمه يجعل فيه ثلمة ليدخل من شاء للأكل والشرب وضمير كان ودخل وردد ويخرج لعروة . والحائط : البستان سمى لأنه يدور به الحائط ويثلم حائطه يثلم بستانه أى يجعل فى حائطه : بستانه ثلمة .

ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله لا يتحول أحــد عن معصية أو ما يكرهه ولا يقوى على طاعة أو ما يحبه إلا بالله هذا ما كنت أقول جمعا بين هذه الآية وقوله ﷺ : ألا أخبركم بتفسير لاحول ولا قوة إلا بالله لاحول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله هكذا أخبرنى جبريل يا ابن أم عبد رواه البخارى عن ابن مسعود وهو ابن أم عبد .

وعنه ﷺ إذا وقعتَ فى ورطة فقل : بسم الله الرحمن الرحيم لا حول

ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإن الله تعالى يصرف بها ما شاء الله من أنواع البلاء رواه ابن السنى فى عمل يوم وليلة عن على .

وقال رسول الله ﷺ : استكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها تدفع تسعة وتسعين بابا من الضر أدناها الهم .

وعن جعفر الصادق : هذه الآية « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » تجلب الغنى لقارئها بإذن الله تعالى (إِنْ تَرَنِ) بحذف ياء المتكلم وصلا ووقفا وأثبتها فيهما ابن كثير وأثبتها فى الوصل قالون وأبو عمرو وحذفاها وقفا . (أَنَا) توكيد لفظى لياء المتكلم .

وأجاز الزمخشرى والقاضى أن يكون ضمير فصل بل لم يذكر الزمخشرى فى قراءة نصب أقل سواه . ووجه ذلك مع أن أقل ولو كان نكرة لكنه كالمعرفة فى عدم قبول أل لأنه اسم تفضل مقرون بمن التفضيلية وكذا حيث نويت من التفضيلية كقوله تعالى : تجدوه عند الله هو خيرا (أَقَلَّ) مفعول ثان لترى بمعنى تعلم .

وقرئ بالرفع فيكون أنا مبتدأ خبره أقل والجملة مفعول ثان (مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّى) هذا ترجٍّ منه رضى الله تعالى عنه وسكن الياء غير نافع وابن كثير وأبى عمرو .

(أَنْ يُؤْتِيَنِ) لإيمانى (خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة كما مر أنه أعطى لوجه الله مثل ما اشترى به صاحبه الكافر جنته ليعطيه الله من فضله وكرمه جنانا فى الآخرة .

ويحتمل أن يريد فى الدنيا بأن لم يحضر له حينئذ الطلب لجنان الآخرة وأفرد الجنة لما مر وجملة عسى ربى أن يؤتينى خيرا من جنتك جواب الشرط وإثبات

الياء بعد نون يؤتينى فى الوصل قراءة نافع وأبى عمرو وحذفاها وقفاً وأثبتها ابن كثير وصلا ووقفاً .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا) على جنتك لكفرك . (حُسْبَانًا) مرامى . (مِنَ السَّمَاءِ) وهى الصواعق جمع حسبانة وهى الصاعقة وذلك قول ابن عباس أن الحسبان النار وقيل : هو مفرد مصدر كالبطلان والغفران بمعنى الحساب أى مقداراً قدره الله جل وعلا وهو الحكم بتخريبها وقيل : مصدر بمعنى مفعول أى شيئاً مما يدخل فى الحساب ويعتد به .

وقال الزجاج : عذاب حساب يعنى حساب الأعمال السيئة والقول الذى قبله صالح لإرادة تلك الأقوال كلها .

(فَتُصْبِحَ) تصير فى الصبح أو غيره أو المراد إرسال الحساب عليها ليلا فتصبح بعد الفجر . (صَعِيدًا) مجرد تراب لا نبت ولا نخلة ولا شجرة .

(زَلَقًا) ملساء تزلق بها القدم وأصله مصدر وصف به وكذا قوله غورا ويحتملان التأويل بذات زلق أو بمنزلقة أو مزلوق بها أو فيها إن جعلناه خبرا ثانيا لتصبح وبذى زلق وبمنزلق أو مزلوق به أو فيه إن جعلناه نعت صعيداً وبغائر أو ذا غور . وعدم التأويل للمبالغة .

والذى يظهر لى أن زلقا كناية عن كونها لا يوجد بها ما يعارض رجل الماشى من شجر أو نخل أو نبات حتى إنه لو كان الزلق فيها حقيقة لم يجد الماشى ما يتشبث به فيمنعه عن الزلق أو كناية عن كونها سبخة تزلق إذا ابتلت فتأمل .

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا) يصير فى الصبح أو غيره أو يصبح بعد الفجر . (غَوْرًا) يقال : ماء غور وغائر داخل فى الأرض لا تناله يد ولا دلو . وعطف

« يصبح ماؤها غوراً » على قوله : « يرسل عليها حسباناً من السماء » لا على قوله: « فتصبح صعيدا زلقا » المتسبب عن إرسال الصواعق لأن إرسال الصواعق لا يكون سببا لإصباح الماء غوراً .

وإن فسرنا الحسبان بغير الصواعق مما مر جاز العطف على تصبح صعيدا زلقا وقد يقال بجواز العطف عليه ولو فسرنا الحساب بالصواعق لإمكان أن تؤثر الصواعق بإذن الله فى الماء بالإغارة كما تؤثر بإذنه فى الشجر والنخل والنبات .

(فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ) أى للماء المصبح غورا (طَلَباً) ردّا ومعالجة فى رجعه بحيلة . ولا يخفى إن شاء الله ما فى ذلك من المبالغة إذ جعله غير مستطيع لنفس طلب رجع الماء فضلا عن أن يستطيع رجعه وذلك حال من لم يبق له مطمع فى أمر من الأمور حتى كان طلبه كالمحال لعدم جدواه أو المراد لن تستطيع له طلبا نافعا فذلك كله من كلام المؤمن رضى الله عنه لصاحبه الكافر .

ثم أخبرنا الله الرحمن الرحيم عن الواقع من حال جنة ذلك الكافر بقوله :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) الباء للإلصاق أو بمعنى على أى أحيط على ثمره بالهلاك أو أحيط بثمره كناية عن هلاك ثمره ، كقولك : أحاط به العدو إذا أردت الإخبار بهلاكه لأنه إذا أحاط كان غالبا وإذا كان غالبا كان مهلكا فإن إحاطة المضرة بالشىء يلزم منها هلاكه فى الجملة فاستعمل بمعنى الإهلاك والثمر ثمرات النخل والشجر والزرع أهلكت بإهلاك النخل والشجر والزرع بإرسال الحسبان من السماء وإغارة الماء كما أنذره صاحبه بتوقيع ذلك والتخويف به .

وروى أنه أرسلت على جنته نار من السماء فأحرقتها . ويحتمل أن يراد بالثمر ماله كله من عروض وأصول كذا قيل والسياق السابق واللاحق يدلان على الأول وعلى أن المراد الأصول .

(فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) قال شيخنا الحاج إبراهيم بن يوسف ذكره الله بالصالحات فيمن عنده : إن المعنى أصبح يضع بعنف باطن كف على ظهر أخرى ثم يضع ظهر هـذه الأخرى على ظهر الأولى ثم يضع ظهر كل فى بطن الأخرى فيحتمل أنه فعل ذلك تحقيقا فيتعلق قوله : (عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا) بيقلب لتضمنه معنى الندم والتلهف فكأنه قيل: أصبح متلهفا على ما أنفق من الأموال فى شرائها وعمارتها حتى إنه يقلب كفيه ظهراً لبطن أو يتعلق بحال أو مفعول لأجله محذوف أى فأصبح يقلب كفيه نادما أو ندماً على ما أنفق فيها

ويحتمل أنه لم يقلب حقيقة ولكنه ندم وتلهف فعبر عن ندمه وتلهفه بتقليب الكف كناية عنه لأن من بالغ فى الندم والتلهف يقلب كفيه ويعضهما فى الجملة.

(وَهِيَ خَاوِيَةٌ) ساقطة . (عَلَى عُرُوشِهَا) سقوفها بأن وقع على كل سقف مافوقه أو وقع السقوف على الأرض وسقط الجدر على السقوف ، أو العروش مايبنى أو يركز لشجر العنب وقع ذلك ثم وقع عليه شجر العنب .

قيل : إن قوله تعالى : « قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى - إلى قوله - عروشها » لخراب بيت الظالم وبستانه وحانوته وزرعه وكل ماتقلب فيه . ومن أراد ذلك فليصم يوم الخميس ويوم الجمعة فإذا كان نصف الليل من ليلة السبت كتب ذلك فى مشط من مزلة وبلغه فى خرقة قميص ويدفنه فى الموضع فإنه يرى عجباً ولا يفعل ذلك إلا على من يحل فيه كمشرك طاغ ونحوه .

(وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) ندم على الشرك من حيث أعقبه الإحاطة بثمره وتمنى أن لو قبل من أخيه المسلم نصحه وقيل: ندم عليه ندم توبة لما اتضح له صدق أخيه بما توقعه ، وسكن ياء ربى غير نافع وابن كثير وأبى عمرو. وجملة يقول معطوفة على جملة أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها أو خبر لمحذوف

وجملة المبتدأ والخبر حال أى وهو يقول . وقيل بجواز وقوع المضارع ومرفوعه حالا ولو كان منبتاً مجردا من قل .

(وَلَمْ تَكُنْ) وقرأ حمزة والكسائى ولم يكن بالمثناة التحتية لأن مرفوعه ولو كان مؤنثا لكنه ظاهر مجازى التأنيث وهو فئة مجاز تذكيره وهو اسم للكون كما فى قراءة الجمهور ويجوز على قراءتهما أن يكون فى يكن ضمير الكافر النادم فيكون قوله : (لَهُ) خبراً للمبتدأ الذى هو قوله : (فِئَة) والجملة خبر الكون .

وأما على قراءة الجمهور فيتعين أن يكون له خبراً لكون وفئة اسمه ولا يتكلف غير ذلك من جعل الاسم ضمير القصة والجملة خبراً .

(يَنْصُرُونَهُ) نعت لفئة على المعنى ولو كان على اللفظ لقال : تنصره . ويجوز تعليق له بلفظ الكون أو بمحذوف حال من فئة وفئة اسم الكون وينصرونه الخبر .

(مِنْ دُونِ اللهِ) أى لم تكن له جماعة ينصرونه من دون الله عند هلاك ثمره فيردوها له أو يدفعوا عنها الهلاك قبل وقوعه فإن القادر على ذلك هو الله وحده .

(وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا) لنفسه بقوته فيرد الثمر أو يدفع عنها وذلك تفسير صالح على أن يكون ندمه ندم توبة وعلى أن يكون ندم تلهف على ما فاته من الدنيا .

ويحتمل على الثانى أن يكون المعنى لم تكن له جماعة تنصره من دون الله فتدفع عنه عذاب الآخرة وما كان منتصرا بنفسه على دفعه .

(هُنَالِكَ) أى فى ذلك المقام الذى هو الإحاطة بثمره . (الْوَلَايَةُ) النصرة .

وقرأ حمزة والكسائى بكسر الواو أى السلطان والملك (لِلَّهِ) وحده لا يقدر أحد على نصره برد ثمره أو الدفع عنها أو لا يغلب أحد على الملك والسلطان فيمنع الله منه تعالى فى الدنيا والآخرة عن ذلك وذلك تقرير لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله » أو هنالك النصرة أو السلطان لله ينصر بهما أولياءه على أعدائه كما نصر المؤمن على الكافر بالإحاطة بثمره وتغوير مائه . ويناسبه قوله بعد : « هو خير ثوابا وخير عقبا » أى عاقبة لأوليائه وقيد الإشارة بهنالك إلى يوم القيامة أى لا يتولى أحد أمر أحد يومئذ ولا ملك لأحد يومئذ كقوله : « لمن الملك اليوم » أو الإقبال يومئذ إلى الله وحده ويعرض العابدون لغيره عما كانوا يعبدونه وفيه على هذا تلويح إلى أن قوله : « يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا » إنما هو اضطرار وجزع وتلهف على الدنيا لا توبة .

(الْحَقِّ) نعت للفظ الجلالة ولا يمنع إطلاق النعت والمنعوت فى أسماء الله باعتبار الألفاظ وإنما يمنع إذا أريد المعنى .

وقرأ الكسائى وأبو عمرو كما قال أبو عمرو الدانى إلا حمزة والكسائى كما قيل بالرفع نعتا للولاية . وساغ ذلك لأن الحق مصدر نعت به والمصدر يصلح للمؤنث ولو لم يكن فيه علامة تأنيث .

وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على القطع أو على المفعولية المطلقة المؤكدة لمضمون الجملة الذى هو ليس نفس معناها كقولك : أنت ابنى حقا أى أحق الحق المذكور .

(هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا) وغيره فانٍ . ثواب مخلوق لمخلوق قليل ناقص فانٍ بخلاف ثواب الله أو هو خير ثوابا من غيره لو كان غيره فى الآخرة قادرا على الإثابة فهو الرحمن الرحيم يثبت المؤمن على إيمانه وعمله يوم القيامة كصاحب ذلك الكافر

بما لا يخطر فى القلب ولا حساب الجنة الكافر المذكور ولا للدنيا جميعاً فى مقابلة ثوابه يومئذ .

(وَخَيْرٌ عُقْباً) عاقبة للمؤمنين بأن يردهم إلى نعيم عظيم لا يفنى ويشفى غيظ قلوبهم من أعدائهم الكفرة كصاحب الجنة بإذهاب أموالهم وإدخالهم النار .

وقرأ عاصم وحمزة بسكون القاف تخفيفا .

وقرئ عقبى بالإسكان وألف التأنيث والمعنى واحد وهو المصير والمرجع .

(وَاضْرِبْ) اذكر . (لَهُمْ) أى لقومك وفيه ما مر . (مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وهى صفة غريبة أو اذكر لهم ما يماثل الحياة الدنيا فى بهجتها وزوالها بسرعة ليرغبوا عنها .

(كَمَاءٍ) خبر لمحذوف أى هى كماء والجملة مستأنفة لبيان المثل المأمور بضربه أو مفعول ثان لاضرب بمعنى صير أو الكاف اسم مفعول أول ومثل ثان أو الكاف بدل من مثل .

(أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ) عطف على محذوف أى فمضت مدة يسيرة فاختلط أو نزل ما بين الإنزال والاختلاط منزلة العدم لقلته جداً إن جعلنا الاختلاط اختلاط عروق النبات بالماء ومبالغة فى ترتب اختلاط الشجر بعضه ببعض بسبب الماء إن فسرنا الاختلاط باختلاط الشجر بعضه ببعض أو لأنه لا مدة أصلا إن جعلنا الاختلاط اختلاط نفس الشجر بالماء أو الفاء بمعنى ثم إذا فسرناه باختلاط العروق بالماء أو اختلاط الشجر بعضه ببعض .

(بِهِ) أى بالماء والباء للإلصاق أو المعية .

(نَبَاتُ الْأَرْضِ) أى التصق بالماء أو اقترن معه والمصدق واحد أو التصق به عروق النبات أو اقترن معه ويجوز كونها للسببية أى اختلط النبات بعضه

ببعض أو عروقه بسبب الماء وذلك بأن كثرت الأغصان والعروق والأوراق فالتفت وذلك فيما بين نبتة وأخرى وفيما بين أوراق نبتة وأوراقها وعروقها والمراد من النبات ما له ساق وما لا ساق له .

وإذا جعلت الباء للإلصاق أو للمعية كان فى الكلام قلب أصله فاختلط بنبات الأرض لأن الأحق بإسناد الاختلاط إليه ما حدث على الآخر ونكتة القلب المبالغة فى كثرة النبت حتى كأنه يمشى مشيا إلى الماء ولأن كلا من المختلطين مجاور للآخر .

(فَأَصْبَحَ) العطف على محذوف أى فمضت مدة فأصبح أو الفاء بمعنى ثم والإصباح على الوجهين بمعنى الصيرورة أى فصار . (هَشِيماً) أى مهشوما أى مفروقا ومقطوعا أو مدقوقا لقيبسه .

(تَذْرُوهُ) تنشره وتنقله من موضع لآخر . (الرِّيَاحُ) وقرأ حمزة والكسائى الريح بالإفراد وقرأ ابن عباس تذريه بضم التاء وكسر الراء من أذرى بمعنى ذرى .

والأصل فى الكاف ونحو ومثل وشبه ونحو ذلك من أدوات التشبيه الداخلة على المفرد أن تدخل على المشبه به لفظا أو تقديراً نحو « أو كصيب » أى كمثل ذوى صيب وقد تدخل على غير المشبه به كهذه الآية إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ولا بمفرد مقدر بل تشبيه حالها فى نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات الحاصل من الماء يكون أخضر ناضراً شديد الخضرة ثم ييبس فتطيره الريح كأن لم يكن فذلك تشبيه مركب من هيئات منتزعة فقد تبين أن من جعل الكاف فيها داخلة على مشبه به محذوف تقديره : كمثل ماء سها سهواً ظاهراً لأن المشبه به ليس مثل الماء ولو باعتبار تقييده بما رتب على إنزاله بل المشبه به هو الماء والمرتبات عليه وأيضا هو تقدير لا حاجة إليه ولا يوضح المقصود بخلاف

التقدير فى كصيب فإن التقدير المذكور فيه موضع المقصود ومحتاج إليه فى رجوع الضمائر بعد .

(وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) قادراً قدرة عظيمة تامة على إيجاد الأشياء وإفنائها .

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يتزين بها الإنسان فى الدنيا ويفارقها عن قريب إما بموته أو بموت بنيه وذهاب أمواله فإن متاع الدنيا قريب الزوال كهباتها . وعن على ابن أبى طالب : البنون حرث الدنيا والأعمال الصالحات حرث الآخرة يجمعهما الأقوام .

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) أى أعمال الخير ووصفت بالبقاء لبقاء ثمرتها وهى ثوابها فى الآخرة فإنه لا يفنى . وبالصلاح لأنها مقبولة لله يترتب عليها الثواب وذلك شامل لأنواع الخير كلها من اعتقاد وكلام وعمل كالإيمان والصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة والحمد والتهليل والتسبيح والتكبير وقراءة القرآن والتعليم والتعلم والدرس والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما قال قتادة : كل ما أريد به وجه الله كما روى ابن عباس .

وروى عنه أيضا : الباقيات الصالحات : قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وعنه أيضا الصلوات الخمس . وعنه الصلوات الخمس وتلك الكلمات . وعن الحسن : الفرائض .

وعن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : استكثروا من قول الباقيات الصالحات قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا

حول ولا قوة إلا بالله . عن ابن المسيب الباقيات الصالحات قول العبد : الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله العلى العظيم أخرجه مالك فى الموطأ موقوفا عن ابن المسيب .

قلت : وقد ورد فى الحديث أنه لا يضرك بأيهن ابتدأت . فيجوز : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فيصدق عليهن أنهن الباقيات الصالحات على أى ترتيب . وقد ذكرت فى صحيحى أذكاراً حسنة وثوابا . ومن ذلك قول رسول الله ﷺ : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إلىَّ مما طلعت عليه الشمس كما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ) من المال والبنين فاعلموا أنها خير فارغبوا فيها .

(ثَوَابًا) جزاء أى جزاؤها خير عند ربك من المال والبنين لأنه تام دائم .

(وَخَيْرٌ أَمَلا) مصدر بمعنى اسم مفعول أى مأمولا أى ما يرجو الآتى بهن من الثواب فى الآخرة خير من ذلك .

(وَيَوْمَ) عطف على عند أو مفعول لا ذكر محذوف أو يقول : ونقول لهم يوم إلى آخره ومفعول هذا القول على هـذا الوجه هو قوله : لقد محذوف أى جئتمونا إلى آخره وعلى الوجهين الأولين يكون قوله : لقد جئتمونا الخ مفعـولا لقول مقدر مستأنف بعد قوله صفًا أى نقول أو يقول لهم: لقد جئتمونا أومفعولا لحال أى قائلا : لقد الخ . وصاحب الحال ربك أو قائلين : لقد فيكون صاحب الحال ضمير نغادر أو حشرنا أو نائباً لقول . والقول حال من الواو فى عرضوا أو هاء حشرناهم أى مقولا لهم : لقد جئتمونا الخ .

(نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) بالنون والتشديد ونصب الجبال أى نصيرها سائرة فى الهواء ونجعلها هباء منثوراً وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالتاء مضمومة وفتح المثناة التحتية والتشديد ورفع الجبال . وقرئ تسير بالتاء مفتوحة وكسر السين وإسكان المثناة التحتية ورفع الجبال .

(وَتَرَى) يا محمد أو يا من تأتى منه الرؤية مطلقا .

(الْأَرْضَ) بالنصب وقرئ وترى الأرض بضم التاء والضاد .

(بَارِزَةً) ظاهرة ليس عليها ما يسترها بكونه عليها وكونها من ورائه كجبل وبناء وشجر ونبات لزوال ذلك كله .

وقيل : المراد أنه يبرز الموتى منها وما فيها من كنز فيقدر مضاف أى وترى الأرض بارزاً مضمونها أو محويها أو مظروفها أو نحو ذلك أو يقال : إنه من إسناد ما للحال للمحل فما للحال هو البروز والحال الموتى والكنز والمحل الأرض .

(وَحَشَرْنَاهُمْ) جمعناهم إلى الموقف بالشام لنحاسبهم والهاء للكفار بدليل قوله : « بل زعمتم » الخ ولو كان الحشر يعم المؤمن والكافر وسائر الحيوان .

وقيل : لا يحشر إلا الملائكة والإنس والجن .

ويجوز عود الهاء للمؤمنين والكافرين فيكون الخطاب فى زعمتم للمجموع لا للجمع والمراد به الكفار .

(فَلَمْ نُغَادِرْ) لم نترك يقال : غادره وأغدره تركه . ومنه الغدر وهو ترك الوفاء والغدير للماء الذى خلفه السيل .

وقرئ يغادر بالمثناة التحتية أى لم يترك الله (مِنْهُمْ أَحَدًا) بلا حشر بل حشر الكل .

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ) كما يعرض الجند على السلطان فمرفهم أو يختبر حالهم أو ليأمر فيهم بأمره فالآية على التمثيل ولو كان الله سبحانه لا تخفى عليه خافية وأمره يدركهم أينما كانوا .

وإنما عبّر عن الحشر والعرض وعدم المغادرة بصيغة الماضى دلالة على أن حشرهم والعرض وعدم المغادرة أمر لابد منه كأنه قد وقع ومضى . وإنما كأنه مضى نغادر بل أوجىء بالحشر وعدم المغادرة بصيغة المضى للدلالة على أنهم يحشرون كلهم قبل تسيير الجبال وبروز الأرض ليعاينوا سيرها وبروزها والواو فى وحشرناهم للعطف ويتبادر كونها حالية على تقدير قد وبدون تقديرها على الخلاف فى جواز كون الحال جملة فعلية فعلها ماض متصرف مجرد من قد وحرف النفى .

(صَفًّا) أى مصطفين لايحجب أحد أحدا لأنهم صف واحد . وقيل : المراد صفا صفا : كل منهم صف وقيل : معنى صفا صافين بأرجلهم أى قائمين . ويقال للناس كلهم أو المنكرى البعث .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) فرادى عراة حفاة غير مختونين لا مال ولا ولد . قال رسول الله ﷺ : إنكم أيها الناس تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ألا إن أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يؤتى برجال من أمتى ويؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابى . فيقول : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح : « وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ـ إلى ـ الحكيم » فيقول : إنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . فأقول : سُحقا سُحقا أى بُعداً . والغُرلة : الجلدة التى تقطع من الذكر . قيل : المراد بهم الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة . قالت عائشة : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى

بعض ؟ قال : الأمر أشد أن يهمهم ذلك لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .
وفى رواية عنها : أما يحتشم الناس يومئذ بعضهم من بعض ؟ قال : هم شغلوا من
أن ينظر بعضهم إلى عورة بعض .

(بَلْ) لمجرد الانتقال من قصة أخرى كذا قيل (زَعَمْتُمْ) أن مخففة من
الثقيلة (أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا) زمانا توعدون البعث إليه أو وقت الوفاء
بوعد البعث وزعمتم أن الأنبياء يكذبون فى ادعاء مجىء البعث .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ) جنس الكتاب ككتاب المؤمن فى يمينه وكتاب
الكافر فى شماله . ويجوز كون المراد الكتاب الواحد الذى كتبت فيه أعمال
الخلق كلهم . ويجوز أن يراد بوضع الكتاب وضع الحساب فكنى عنه والمخالفون
لما أثبتوا ميزان العمود والكفتين أجازوا أن يكون المراد وضع الكتب فى ذلك
الميزان .

(فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ) خائفين قلقين . (مِمَّا فِيهِ) من الذنوب .

(وَيَقُولُونَ) عند معاينة ما فيه : (يَا وَيْلَتَنَا) هذه ندبة كقول القائل :
وارأساه واظهراه . والويل : الهلكة كأنهم نادوا هلكتهم التى هلكوها من بين
الهلكات . والويل مصدر لا فعل له من لفظه . وقيل: فعله وال بمعنى هلك .

(مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ) ما مبتدأ استفهامية استفهام تعجب واللام جارة
لاسم الإشارة محلا وتتعلق بمحذوف خبر .

(لَا يُغَادِرُ) لا يترك من ذنوبنا (صَغِيرَةً) أى خصلة أو فعلة صغيرة
(وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) إلا عدها وأحاط بها .

روى عن ابن عباس أن الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : القهقهة . ولعل مراده
التبسم والقهقهة عند معصية المتبسم أو قهقهته عند المعصية أو معصية غيره أو

حكايته معصيته أو حكاية غيره أو عند مصيبة غيره أو فى المقبرة أو عند الأذان أو فى المسجد أو فى مجالس الذكر أو القرآن .

وقيل : لا يكون شىء من ذلك كبيرة إلا ضحك الإنسان عند معصيته بنفسه

وعن سعيد بن جبير الصغيرة : المس والقبلة ، والكبيرة الزنى . وقال سهل بن سعد: قال رسول الله ﷺ : إياكم ومحقرات الذنوب فإن محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا واديا فجاء كل واحد بعود ما أنضجوا خبزهم وإن محقرات الذنوب لموبقات أى مهلكات .

(وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) فى كتابهم قليله وكثيره وصغيره وكبيره أو وجدوا جزاءه حاضرا حيث كتبت صغائرهم وعوقبوا بها لأنهم لم يجتنبوا الكبائر . وكان الفضيل إذا قرأ : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » قال : ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) أى لا يكتب على أحد ما لم يفعله ولا يعذبه بلا ذنب ولا يزيد فى عقابه على ما أوجبه ذنبه ولا ينقص من ثواب مؤمن .

(وَإِذْ) واذكر يا محمد إذ (قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) اخضعوا له أو اسجدوا له سجود انحناء لا وضع جبهة تحية له أو اسجدوا لله عند آدم أو إلى جهة آدم وذلك كما نسجد إلى الكعبة .

(فَسَجَدُوا) له . (إِلَّا إِبْلِيسَ) استثناء منقطع فإن إبليس ليس من الملائكة لكن لما كان ناشئا فيهم عابدا بعبادتهم مخاطبا بخطابهم حسن استثناؤه ولاسيما أن قوله تعالى : « اسجدوا » شامل له بالقصد والقرينة ولو كان موجها إلى الملائكة .

(كَانَ مِنَ الْجِنِّ) الجملة مستأنفة للتعليل أو حال بدون تقدير قد . وبتقديره

وهو أبو الجن وواحد منهم كما أن آدم أبو البشر وواحد منهم هذا هو الصحيح وعليه الجمهور . وهو قول الحسن ويدل لذلك قوله : وذريته فإن الملك لا ذرية له ولا تطلق عليه ولو بمعنى أتباعه ويدل له أيضا قوله : (فَفَسَقَ) خرج .

(عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) إياه بالسجود فالأمر مصدر أو عن الأمر الذى ألزمه الله من الأمور وهو السجود فليس بمصدر ووجه الدليل من ذلك أن فاء العطف الداخلة على جملة تدل غالبا على أن ما بعدها مسبب عما قبلها فكأنه قيل : فسق عن أمر ربه لأنه من الجن لا من الملائكة ولو كان منهم لم يفسق فإن الملائكة معصومون عن المعصية .

وقال بعضهم عن ابن عباس : إن نوعا من الملائكة يقال له : الجن خلقوا من نار السموم وأنهم المراد هنا وإن إبليس منهم .

وقال بعضهم عن ابن عباس : إنه مَلَك رئيس على الملائكة . ولما خالف الأمر مسخ وطرد وغيِّر وكان شيطانا بالمسخ وحكم بعض أصحابنا بالكفر كفر الشرك على من قال : إنه ملك . وذكر الزمخشرى أن كونه ملكا لم يثبت عن ابن عباس . وقيل : إن الجن اسم للفريق المستتر الذى لا يرى سواء كان من الملائكة أو من الجن القابل للإنس والاستثناء على هذا باق على انقطاعه وعلى القولين قبله متصل .

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ) أى أتعلمون بفسقه عن أمر ربه فتتخذونه بعد ذلك والاستفهام إنكار وتعجيب . (وَذُرِّيَّتَهُ) عطفا على الهاء أى وأولاده . وقيل : أتباعه سماهم ذرية مجازا .

(أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) تطيعونهم من دونى أى تتولونهم بالطاعة من دونى .

(وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) يريدون هلاككم فى الدنيا والآخرة . نفّر الله عز

وجل الناس عن اتباع إبليس بعداوته القديمة بينه وبين أبيهم المتصلة إليهم وذكر قصة إبليس المذكورة بعد ذكر افتخار الكافر بجنته على صاحبه المؤمن تقبيحا لافتخاره بأن الافتخار من صنيع إبليس إذ قال : « أنا خير منه » الخ وفصل بينهما بالتزهيد فى الدنيا بسرعة زوالها ولا تكرر قصة فى القرآن إلا لفكتة وسكن الياء من قوله من دونى غير نافع وأبى عمرو .

(بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ) أ فسهم بالسعى فيما يهلكها وفاعل بئس ضمير مستتر عائد إلى مبهم فسره قوله : (بَدَلاً) وهو تمييز أى بدلا من الله والمخصوص بالذم محذوف تقديره إبليس وذريته .

(مَا أَشْهَدْتُهُمْ) ما جعلتهم شاهدين أى حاضرين . وقرئ ما أشهدناهم تعدى لاثنين بالهمزة والثانى هو قوله : (خَلْقَ) وهو مصدر مضاف لمفعوله وكذا الذى بعد والهاء عائدة إلى إبليس وذريته فكأنه قيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق (السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) أى ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فضلا عن أن أتقوى بهم وأستعين بهم على خلق السموات والأرض وعلى خلق أنفسهم فكيف يكونون أهلا للعبادة مع أنهم ليسوا بخالقين ولا معينين على الخلق وإنما يستحق العبادة الخالق والإشراك فى استحقاق العبادة يستلزم الإشراك فى الخالقية .

وقيل : الهاء فى أشهدتهم وأنفسهم عائدة للمشركين فيكون الكلام على طريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة أى ما أشهدتهم خلق ذلك وما خصصتهم بعلوم لا يعرفها غيرهم حتى لو آمنوا تبعهم الناس كما يزعم عيينة وأمية .

والمتبادر رجوع الهاء إلى إبليس وذريته وقيل : هى عائدة إلى الملائكة

فأما خلق الإنسان فمن التراب بواسطة خلق أبيهم منه وهم من نطفة . وأما الجن فمن نار السموم بواسطة أبيهم الأول وهو إبليس . وقيل غيره وهم بعد الأول من نطفة كبنى آدم بأزواجهم .

قال مجاهد عن الشعبى : إنى لقاعد ذات يوم إذ أقبل جمال أبى صاحب لإبل سائق أو راع فقال : أخبرونى هل لإبليس زوجة ؟ فقلت : إن ذلك العرس ما شهدته يريد أنه لم يتزوج فكنى بنفى حضوره العرس عن عدم وجود العرس وبعدم وجود العرس عن عدم الزوجة قال : ثم ذكرت قوله عز وجل : «أفتتخذونه وذريته» فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة . فقلت : نعم له زوجة .

وقيل : إن إبليس وذريته يدخلون أذنابهم فى أدبارهم فتكون فى أدبارهم بَيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الجن .

وقيل : إن فى الفخذ اليمنى ذكراً وفى اليسرى فرجا فينكح فخذاً بفخذ فيكون البيض المذكور .

قيل : من ذرية إبليس لاقيس وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة يوسوس فيهما والهفاف ومرة وبه يكنى . وزنبور وهو صاحب الأسواق يزين اللغو والحلف الكاذب ومدح السلع . وتبور وهو صائب المصائب يزيّن خمش الوجه ولطم الخد وشق الجيب . والأعور وهو صاحب الزنى ينفخ فى ذكر الرجل وفى عجُز المرأة وقُبُلها ويزيّن المرأة ولو كانت قبيحة حتى تكون أجمل من الجميلة . ومطوس وهو صاحب الأخبار الكاذبة يلقيها فى أفواه الناس لا يجدون لها أصلا . وداسم وهو الذى يدخل مع الإنسان بيته إذا لم يسلم ولم يذكر الله فيبصره ما ترك العيال ولم يرفعوه وما وضعوه فى موضع لا يحسن وما أفسدوا فيخاصمهم ويغلظ عليهم .

قال الأعمش : ربما دخلت البيت ولم أذكر اسم الله ولم أسلم فأرى مطهرة .
فأقول : ارفعوا وأخاصمهم . ثم أتذكر فأقول : داسم داسم .

وقد أخرج الربيـع بن حبيب رضى الله عنه بسنده والترمذى عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : إن للوضوء شيطانا يقال له : الولهان فاتقوا وسواس الماء لكن فى رواية الربيع لبدء الوضوء .

وأخرج البخارى ومسلم عن عثمان ابن أبى العاص قلت : يا رسول الله إن الشيطان قد أحال بينى وبين صلاتى وقراءتى يلبّسها علىّ فقال رسول الله ﷺ : ذلك شيطان يقال له حترب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثا ففعلت فأذهبه الله عنى .

وأما الملائكة فأجسام نورانية خلقهم الله تعالى من حيث شاء أو من نور .
وقد روى أن جبريل ينغمس فى بحـر من نور فينتفض فيخلق الله من رشاشه ملائكة . وروى أنهم يخلقون من الصلاة على رسول الله ﷺ .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ) لغيرهم عن دين الله والمضلون هم المشركون أو إبليس وذريته على الخلاف فى مرجع الهاء المذكورة فيكون من وضع الظاهر موضع المضمر ذمّا لهم واستبعادا لأن يتخذهم الله عضدا وهذا مع مابعده تصريح بنفى اتخاذهم عضدا بعد التلويح إليه بنفى إشهادهم خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم من حيث إن إحضارهم لذلك اعتضاد بهم .

والمعنى : كيف أعتضد لدينى بمن يصد عنه وقد مر أنه قيل : الهاء للمشركين.
ويدل له قراءة بعض وما كنتَ بفتح التاء خطابا لرسول الله ﷺ أى لست تلتفت إلى نصر الدين بهم طمعا فى قولهم : لو أسلمنا لأسلم الناس ولا يصح لك ذلك :

وقرأ علىّ متخذا بالتنوين فيكون المضلين منصوبا على المفعولية وهو الأصل والإضافة تخفيف عنه .

(عَضُدًا) أعوانا فى نصر الدين أو فى خلق السموات والأرض وخلق أنفسهم ، وهذا الوجه الثانى إنما هو على قراءة ضم التاء .

وقرئ بإسكان الضاد تخفيفا . وقرأ الحسن بنقل ضمتها إلى العين فتكون ساكنة تخفيفا .

وقرئ عضدا بضم العين والضاد وبفتحتين جمع عاضد كخادم وخدم وراصد ورصد من عضده إذا قواه .

(وَيَوْمَ) أى واذكر يوم . (يَقُولُ) الله عز وجل للكافرين وقرأ حمزة نقول بالنون .

(نَادُوا) هذا أمر . (شُرَكَائِىَ) أضاف الشركاء لنفسه على زعمهم توبيخا وتقريعا .

(الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أى زعمتم أنهم شركائى أو أنهم شفعاء يمنعونكم من العذاب والمراد ما عبدوا من دون الله . وقيل : إبليس وذريته أو هو وأتباعه فإن المشركين زاعمون بعبادتهم أنهم شركاء لله إذ عبدوهم كما يُعبد الله .

(فَدَعَوْهُمْ) هذا إخبار أى نادوهم استغاثة بهم .

(فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) لعدم حضورهم فكأنه قيل : فلم يجدوهم فى تلك الحال فضلا عن أن يستجيبوا لهم بالغوث وسيقرنون بهم فى النار أو غابوا عنهم فدعوهم فحضروا فلم يستجيبوا لهم لأنهم لا طاقة لهم أن يدفعوا عن أنفسهم فضلا عن أن يدفعوا عن غيرهم .

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ) بين المشركين وشركائى الذين زعموهم شركاء لى وهم

الأوثان أو إبليس وذريته أو إبليس وأتباعه . وقيل : أهل الهدى وأهل الضلال . ويناسبه إجازة الزمخشري أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم وعابديهم .

(مَوْبِقاً) اسم مكان من وبق يبق أى هلك أى مكان الهلاك جعلوا مشتركين فيه وهو النار وهلاكهم هو العذاب الشديد .

وقال ابن عباس : هو واد من أودية النار كان بينهم شركة يجمعون فيه للعذاب .

وقيل : نهر يسيل نارا على حافته حيات وعقارب مثل البغال الدهم .

ويجوز أن يكون مصدرا ميميا وهو مقتضى قول الحسن : موبقا عداوة من وبق إذا هلك فشبه العداوة بينهم لشدتها بالهلاك فسماها باسمه ، أو سمى السبب وهو العداوة باسم المسبب وهو الهلاك فإن العداوة فى الجملة سبب للهلاك ، أو سمى الملزوم باسم اللازم أو هو من مجاز الأول كقوله تعالى : « إنى أرانى أعصر خمراً » جعلنا بينهم عداوة تئول إلى عذاب شديد كأنه هلاك وتلف كقول عمر : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . أى لا يكن حبك حبا شديدا كالشىء المكتسب المبالغ فيه بل أحبب هَوْناً ما أو لا يكن حبك يجر إلى التكلف ولا يكن بغضك يجر إلى التلف لشدته بل أبغض هوناً ما .

وقال الفراء : أبين الوصل أى جعلنا وصلهم فى الدنيا هلاكا يوم القيامة فيكون بينهم مصدرا مضافاً للفاعل بخلاف تفسير غيره فإنه ظرف وإذا جعلنا المضمر فى قوله بينهم عائدا إلى أهل الهدى وأهل الضلال أو إلى الملائكة وعيسى وعزير ومريم وعابديهم فالموبق المسافة البعيدة لأن المؤمنين فى مكان أعلى وهو الجنة والكفار فى مكان أسفل هو النار .

(وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ) أى المشركون والمنافقون . (فَظَنُّوا) أيقنوا .
(أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا) ملابسوها بالوقوع فيها .
(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) مصدر ميمى أى انصرافا عن الوقوع فيها أو اسم مكان أى موضع انصراف وهو من الصرف اللازم بمعنى العدول عن الشىء .
وإنما لم يجدوا عنها مصرفا لأنها أحاطت بهم بعنقها الخارج إليهم منها أو لأن الملائكة تسوقهم إليها .
ويجوز أن يقدر محذوف أى فظنوا أنهم مواقعوها فواقعوها فلم يجدوا أن يخرجوا منها لإحاطتها بهم من كل جانب بعد وقوعهم فيها ، أو لأن الملائكة تردهم إليها إذا أرادوا أن يخرجوا منها وعنها حال من مصرفا أو يتعلق به إذا جعل مصدرا ميميا ولو صلح أن ينحل افعل وحرف مصدر للتوسع فى الجر والمجرور والظرف بالتقديم والفصل .
(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) بينا . (فِى هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ) ومفعول صرفنا محذوف أى صرفنا فى هذا القرآن للناس مايحتاجون إليه من كل مثل فمن للتبعيض متعلقة بمحذوف حال من المفعول ويجوز أن تكون للبيان أى ما يحتاجون إليه وهو حقيقة كل مثل والمثل هنا النوع .
(وَكَانَ الْإِنسَانُ) الجنس الكافر . وقال ابن عباس : أراد النضر بن الحارث لأنه يجادل فى القرآن . وقيل : أبىّ بن خلف .
(أَكْثَرَ شَىْءٍ) يمكن منه الجدل بالباطل كالجن وأما ما لا يمكن منه فلا يدخل فى الكلام لأن التفضيل إنما يكون بين مشتركين فى صفة .
(جَدَلًا) خصومة بالباطل وهو تمييز ويجوز أن يراد بالإنسان الكافر وغيره وما جدل الجدل بالباطل وغيره بمعنى أنه أكثر خصومة فتدخل الملائكة فى لفظ

شىء لأنهم قد قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » فإنها جدل عاتبهم الله عليه فيما قيل ولا نقول : إنه جدل معصية هذا ما ظهر لى من جواز إرادة العموم فى الإنسان والجدل ثم رأيت الخازن قال : وقيل : إن الآية على العموم وهو الأصح .

روى البخارى ومسلم عن علىّ ابن أبى طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمةَ بنت رسول الله ﷺ ليلا فقال : ألا تصليان فقلت : يارسول الله أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء بعثنا فانصرف رسول الله ﷺ حين قلت ذلك ولم يرجع إلىّ شيئاً حتى سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول : وكان الإنسان أكثر شىء جدلا .

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ) أراد الحقيقة الصادقة بالأكثر أو يقدر مضاف أى وما منع أكثر الناس وأراد الكفار أو كفار مكة .

(أَنْ يُؤْمِنُوا) أى من أن يؤمنوا .

(إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى) وهو رسول الله ﷺ والقرآن والوحى . وتسمية ذلك هدى مبالغة فى اتصاف ذلك بتسببه فى الاهتداء حتى إنه نفس الهدى أو الهدى الإرشاد بذلك أعنى برسول الله ﷺ والقرآن والوحى وإذ متعلق بمنع أو بيؤمنوا .

(وَيَسْتَغْفِرُوا) معطوف على يؤمنوا أى ومن أن يستغفروا (رَبَّهُمْ) من ذنوبهم كأنه قيل : وما منع الناسَ من الإيمان والاستغفار ولك أن لا تقدر من فيكون المصدران مفعولين لمنع لكن ثانيهما بواسطة العطف وهو مصدر يستغفروا فإن منع يجوز تعديه لاثنين والأول الناس .

(إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ) فاعل منع فى تأويل المصدر .

(سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) هذه الإضافة بمعنى فى أو لام الاستحقاق ويقدر مضاف آخر بل الاثنان أى إلا طلب إتيان مثل سنتنا فى الأولين أو انتظار إتيان مثل سنتنا أو تقدير إتيان مثل سنتنا فى الأولين وهو عذاب الاستئصال .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ) عذاب الآخرة أو عذاب يوم بدر .

(قُبُلا) وقرأ الكوفيون قبلا بضمتين وقرئ بفتحتين وهما لغتان فيه ومعنى الثلاثة واحد وهى المعاينة والمقابلة وهن مصادر والنصب على المفعولية المطلقة أى إتيان مقابلة لحذف المضاف أو يضمن يأتى معنى يقابل أو حال مبالغة أو بالتأويل بالوصف أو بتقدير مضاف أى ذا قُبل وذوى قُبل صاحب الحال العذاب أو الهاء فى يأتيهم .

ويجوز فى قراءة الكوفيين كونه جمع قبيل كرسول ورسل ونذير ونذر فيكون حالا من الهاء ومعناه أنواع .

وزعم بعض أن معنى قبلا بكسر ففتح أو فتحتين أو ضمتين فجاءة وليس ذلك المنع جبرا لولا هم قاصدين إتيان سنة الأولين أو إتيان العذاب قبلا ولكن المعنى أنه قد أوضح الله عز وجل لهم ما يأتون وما يذرون وزال عذرهم وبقى أن تأتيهم سنة الأولين أو العذاب قبلا ثم جعلوا كأنهم عالمون بإتيان سنة الأولين أو العذاب وأن انتظار ذلك هو المانع لوضوح الأمر ويقدر لفظ قبلا لتأتى الأول أو يجعل المذكور له ويقدر مثله ليأتى .

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ) للمؤمنين بالجنة ورضى الله سبحانه وتعالى .

(وَمُنْذِرِينَ) مخوفين للكافرين والمنافقين بالنار وسخط الله .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ) كطلب الآيات تعنتا بعد ظهور المعجزات

وكالسؤال عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح وقولهم : « أبعث الله بشراً رسولا » وقولهم : « ما أنتم إلا بشر مثلنا » ونحو ذلك .

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) أى ليزيلوا بالجدال أو بالباطل القرآن والوحى عن مقرها ويبطلوهما ، من قولك : دحضتْ قدمه أى زلقت وأدحضها أزلقها عن موطئها .

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِي) أى القرآن .

(وَمَا أُنْذِرُوا) ما اسم موصول والرابط مفعول ثان محذوف أى وما أنذروا وهو العقاب بالنار والأول هو الواو فإن أنذر قد يتعدى لاثنين ويجوز تقديره مجروراً بالباء على القلة أى وما أنذروا به وهو العقاب بالنار .

وإنما قلت على القلة لأن الموصول لم يجر بالباء ولم يكن عاملاهما مستويين معنى ولفظاً أو معنى .

ويجوز كون ما مصدرية فلا يحتاج لربط أى واتخذوا آياتى وإنذارهم .

(هُزُوًا) استهزاء وهو المفعول الثانى لاتخذ .

ويجوز كون ما نافية وهزوا مفعولا ثانيا ومفعول اتخذ الثانى محذوف أى واتخذوا آياتى هزوا وما أنذرناهم بأمر يحق أن يستهزأ به بل بأمر عظيم حق يجب أن يتأهبوا له فتكون الواو للحال كذا ظهر لى أنه يجوز وما مر أولى لسلامته من الحذف .

وقرئ هزوا بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به وليس ذلك قراءة لحمزة وخلف إلا فى رواية ضعيفة ولذلك لم يذكرها أبو عمرو والدانى ولذلك ذكرها القاضى غير منسوبة إليهما ولو صحت عنهما عنده لأسندها إليهما .

(وَمَنْ أَظْلَمُ) الاستفهام إنكارى أى لا أظلم لنفسه .

(مِمَّنْ ذُكِّرَ) وعظ .

(بِآيَاتِ رَبِّهِ) القرآن (فَأَعْرَضَ عَنْهَا) لم يتذكر بها فلم يؤمن .

(وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) من الكفر والمعاصى ولم يتفكر فى عاقبتهما وفى أن المحسن والمسىء لابد لهما من جزاء والنسيان نسيان ترك وعدم مبالاة لا زوال عن الحافظة لأنهم يتذكرون كثيرا مما عملوا ويحفظون كثيرا إلا أن يشبه عدم المبالاة به بنسيانه . وأسند التقديم لليدين لأن أكثر الأعمال فى الجملة باليدين فأسند التقديم إليهما ولو فيما هو فعل قلب أو حاسة أو جارحة أخرى .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) جمع كنان أى غطاء جمع قلة بوزن أفعلة أصله أكننة نقلت كسرة النون الأولى للكاف وأدغمت النون فى النون والمراد الكثرة وليس جبرا على المعصية وعن أن يفقهوا القرآن سبحان الله وتعالى بل خذلان لسوء اختيارهم لأنفسهم كما يقول : « وطبع على قلوبهم » أى خذلوا . والجملة مستأنفة لتعليل قوله : أعرض وقوله : نسى وضمير الجماعة فى قوله على قلوبهم وما بعده عائدة إلى مَن نظراً لمعناها من عدد الأفراد لا نظراً للفظها .

(أَنْ يَفْقَهُوهُ) أى عن أن يفقهوه أو من أن يفقهوه لتضمن أكنة معنى موانع أولئك أن يفقهوه فحذفت لام التعليل ولا النافية وفيه تكلف . وأولى منه أن يجعل مفعولا لأجله على حذف مضاف أى كراهة أن يفقهوه ومعنى يفقهوه يعلموه والهاء عائدة إلى آيات ربه وذكرت وافردت لأنها بمعنى القرآن .

(وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) صمما يمنعهم أن يستمعوه حق استماع وهو الاستماع الموصول للقلب المترتب عليه العمل بمقتضى المسموع وفى آذانهم معطوف على قوله : على قلوبهم ووقراً معطوف على أكنة عطف معمولين على معمولى عامل .

(وَإِنْ تَدْعُهُمْ) يا محمد (إِلَى الْهُدَى) الحق والقرآن والوحي .

(فَلَنْ يَهْتَدُوا) أى لن يطاوعوكم فيما دعوتموهم إليه لجعل الأكنة على قلوبهم والوقر فى آذانهم .

(إِذًا) جواب لدعائه صلى الله عليه وسلم إياهم وجزاء له على تقدير قوله : ما لى لا أدعوهم فإن حرصه على إيمانهم يدل عليه .

(أَبَدًا) تحقيقاً لا تقليداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون لجعل الأكنة والوقر المذكورين وذلك فى أقوام علم الله أنهم لا يؤمنون .

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ) البليغ المغفرة كثرة وعظما .

(ذُو الرَّحْمَةِ) المتصف برحمة الدنيا والآخرة .

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ) فى الدنيا . (بِمَا كَسَبُوا) من الذنوب .

(لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) فى الدنيا ألا ترى يا محمد كيف أصرت قريش على الكفر وعداوة الرسول والقرآن والوحى فلم أعجل لهم العذاب واللام فى لهم بمعنى إلى أو للاستحقاق .

(بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ) وعد أو زمان يوعدون إليه أو مكان يوعدون أن يعذبوا فيه فموعد مصدر أو اسم مكان أو زمان وذلك وعد بدر أو وقته أو بدر أو وعد القيامة أو زمانه أو مكان يحشرون إليه من الموقف وهو النار واللام للاستحقاق ولهم خبر وموعد مبتدأ أى لهم موعد للعذاب أو لعذابهم موعد .

(لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا) منجى أى نجاة أو مكان نجاة أو زمانها يقال : وأل بهمزة مفتوحة أى نجا . ويقال : وأل إليه كذلك أى التجأ فكأنه قيل ملجأ أى التجاء أو مكانه أو زمانه والهاء فى من دونه راجعة لموعد . والجملة نعت موعد .

(وَتِلْكَ الْقُرَى) قرى عاد وثمود ونحوهم. القرى نعت تلك أو بيانه أو بدله كما لا يخفى. وتلك مبتدأ خبره (أَهْلَكْنَاهُمْ) أو منصوب على الاشتغال بمحذوف يفسره أهلكناهم.

وإن قلت: كيف صح الإخبار بأهلكناهم أو الاشتغال فيه مع أن الهاء فيه ليست لتلك القرى ؟

قلت : الهاء لتلك القرى على أن تلك القرى بمعنى الناس الساكنين فيها تسمية للحالّ باسم المحل ولأحد المتجاورَيْن باسم الآخر أو يقدر مضاف أى وأهل تلك القرى قبل . أو التقدير : وتلك أهل القرى على أن أهل بدل لتلك وبيان فحذف فناب عنه المضاف إليه وزاد بوجه آخر هو النعت .

(لَمَّا ظَلَمُوا) أنفسهم بالشرك والمعاصى كما ظلمت قريش أنفسها بذلك .

(وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ) مصدر ميمى من أهلك أى لإهلاكهم أو زمان أو مكان أى لموضع إهلاكهم أو زمانه ويدل للمصدر قراءة أبى بكر هنا كالنمل بفتح الميم وإبقاء اللام على الفتح بعد الهاء فإنه لما فتح اللام كالميم على أنه من هلك على أنه مصدر لأن المصدر من يفعل بكسر العين كيهلك قياسه الفتح كما قال ابن مالك : فى غير ذا عينه افتح مصدرا .

وقرأ حفص هنا والنمل بفتح الميم وكسر اللام شذوذا لأن القياس فتح اللام لأنه مصدر من هلك يهلك .

ويحتمل أن يكون اسم مكان أو زمان فلا يشذ الكسر لقول ابن مالك : وسواه اكسر .

(مَوْعِدًا) أى موعدا لمهلكهم لا يتخلف بتبديل ولا تأخير ولا تقديم فاعتبروا بهم ولا تغتروا بالإمهال فإذا جعلنا المهلك مصدرا فالموعد مصدر

أو مكان أو زمان وإذا جعلناه مكاناً أو زماناً فالموعد مصدر كهلك جعل أحدهما مكاناً والآخر زماناً والزمان أنسب بالسياق السابق لأن الكلام مسوق لعدم التعجيل وقد فسر مجاهد الموعد بالأجل وهو زمان .

(وَإِذْ) واذكر إذ (قَالَ مُوسَىٰ) هو ابن عمران أخو هارون نبي بني إسرائيل صاحب التوراة على نبينا وعليهما الصلاة والسلام .

روى الحسن بن حماد عن سعيد بن جبير أنه جلس عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم : إن نوفل يزعم عن أبيه كعب أن موسى الذي طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا من ولد يوسف بن يعقوب تنبأ قبل موسى ابن عمران قال ابن عباس: كذب حدثني أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ تسليما أنه موسى بني إسرائيل أخو هارون انتهى بالمعنى .

وذكر البخاري ومسلم عن سعيد بن جبير قلت لابن عباس: إن نوفل البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى أخا هارون فقال: كذب عدو الله حدثنا أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إنه موسى أخو هارون انتهى بالمعنى وهو الحق. ويدل له أن الله عز وجل لم يذكر في القرآن موسى إلا أراد به أخا هارون صاحب التوراة ولو أراد به هنا غيره لميزه .

وفي رواية : إن سعيد بن جبير قال لابن عباس : إن نوفل ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى بن عمران بل هو موسى بن ميشا فقال : كذب عدو الله انتهى .

قيل : سبب قول من قال : إنه ليس موسى بن عمران أن موسى بن عمران أعلم أهل زمانه وأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه

فى أبواب الدين ونقول : لا بدع فى أن يأخذ نبى عن نبى وإنما الذى لا يتصور هو أن يأخذ عن غير نبى ما هو من أمر الدين .

وإن قيل : إن الخضر ليس نبيًا كما هو مذهب أكثر أهل العلم لم يرد علينا لأن الله سبحانه هو الذى أمره بالاجتماع مع الخضر ووصفه له بالعلم وأوحى إليه أنه أعلم منك .

وأيضاً علم الخضر علم الباطن وعلم موسى علم الظاهر فلم يتخذ فلم يمتنع أن يكون واحد من الأمة أعلم من نبيها فى غير العلم المقصود به نبيها ثم إن الخضر إن كان من بنى إسرائيل فهو من أمة موسى إذا قلنا بقول الأكثر : إنه غير نبى ولا يكون أحد من الأمة أفضل من نبيها ولو اختص بشىء عنه وإن لم يكن من بنى إسرائيل فقد قال الله تعالى لبنى إسرائيل : «وأنى فضلتكم عن العالمين» أى عالمى زمانكم .

(لِفَتَاهُ) يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف على الأصح وهو ولى عهد موسى بعد موته وإنما سماه فتى له لأنه كان يتبعه يخدمه ويأخذ منه العلم .

وقيل : فتاه هو أخو يوشع .

وقيل : فتاه : عبده . قال رسول الله ﷺ : ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل : عبدى وأمتى .

ويدل للأول ما رواه البخارى ومسلم عن سعيد بن جبير قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى إسرائيل فقال ابن عباس : كذب عدو الله حدثنى أبىّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب

الله عليه إذ لم يرد العلم إليه أى إذ لم يقل : الله أعلم أكان أحد أعلم منى أم لا فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟

فقال : تأخذ معك حوتا فتجعله فى مكتل وهو الزنبيل . وقيل : الزنبيل : الذى يسع خمسة عشر صاعا . وأقول : هو متاع يعمل من الخوص ونحوه يحمل فيه التراب ونحوه .

وروى : تجعله فى متاعك فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ فأخذ الحوت فجعله فى مكتل فانطلق ومعه فتاه يوشع بن نون ففسر الفتى بيوشع .

وروى الحسن بن حماد عن سعيد بن جبير : جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب . فقال بعضهم : يا ابن عباس إن نوفل بن كعب يزعم عن كعب أن موسى النبى الذى طلب العلم إنما هو موسى بن ميشا . قال ابن عباس : كذب حدثنى أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ تسليما أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه . قال: يا رب إن كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال : نعم فى عبادى من هو أعلم منك وهو الخضر فأذن له فى لقائه .

وروى هارون بن عبيدة عن أبيه عن ابن عباس قال : سأل موسى ربه ال : يا رب أى عبادك أحب إليك ؟

قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى .

قال : فأى عبادك أقضى ؟

قال : الذى يقضى الحق ولا يتبع الهوى .

قال : فأى عبادك أعلم ؟

قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

فقال : فهل فى الأرض أعلم مني ؟

قال : نعم .

قال : يارب من هو ؟

قال : الخضر .

قال : فأين أطلبه ؟

قال : اطلبه على الساحل عند الصخرة التى ينقلب عندها الحوت حيًّا فتزوَّد سمكا مملحا وخبزاً تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو ثَمّ .

وروى عن العوفى عن ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر فأنزل الله سبحانه عليه أن ذكِّرهم بأيام الله فخطب قومه وذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من عدوهم واستخلفهم فى الأرض وقال : كلم الله نبيكم تكليما واصطفاه لنفسه وألقى عليه محبة منه وآتاكم من كل ماسألتموه فنبيكم نبى أهل الأرض وأنتم تقرأون التوراة فلم يترك نعمة أنعم الله عليهم بها إلا ذكرها .

فقال له رجل من بنى إسرائيل : قد عرفنا الذى تقول فهل على وجه الأرض أعلم منك ؟

قال : لا . فعاب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله فبعث الله إليه جبريل عليه السلام فقال له : يا موسى يقول الله لك : يا موسى ما يدريك أين أضع علمى ؟ إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك .

فسأل موسى الله أن يريه إياه فأوحى الله إليه : أن ائت البحر فإنك تجد على شاطىء البحر حوتا فخذه وادفعه إلى فتاك ثم الزم شاطىء البحر فإذا نسيت الحوت

وذهب منك ثم تجد العبد الصالح فذهب فأخذ الحوت وملحه ودفعه لفتاه ولزما شاطىء البحر يمشيان يوماً وليلة .

وروى أنه لما خطبهم وذكرهم بالنعم وقع فى قلبه أنه لا أعلم منه . فعاب الله عز وجل عليه فكان ذلك .

وروى: أنه لما فرغ من الخطبة مضى فاتبعه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ فقال : لا . فعاب الله عليه وقال : عبدى الخضر أعلم منك فأذن له فى لقائه .

وعن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : ذكّر موسى الناس يوما حتى فاضت العيون ورقّت القلوب ثم ولى فأدركه رجل فقال : يا رسول الله هل فى الأرض أعلم منك ؟

قال : لا . فعاب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه سبحانه وتعالى وقال : بلى .

قال موسى : أى ربى أين هو ؟

قال : بمجمع البحرين خذ حوتا ميتا فحيث ينفخ فيه الروح فهو ثَمّ .

وفى رواية : تزوّد حوتا مالحا فإنه حيث تفقد الحوت ففعل ذلك. وقال لفتاه كما قال الله :

(لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ) خبر أبرح محذوف أى لا أبرح أسير أو لا أبرح سائراً لدلالة حاله وهو السفر عليه ولدلالة حتى فإنها تستدعى المغيّا .

ويجوز أن يكون من برح الذى لا خبر له . والأول معناه لا أزال أفعل كذا والثانى معناه لا أزول عن السير والطلب ولا أفارقهما .

ويجوز على الوجهين أن يقدر مضاف أى لا يبرح مسيرى موجودا أو عن الوجود فكأن الفعل بياء الغيبة لأن المسير ظاهر والظاهر من قبيل الغيبة ولما حذف وناب عنه المضاف وهو ياء المتكلم كان الفعل بهمزة التكلم .

(مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) موضع الجمع بين البحرين أى الموضع الذى جمع الله فيه بين البحرين هو أيضاً الموضع الذى أراد أن يجتمع فيه موسى والخضر ومجمع اسم مكان على القياس .

وقرئ بكسر الميم الثانية على خلاف القياس كالمشرق والمطلع بكسر الراء واللام . والبحران : بحر فارس والروم مما يلى المشرق قاله قتادة وهو المشهور .

وقال محمد بن كعب : بحر طنجة . ويبحث بأنه لا بحر يومئذ عند طنجة وإنما كان عندها فى زمان ذى القرنين بعد ذلك . أخرجه إليها ذو القرنين من بحر الشام ليفصل به بين أهل الأندلس وأهل السوس وكانوا يضرون أهل الأندلس إلا إن صح أن مخرجه هو رجل يسمى ذا القرنين كان فى زمان إبراهيم لا ذو القرنين المتأخر . وعليه فالله سمى الموضع مجمع البحرين لأنه سمى ما يلى السدين اللذين بناهما ذو القرنين هناك مما يلى الجزائر بحرا وما يليهما مما يلى السوس بحرا ولكن أحد السدين اخترقه الماء والآخر باق إلى الآن فيما أظن .

وذكر القزوينى أن فى آخر الأندلس مجمع البحرين الذى ذكر الله سبحانه فى القرآن وأن عرض مجمع البحرين ثلاثة فراسخ وطوله خمسة وعشرون فرسخاً اه وقلبى مائل إلى هذا وإلى الفضائل المنسوبة إلى الأندلس كلها .

وقيل : بحر أفريقية : ونسب هذا القول لأبى بن كعب .

وقيل : البحران : موسى أخو هارون وموسى الخضر فموسى أخو هارون بحر العلم الظاهر وموسى الخضر بحر العلم الباطن فكأنه قال : لا أبرح حتى أبلغ موضعاً نجتمع فيه أنا والخضر . وعندى أن هذا وأضرابه لا يجوز القول به وأراه باطلا .

(أَوْ أَمْضِيَ) أسير أو أثبت فى السير ولا أنفك عنه والعطف على أبلغ أو على مجمع أى أو أبلغ مضىّ حقب . (حُقُبًا) ظرف أى زمانا طويلا فإذا مضيت حقباً ولم أجد المطلوب رجعت .

وقال ابن عمر : الحقب : ثمانون سنة .

وقال مجاهد : سبعون .

وقيل : سنة .

وقيل : مائة وهو مفرد .

(فَلَمَّا بَلَغَا) موسى وفتاه (مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا) أى مجمع بين البحرين وإضافة مجمع إلى الظرف وهو بين إنما هى اتساع وذكر بين إنما هو تأكيد والأصل : فلما بلغا مجمعهما أى مجمع البحرين ولك أن تقول إضافة بيان وإضافة عام لخاص وإن بين هنا ليس ظرفا بل مصدر بمعنى الوصل وأن تقول مجمع مصدر وبين ظرف أو مصدر بمعنى الفصل .

(نَسِيَا حُوتَهُمَا) فمضيا ولم يحمله يوشع كعادته ولم يخطر ببال موسى فيقول له : هل حملته فالنسيان واقع عَلَى نفس الحوت وكذا إن قلنا : إن يوشع نسيه ورآه موسى متروكا فى موضعهما أو مصدوما من محمله أو نسيا أن يذكر فيه يوشع .

وقيل : نسى موسى أن يطلبه ويتعرف حاله ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر .

وقيل : الناسى يوشع وأضيف النسيان إليهما لأنهما تزوداه لسفرهما وقيل : حكم على المجموع لا على الجميع .

وقيل : نسيا أمر حوتهما وهو أنه حيث يفقد فثَمّ الخضر . والمعنى : أن هذه

العلامة التى نصبها الله الرحمن الرحيم له لم تخطر بباله حين بلغا المجمع . ويجوز أن يكون النسيان الترك فليس مقابل الحفظ لكنه على غير عمد كما تقول : زيد حيوان وتريد من جملة الحيوان الناطق .

(فَاتَّخَذَ) الحوت بعد أن حيي وانقلب إلى البحر . (سَبِيلَهُ) مفعول أول .

(فِي الْبَحْرِ) متعلق باتخذ أو بمحذوف حال من سبيل أو من المفعول الثانى وهو قوله : (سَرَبًا) .

ويجوز كون اتخذ متعديا لواحد وسربا حال من سبيل وهو مسلك يسلكه من مشى فيه ولا يغرق لأن الله سبحانه أمسك الماء عن موضع سلوكه وكان واسعا وعاليا بقدر ما يمشى فيه الإنسان ولم يلتم كما رواه كعب عن رسول الله ﷺ فيجوز أن يكون السرب بمعنى الموضع المجوف المستطيل كما يحفر فى الأرض غير جهة السفل . روى عن ابن عباس : اضطرب الحوت فى الطين وتسحّب حتى وقع فى الماء وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا ييبس حتى صار صخرة .

وعن ابن عباس عن أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : لما انتهيا إلى الصخرة وضعا رأسيهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل وخرج منه فسقط فى البحر واتخذ سبيله فيه سربا .

وعن قتادة : رد الله تعالى على الحوت روحه فخرج من المكتل حتى أفضى إلى البحر فجعل لا يسلك مكانا إلا صار جامدا طريقا يبسا .

وعن الكلبى : توضأ يوشع بن نون من عين الحياة عند الصخرة ولا علم له بأنه عين الحياة فانتضح على الحوت فى المكتل ماء من ذلك فحيى فخرج منه حتى وقع فى البحر فكان يضرب بذنبه فى الماء وهو يجرى ولا يضرب شيئا إلا تيبس .

قال عبد الرحمن بن زيد : أى شىء أعجب من حوت كان دهرا من الدهور يؤكل منه ثم صار حيا وكان شق حوت لأنه أكل نصفه وأهل ذلك البحر يرونه ويصطادونه ويتبركون به وكان مشويا وذلك معجزة لموسى أو الخضر .

قال أبو حامد الأندلسى : رأيت سمكة تعرف بنسل الحوت فى مدينة سبتة وهو الحوت الذى صحبه موسى ويوشع حين سافرا فى طلب الخضر طولها ذراع وعرضها شبر وترى نصفا بجنب واحد ونصف رأس وعين واحدة من رآها من الجانب المأكول استقذرها ومن رآها من الجانب الصحيح أعجبته جدا والناس يتبركون بها ويهدونها إلى الرؤساء ولا سيما اليهود .

وعن محمد بن كعب : سار إلى الصخرة التى دون نهر الزيت وعندها عين تسمى عين الحياة لا يصيب ذلك الماء شيئا إلا صار حيا فلما أصاب السمكة دوى الماء وبرده ورشاشه اضطربت فى المكتل وحييت ودخلت فى البحر .

(فَلَمَّا جَاوَزَا) موسى وفتاه مجمع البحرين (قَالَ) موسى . (لِفَتَاهُ) يوشع بعد ماسارا من مجمع البحرين يوما وليلة وروى الليلة والغداة إلى الظهر . (آتِنَا) اجعل (غَدَاءَنَا) آتيا أى حاضرا وهو الخبز والحوت المملح والغداء ما يتغدى به ولذلك قيل : سارا إلى وقت الغداة من ثانى يوم وأنه أول النهار كالعشاء لما يؤكل آخر النهار عشية أو فى أوائل الليل .

(لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَٰذَا) بدل أو بيان أو نعت لسفرنا .

(نَصَبًا) مفعول لقينا وهو التعب قيل : لم ينصب حتى جاوز الجمع ولما جاوزه إلى غد وغدا وظهره ألقى عليه الجوع والنصب قيل: لم يَعْيَ موسى ولم يجع فى سفر غير هذا ويؤيده قوله هذا بعد قوله : فى سفرنا . والمراد بسفرنا هذا سفره من عند الصخرة . وقيل : سفره من بلده إلى وقت قوله ذلك .

قيل : لموسى خمسة أسفار : سفر الهروب قال : ففررت منكم لما خفتكم . وسفر الطرب قال الله تبارك وتعالى : فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها . وقال : نودى من شاطىء الوادى الأيمن . وسفر الطلب قال الله سبحانه وتعالى : فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون وسفر العجب قال الله عز وجل : محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض . وسفر النصب قال الله جل وعلا : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . ألقى الله عليه الجوع ليطلب الغداء فيرجع إلى موضع مطلبه .

(قَالَ) فتاه (أَرَأَيْتَ) انتبه أو أخبرنى ما أصابنى . (إِذْ أَوَيْنَا) ملنا . (إِلَى الصَّخْرَةِ) وضممنا أنفسنا إليها وهى صخرة المجمع التى رقدا عندها . قيل : هى الصخرة التى دون نهر الزيت كما رأيت وإذ متعلقة بمحذوف أى ما أصابنى إذ أوينا إليها .

(فَإِنِّى) الفاء للتعليل أو رابطة لمحذوف . قلت : ما بالك فإنى . (نَسِيتُ الْحُوتَ) عند الصخرة أى فقدته أو قد رأيت انقلابه حيا ورجوعه فى البحر فنسيت أن أذكر ذلك لك قيل : لما رأى ذاك قام ليخبر موسى فنسى حتى سار إلى ظهر غد وصليا الظهر .

(وَمَا أَنْسَانِيهُ) أى الحوت تعدى نسى إلى الاثنين بالهمزة أى ماصيرنى ناسيا إياه (إِلَّا الشَّيْطَانُ) ليوسوس لى وليس تصييره ناسيا خلق النسيان فيه ؛ فإن الخالق الله لا سواه ولكن المعنى : ما نسيت فى نسيانى إياه إلا الشيطان وسواسه .

(أنْ أذْكُرَهُ) أتفكر فيه فأجده مفقوداً فأخبر موسى بفقده لأن فقده دليل المطلوب أو أن أذكر أمره لموسى وهو انقلابه حيا إلى البحر . وقد قرئ أن أذكركه .

وقرأ ابن مسعود : أن أذكره له وأن مصدرية والمصدر بدل اشتمال من هاء الإنسانية .

وقرأ حفص: وما أنسانيه بضم الهاء كما قرئ بضمها فى سورة الفتح فى قوله تعالى : « عليه الله » فإنه ضم هاء عليه .

ووجه قوله : أرأيت أنه لما طلب موسى الحوت ليتغدى ذكر يوشع ما رأى من أمر الحوت أو ذكر نسيانه إلى تلك الغاية وهى ظهر الغد أو غدوه فدهش فطفق يسأل موسى: ما أصابنى حتى نسيت ذلك ثم رجع على نفسه فقال: ما أنسانيه إلا الشيطان .

وإن قلت : كيف نسى الأمر العظيم من انقلاب حوت مشوى مأكول نصفه مضى عليه زمان مجعول فى المكتل حتى مضت تلك المدة مع ما جعل لهما من أمره أمارة على المطلوب الذى سافرا من أجله ؟

قلت : اعتاد مشاهدة أمثال ذلك من العجائب وأكبر منها عند موسى واستأنس بهن فأعانه ذلك على قلة الاهتمام فتأثرت فيه وساوس الشيطان فاعتذر بإنساء الشيطان إياه أو لما رأى ذلك استغرق فى التفكر فى كمال قدرة الله سبحانه وتعالى .

وعلى هذا الوجه الأخير إنما نسب الإنسان إلى الشيطان هضما لنفسه بأنه لا يقوى على الشيطان فى الجملة أو لأن عدم جمعه بين التفكر فى كمال قدرة الله جل وعلا وذكر أمر الحوت معدود من النقصان البشرى .

(وَاتَّخَذَ) الحوت . (سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) مثل « واتخذ سبيله فى البحر سربا » أى اتخذ الحوت سبيله فى البحر سبيلا يحار فيه الناظر حتى إن ذلك السبيل نفس العجب مبالغة أو عجبا بمعنى معجوب به أو ذا عجب أى يتعجب منه الناظر وذلك من كلام الله سبحانه وتعالى معترض بين كلام يوشع وكلام موسى قيل: كان المسلك للحوت سربا ولموسى عجبا .

وأجاز القاضى أن يقدر اتخاذاً عجباً على المفعولية المطلقة وهو وجه كريم .

وقيل : اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا بعد رجوعهما إلى الصخرة أى اتخذه سبيلا عظيما يوصله إلى الخضر أو اتخذه اتخاذاً عجباً أو اتخذه حال كونه متعجبا منه على أن عجبا حال من المستتر العائد إلى موسى .

ويجوز أن يكون تم كلام يوشع فى قوله : « فى البحر » ثم زاد يوشع قوله : عجبا مفعولا مؤكداً للجملة وعامله محذوف أى أعجب عجبا وأن يكون قوله عجبا من كلام موسى أى قال موسى عجبا .

وإن قلت : كيف صح أن يكون المعنى : اتخذ موسى سبيل الحوت فى البحر عجبا ولما يرجع إلى المجمع ؟

قلت : المراد عند صاحب هذا القول أنه فعل ذلك بعد الرجوع وأن قوله : « فارتدا على آثارهما » لا ينافيه جواز الإخبار عن شىء متأخر قبل الإخبار عن شىء متقدم ولكن غير هذا القول أولى .

(قَالَ) موسى (ذَٰلِكَ) أى نسيان الحوت أو ما قصصت علىّ يا يوشع من انقلاب الحوت الميت حيا إلى البحر متخذاً سبيله فيه سربا .

(مَا) أى الذى (كُنَّا نَبْغِ) نطلب لأنه دليل على مطلوبنا وهو لقاء العبد

الصالح . أثبت الياء فى الوصل نافع وحذفها فى الوقف وكذا أبو عمرو والكسائى وأثبتها فى الوصل والوقف ابن كثير وقراءة نافع أولى اتباعا لخط المصحف .

(فَارْتَدَّا) أى رجع موسى ويوشع وهو مطاوع رد أى ردهما الله فارتدا أو ردهما ذلك المذكور من أمر الحوت فارتدا .

(عَلَى آثَارِهِمَا) عودهما على بدئهما فى الطريق الذى جاءا فيه يطآن آثارهما .

(قَصَصًا) حال من ألف ارتد أى مقتصين أو مفعول مطلق لحال محذوفة أى يقصان آثارهما أو قاصين آثارهما قصصا أى يتبعانها اتباعا أو مفعول مطلق لارتدا لتضمنه معنى اقتصا أى رجعا فى طريقهما حتى أتيا الصخرة التى كانا عندها .

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) وهو الخضر عند الجمهور .

وقيل : اليسع . وقيل : إلياس . وقيل : هو ملك من الملائكة . والصحيح الأول وهو الذى ثبت عن رسول الله ﷺ وأصحاب التواريخ .

وسمى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء والفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة . رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ .

وقال مجاهد : لأنه إذا صلى اخضر ما حوله وروى عنه إذا مشى . قيل : ذلك لقبه وكنيته أبو العباس واسمه بليا بن ملكان كان من بنى إسرائيل . وقيل : من أبناء الملوك التاركين للدنيا وملك آباؤهم وجده ثالع بن يقطن بن عامر ابن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام والمشهور أن اسمه موسى .

روى أن موسى وفتاه وجداه عند الصخرة بعد الرجوع إليها مغطيا بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك أى أرضك هذه . وروى : بأرضنا السلام . قال : أنا موسى .

قال : موسى بنى إسرائيل ؟

قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما عُلمت رشداً .

قال : إن لك فى بنى إسرائيل شغلا وفى التوراة كفاية أمرنى ربى بذلك .

وقيل : وجداه على طنفسة خضراء على وجه الماء متوشحا بثوب أخضر قائما يصلى .

وقيل : اتبعا سبيل الحوت فى البحر فوجداه يصلى على طنفسة خضراء فى وسط الماء .

وقيل : اتبعا الحوت سبيله فى البحر حتى خرج بهما إلى جزيرة فإذا هما بالخضر فى روضة يصلى فأتياه من خلفه فسلم عليه موسى فأنكر الخضر السلام فى ذلك الموضع فرفع رأسه فعرفه فقال : وعليك السلام يا نبى بنى إسرائيل .

فقال : وما يدريك أنى نبى بنى إسرائيل ؟

قال : أدرانى بك الذى أدراك بى .

وقيل : وجد مصليا على الماء كامر فسلم عليه فقال : بأرضنا السلام ثم رفع رأسه واستوى جالساً فقال : وعليك السلام يا نبى بنى إسرائيل الخ .

فقال : لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل .

قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ثم جلسا يتحدثان فجاءت خطافة فحملت بمنقارها من الماء .

فقال الخضر : يا موسى خطر ببالك أنك أعلم أهل الأرض وما عِلمك وعِلم الأولين والآخرين فى جنب علم الله إلا أقل من الماء الذى حملته الخطافة فى منقارها .

وقيل : إنما كان المذكور من قصة الخطافة بعد ما كانوا فى السفينة وجلسوا فى قرقورها .

وعن الكلبى : بلغنا أنهم لم يفترقوا حتى بعث الله طائراً فطار إلى المشرق ثم طار إلى المغرب ثم طار إلى السماء ثم هبط إلى البحر فتناول من البحر بمنقاره وهما ينظران فقال الخضر لموسى : أتعلم ما يقول هذا الطائر ؟

فقال موسى : وما يقول ؟

قال : يقول : ورب المشرق ورب المغرب ورب السموات السبع ورب الأرضين السبع ما علمك يا خضر وعلم موسى فى علم الله إلا قدر الماء الذى تناولته من البحر فى البحر .

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) الوحى أو النبوة وقال الأكثر : الولاية ولم يكن نبيًّا عند الأكثر وهو الصحيح .

واستدل من قال بأنه نبى بقوله : « وما فعلته عن أمرى » أى بل بالوحى . وأجيب بأن المراد بل بإلهام واختار الشيخ عمرو التلاتى أنه نبى والمراد بالولاية هنا كونه ولياً لله سبحانه وتعالى .

وجملة آتيناه رحمة (مِنْ عِنْدِنَا) نعت لعبد أو حال منه . أو من الضمير المستقر فى قوله : « من عبادنا » لأنه متعلق بمحذوف نعت .

(وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً) عندنا . المعنى : مما يختص بنا ولا يعلم بتعلم واكتساب وهو علم الباطن وهو علم الغيب يلهمه الله إلهاماً .

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ) بإثبات الياء فى الوصل وحذفها فى الوقف عند نافع وأبى عمرو وأثبتها فيهما ابن كثير .

(مِمَّا عُلِّمْتَ) أى مما علمك الله وعلى متعلقة باتبع أو بمحذف حال من الكاف .

(رُشْدًا) مفعول ثان لتعلم والمفعول الثانى لعلم محذوف والأول المثناة الفوقية النائبة عن الفاعل أى مما علمت إياه . وكل منهم من المتعدى لواحد وإنما تعديا لاثنين بالتشديد .

ويجوز أن يكون رشداً مفعولا من أجله لأتبع على أنه من رشد اللازم ليتحد الفاعل ومعناه إصابة الخير والفلاح . والصواب لا من المتعدى إلا عند مجيز عدم اتحاد المفعول لأجله وعامله فى الفاعل أى لترشدنى .

ويجوز كونه مفعولا مطلقاً لمحذوف أى أرشد رشداً بالبناء للفاعل من اللازم أو للمفعول من المتعدى .

وقرأ أبو عمرو بفتحتين . وقول القاضى : قرأ بذلك أبو عمرو ويعقوب وانظر كيف تأدب موسى مع ما آتاه الله من العلم العزيز حين استجهل نفسه أعنى نسب نفسه إلى الجهل واستأذن أن يكون تابعاً له وسأله أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما علمه الله عز وجل .

ولما قال ذلك قال له الخضر : كفى بالتوراة علماً وببنى إسرائيل شغلا أو غير ذلك كما مر فقال له موسى : إن الله أمرنى . فحينئذ قال له الخضر ما حكى الله تعالى عنه بقوله : (قَالَ) أى قال الخضر لموسى : (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ) وقرأ حفص هنا وفى الآيتين بفتح الياء .

(صَبْرًا) أكد نفى الصبر بالجملة الاسمية وإن وكون النفى بلن وبنفى الاستطاعة فإن نفى الاستطاعة على الشىء أوكد من نفى الشىء لأن نفى استطاعته يصيره متعذراً

ومحالا وعلل ذلك بقوله : (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) أى كيف تصبر على ترك إنكار ما لم يحط به علمك واختبارك مما هو منك بحسب علم الظاهر الذى تعبدت أنت به معروف بحسب علم الباطن الذى تعبدت أنا به وأنت نبى شديد غليظ فى النهى عن المنكرات .

روى البخارى أنه قال : يا موسى إنى على علم من الله علمنيه لا تعلمهُ وأنت على علم من الله علمكه لا أعلمه . وخبرا تمييز محول عن الفاعل بمعنى العلم أو بمعنى الخبر بفتح الخاء والباء أى لم يحط به الخبر الذى جاءك من الله لأنه إنما خبرك بعلم آخر أو بمعنى المخبر به بفتح الباء أو مفعول مطلق لأن لم تحط به بمعنى لم تختبره .

(قَالَ) موسى للخضر (سَتَجِدُنِي) وسكن هذه الياء غير نافع .

(إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا) على ما لم أحط به خبراً غير منكر عليك وقيد بالمشيئة لأنه لا يصدر فعل من مخلوق ولا ترك إلا بمشيئة الله تعالى ولأنه لم يكن على ثقة من نفسه فى الصبر الذى وعد به . وهكذا عادة الأنبياء والأولياء لا يثقون إلى أنفسهم طرفة عين قال رسول الله ﷺ : من تمام إيمان المرء أن يستثنى فى كل أموره ولأنه عالم بصعوبة الأمر فإن مشاهدة الفساد والصبر على خلاف المعتاد شديد . فإن لم يطقهما فليس بمخلف لوعده لأنه قد قال : إن شاء الله ولا سيما إن أخلفه ناسياً فإن النسيان لا يقدح فى العصمة أو قيده بمشيئة المتبرك أو قيد لذلك كله .

(وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) عطف هذه الجملة على المفرد وهو صابرا كأنه قيل: ستجدنى إن شاء الله صابراً وغير عاص لك أمراً ولك متعلق بمحذوف حال من أمر أو أمرا مفعول أعصى لتضمنه معنى أخالف أى لا أخالف أمرك ويجوز عطف الجملة على ستجدنى .

(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي) صاحبتني حيث أمشي .

(فَلَا تَسْأَلْنِي) وقرأ غير نافع وابن عامر بإسكان اللام وتخفيف النون وحذف الياء ابن ذكوان وصلا ووقفا بخلاف عن الأخفش عنه وأثبتها الباقون فيهما وكذا رسمها (عَنْ شَيْءٍ) فعلته مما تنكره ولم تعلم وجهه .

(حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ) أي حتى أبتدئ لك (مِنْهُ) متعلق بأحدث ومن الابتداء أو متعلق بمحذوف حال مما بعده ويقدر مضاف أي من بيانه أو يقدر الكلام هكذا .

(ذِكْرًا) في بيانه فإذا أحدثته لك لم تحتج بعد إلى السؤال عنه كما تقول : لا أعصى الله إن شاء الله إلى أن أموت ومعلوم أنه لامعصية بعد الموت فتقبل موسى شرطه كما يتأدب المتعلم المعلم .

(فَانْطَلَقَا) يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها ومعهما يوشع فالخضر يعلم في نفسه سبب طلب السفينة وموسى ويوشع لا يدريان ولو علما أن طلبها للركوب وسببه هو ما يذكر بعد من خرقها وقتل الغلام وإتيان القرية ويحتمل أن الخضر لم يعلم ذلك أيضا أو علم بعضه فقط ولكنه أراد ركوبها رجاء لحكمة تجرى على يده فرأوا سفينة فأشاروا إليها فجاء بها أصحابها فعرفوا الخضر فحملوهم بلا أجرة رواه أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ .

وقيل : إن أهل السفينة قالوا : إن هؤلاء لصوص وأمروهم بالخروج فقال صاحبها : ما هم بلصوص ولكن أرى وجوه الأنبياء . ولما كانت في لجة البحر أخذ الخضر فأسا فقلع لوحا . وقيل : لوحين من قعرها مما يلي الماء وبقي الماء لايدخلها بإذن الله تعالى وجعل موسى يحشو الموضع بثوبه .

وقيل : قلع من جانبها مما فوق الماء مما يلى الماء فجعل موسى يحشو ذلك بثوبه كما قال الله سبحانه وتعالى : (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ) ومعهما يوشع وإنما لم يذكر لأنه تابع لموسى فهو كزاد الإنسان وسائر متعلقاته ولأن المقصود بالذات موسى والخضر .

(خَرَقَهَا) أى الخضر وهى جديدة وثيقة (قَالَ) موسى : (أَخَرَقْتَهَا) استفهام إنكار وتوبيخ .

(لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) وقد أحسنوا إلينا وحملونا بلا أجرة وذلك ظلم عظيم ولو حملونا بأجرة ولم يحسنوا إلينا . وإنما قال : لتغرق أهلها لأن غرقها سبب ملزوم لدخول الماء فيها ودخوله فيها مغرق لأهلها ولام لتغرق لام الصيرورة أى أخرقتها فيئول أهلها إلى الغرق

ويحتمل التعليل بأن غلب على موسى التوهم أن الخضر أراد بخرقها غرقهم وذلك أن الحمية على الحق تأخذ المصلح عند معاينة الفساد وكان موسى أشد الناس فى ذلك، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ولذلك أنكر عليه ناسياً لشرطه مع أنه عالم بأن الخضر هو المعصوم الذى أمره الله سبحانه بالسفر معه واتباعه واقتباس العلم منه .

وقد روى أنه جره من رجله ليلقيه فى البحر وقد علم أنه لا يضره الماء ولا يغرقه . ويمكن أن يكون جره ليخرجه منها لا إرادة لإغراقه وأظن أن ذلك كله غاب عن غفلة حين رأى ذلك .

وقرئ لتغرق بالتشديد للمبالغة والتأكيد وقرأ حمزة والكسائى ليغرق بفتح الياء التحتية والراء والتخفيف أهلها بالرفع .

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) أى شيئاً عظيما وهو نعت لشيئاً يقال : أمر الأمر

أى عظم حتى إنه لينكره العقل . وقد فسره مجاهد فى المنكر قيل : لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة أى عظم أمر رسول الله ﷺ وأبو كبشة أبوه من الرضاع .

قال ابن عباس رضى الله عنهُ : لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى بناحية من السفينة وقال فى نفسه : ما كنت أصنع بصاحبة هـذا الرجل كنت فى بنى إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوا وعشيا وآمرهم فيطيعونى . فقال لهُ الخضر : أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك ؟

قال : نعم .

قال : كذا وكذا .

قال : صدقت .

وروى أن يوشع قال لموسى ـ حين قال : أخرقتها الخ ـ : يا نبى الله اذكر الشرط الذى بينكما .

(قَالَ) الخضر : (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) تذكير للعهد مع الإنكار والتوبيخ والتأكيد بالجملة الاسمية وإن والنفى بلن .

(قَالَ) موسى (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) ما اسم موصول أو نكرة موصوفة أى بالذى نسيته أو بشىء نسيته وذلك هو الشرط الذى بينهما إذ قال : فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا أو مصدرية أى بنسيانى وعلى الأوجه كلها قد اعتذر إليه بأنهُ ناس لذلك الشرط ولا مؤاخذة على الناسى ولا سيما مع مشاهدة أمر لا أطيق السكوت عليه .

قال أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ : كانت الأولى نسياناً والثانية شرطا والثالثة عمدا .

وقال ابن عباس : لم ينس الشرط حين قال: أخرقتها ولـكن ذلك من معاريض

الكلام يوهمه أنه قد نسى الشرط ليبسط عذره وإنما أراد إذا نسيت شيئاً فلا تؤاخذنى . ولم يرد أنى قد نسيت فى هذا الاعتراض .

وقيل : المراد بالنسيان ترك عمد يعنى لا تؤاخذنى ولو تعمدت .

(وَلَا تُرْهِقْنِى) لاتغشنى والياء مفعول ثان مقدم . (مِنْ أَمْرِى) أى لأجل أمرى وهو النسيان أو أمره مطلقا فى حال اصطحابه معه وهو أولى وهو متعلق بترهق .

ويجوز كون التقدير : من مقتضى أمرى أو لازم أمرى أى مايوجبه أمرى من المعاقبة على أنها ليست للتعليل فهى متعلقة بترهق أو بمحذوف حال من قوله : (عُسْرًا) وهو مفعول أول مؤخر لترهق يقال : رهقه أمر وأرهقته أمرا وغشيه أمر وأغشيته أمرا أى حدث عليه وأحدثته كأنه قيل : لا تجعل العسر داخلا علىّ ولا يصح أن تكون الياء مفعولا أول وعسرا ثانيا لا على تفسير ترهق بتكلف خلافا للقاضى وأراد بالعسر المضايقة والمؤاخذة أى لاتُعْسِر علىّ متابعتك بالمناقشة بل يسرها بالمسامحة وقرئ عسرا بضم العين والسين .

(فَانْطَلَقَا) بعد خروجهما من السفينة يمشيان .

(حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) أى قتله الخضر . قيل : بلغا أيلة فوجدا غلمانا عشرة يلعبون فيهم غلام أظرفهم وأضوؤهم وجها فقتله بأن لوى عنقه . وقيل : لواها وقلع رأسه .

وقال قوم : أمسك برجله وضرب برأسه الحائط فمات .

وقال سعيد بن جبير : أضجعه فذبحه بالسكين .

وقال الكلبى : صرعه فنزع رأسه قلعاً .

وقال قوم : رفسه برجله حتى مات .

وروى أنه أدخل يده فى صرته فاقتلعها فمات .

وروى عبد الرزاق أنه أشار إليه بإبهامه وسبابته ووسطاه وقلع رأسه .

وقيل: رضخ رأسه بحجر فمات واسمهُ حوش . وقيل: يوشون قال وهب: اسم أبيه ملاس واسم أمه رحمة .

قال الضحاك : كان يعمل بالفساد فيتأذى منه أبوه وأمه .

وعن الكلبى : كان يسرق المتاع بالليل فإذا أصبح لجأ إلى أبويه فيحلفان شفقة عليه : لقد بات عندنا .

وروى أنه كان يقطع الطريق ويأخذ المتاع ويلجأ إلى أبويه.

وروى البخارى ومسلم واللفظ له عن أبىّ بن كعب عن رسول الله ﷺ : إن الغلام الذى قتله الخضر طُبع كافراً ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا .

وهكذا روى ابن عباس عن أبىّ بن كعب. وكذا أخبر حماد بسنده عن أبىّ بن كعب والفاء عاطفة تفيد أن قتله متصل بلقائه بلا مهلة تفكر واستكشاف حال لعلمه بحاله من طريق الإلهام. وجواب إذا هو قولهُ (قَالَ) موسى منكرا موبخا للخضر على قتله الغلام :

(أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً) طاهرة من الذنوب لأنها لم تبلغ الحلم فلا يكتب عليها ذنب كما قال ابن عباس : يعنى موسى أن الغلام لا ذنب له لعدم بلوغه فلا يستحق القتل حدا من الذنب لأنه عار من الذنب ولا قصاصا من نفس قتلها ؛ لأنه لم نره قتل أحدا كما قال (بِغَيْرِ نَفْسٍ) .

وظاهره أنه لو أذنب ذنبا موجبا القتل فى الجملة كالزنا مع الإحصان أو قتل نفسا لقُتل وذلك لم يثبت ولو فى شريعة موسى وإنما أراد موسى أنه لا ذنب

للغلام ولو عمل ولا يقتل بنفس ولو قتلها لأن فعل الطفل خطأ ولو تعمد فهو غير مذنب ولا قاتل وإن كان قاتلا فكأنه غير قاتل لأنه لا يشمله خطاب النهى عن قتل النفس .

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وورش عن يعقوب زاكية بألف بعد الزاى وتخفيف الياء . وقرأ الباقون بدون ألف وتشديد الياء والمعنى واحد لكن فى الثانية مبالغة .

وقال أبو عمرو : الزاكية بألف : التى أذنبت وتابت والزكية بدون ألف وبالتشديد التى لم تذنب قط ولذلك اختار القراءة بالثانى . وإنما جعل جواب إذا الأولى خرقها فكأن حكاية اعتراض موسى على الخضر مستأنفة وجعل جواب إذا الثانية حكاية اعتراضه عليه وجعل القتل من جملة شرطها لأن قتل نفس زاكية بغير نفس أقبح والاعتراض عليه أدخل فى القبول فكان جديرا بأن يجعل من عمدة الكلام الذى يبنى عليه الجواب ولذلك وصله بقوله (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكُرًا) بضمتين كما قرأ نافع فى رواية قالون وأبو بكر وأبو عمرو ويعقوب .

وقرأ الباقون بضم النون وإسكان الكاف وكذا فى الموضع الثانى وفى الطلاق وكلاهما بمعنى المنكر وهو نعت لشيئا وقوله نكرا أعظم من قوله إمرا لأن قتل النفس الزاكية بغير نفس أمر لا يتدارك وخرق السفينة أمر يمكن تداركه بالسد وإمكان عدم إغراق أهلها وقيل بالعكس لأن إغراق أصحاب السفينة قتل أنفس وقتل الغلام قتل نفس واحدة .

وكتب نجدة الحرورى إلى ابن عباس : كيف جاز قتله وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الولدان ؟ فكتب ابن عباس إليه : إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل رواه مسلم بمعناه .

وعن قتادة أن النكر أشد وأعظم من الأمر وأنه لما شدد موسى غضب الخضر وقلع كتف الغلام اليسرى وقشر عنها اللحم وإذا على عظم كتفه مكتوب: كافر لا يؤمن بالله أبدا . ويدل لهذا ما مر عن رسول الله ﷺ أنه طبع كافرا . وروى أن يوشع قال له أيضاً فى الاعتراض الثانى : يا نبى الله اذكر العهد الذى أنت عليه .

(قَالَ) الخضر لموسى : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ) زاد هنا لفظ لك لزيادة التأكيد والعتاب لمخالفة الشرط مرتين ولعدم العذر هنا .

(إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) ولعدم العذر هنا قال ما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا) أى بعد هذه المسألة أو بعد هذه المرة .

(فَلَا تُصَاحِبْنِي) أى لا ترافقنى . وقرئ فلا تصحبنى بفتح المثناة الفوقية وإسقاط الألف أى لا تكن صاحبى .

وقرأ يعقوب : فلا تصحبنى بضم التاء أى لا تجعلنى صاحبك والمراد بالشىء ما يفعله الخضر . وزعم غير واحد أن المراد الصحبة . وعلل قوله : لا تصاحبنى بقوله : (قَدْ بَلَغْتَ) وصلت أو كنى به عن قولك : وجدت .

(مِنْ لَدُنِّي) عندى بضم الدال وتخفيف النون عند نافع حذفا لنون الوقاية وإسكان الدال وإشمامها الضم وتخفيف النون عند أبى بكر وبضم الدال وتشديد النون عند الباقين .

(عُذْرًا) فى مفارقتك إياى لأنى إذا سألتك بعد هذه فقد خالفتك ثلاث مرات وقد يتمسك بهذا ونحوه فى أشياء كثيرة على الاقتصار على ثلاث مرات

وإنما أخذ موسى نفسه على الثلاث استحياء . قال رسول الله ﷺ : رحم الله أخى موسى استحيى فقال ذلك لو ثبت مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب .

وروى البخارى ومسلم عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة فقال : إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا فلو صبر لرأى العجب . والذمامة : الحياء والشفقة . وكان ﷺ إذا ذكر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه كما قال هنا : رحمة الله علينا وعليه وليس ذلك لازما فى كل كلامه .

وحكى السهيلى أنه لما حان للخضر وموسى أن يفترقا قال له الخضر : لو صبرت لأتيت على ألف عجب كلها أعجب مما رأيت فبكى موسى .

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ) قيل : أنطاكية وهو قول ابن عباس . وقال ابن سيرين : أيلة بصرة بضم الهمزة والموحدة وتشديد اللام وهى أبعد الأرض من السماء . وقيل : قرية من قرى الروم ويقال لها : ناصرة وإليها تنسب النصارى . وقيل : بجوار أرمينية . وقيل : قرية فى الأندلس .

(اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا) طلبا منهم الطعام ضيافة . ومقتضى الظاهر أن يقال : استطعماهم برد الضمير إلى أهل القرية فوضع الظاهر موضع المضمر إن قلنا : إن الجملة جواب إذا وإن قلنا فى الجواب هو قال من قوله قال : لو شئت لاتخذت عليه أجرا وأن هذه الجملة نعت قرية لم يكن من وضع الظاهر موضع المضمر .

قال ابن هشام : ومن النوع الأول وهو وقوع الجملة صفة للنكرة بدون أن تصلح حالا لوقوعها بعد النكرة المحضة حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها وإنما أعيد ذكر الأهل لأنه لو قيل : استطعماهم مع أن المراد وصف القرية لأن

الحديث مسوق فيها ألا ترى فوجدا فيها جداراً لزم خلو الصفة من ضمير الموصوف ولو قيل : استطعماها كان مجازاً لأن القرية لا تستطعم حقيقة ولهذا كان هذا الوجه أولى من أن تقدر الجملة جوابا لإذا لأن تكرار الظاهر يعرى حينئذ عن هذا المعنى وأيضا لأن الجواب فى قصة الغلام هو قوله : قال لا قوله : فقتله لأن الماضى المقرون بالفاء لا يكون جوابا فليكن قال أيضا فى هذه جوابا لأنهما سيقتا مساقا واحدا انتهى بإيضاح وسبقه إلى ذلك ابن الحاجب .

فتحصّل أن علة تكرار الأهل كون الجملة نعتا والجواب هو قال كما كان قال هو الجواب فى نظيره فلو أضمر للأهل فقيل : استطعماهم لم يوجد رابط إذ لا يضاف ضمير لضميره ولو كان جائزا لجاز أن يضمر للأهل ويضاف ضميرهم لضمير القرية .

وقد يقال : يصح أن يقال استطعماهم ويحصل الرابط لأن قولك هم يعود إلى الأهل بقيد كونهم أهل القرية كما حصل الربط بنون الإناث فى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن » وهى نون يتربصن لأنها ولو عادت إلى النساء لكن لا مطلقا بل بقيد كونهن نساء الذين يتوفون إلا أن يقال بأن ذلك لا يحصل الربط بالموصوف ولو حصله بالمبتدأ وهذه الآية فى المبتدأ وآية الكهف فى الموصوف .

وتحصّل أنه لو قيل : استطعماها لكان مجازا وهو فرع الحقيقة إنما يعدل إليه لنكتة فلا يقال : إن القرآن مشحون بالمجاز وإنه أبلغ من الحقيقة بإطباق البلغاء لأنه لا نكتة لذلك المجاز هنا ولأنه على كل حال خلاف للأصل ولأنه قال أولا : أتيا أهل قرية فبنى الكلام على الحقيقة إذ لم يقل : أتيا قرية فالتجوز بقولك استطعماها بعد من الرجوع إذاً لشىء بعد الانصراف عنه .

وكتب الصلاح الصفدى إلى السبكى أبياتا يسأله عن هذه الآية هكذا :

أسيدنا قاضى القضاة ومن إذا بدا وجهه استحيَى له القمران
ومن كفه يوم الندى ويراعه على طرسه بحران يلتقيان
ومن أن إذا جدت فى المشكلات مسائل جلاها بفكر دائم اللمعان
رأيت كتاب الله أكبر معجز لأفضل من يهدى به الثقلان
ومن جملة الإعجاز كون اختصاره بإيجاز ألفاظ وبسط معان
ولكننى بالكهف أبصرت آية به الفكر فى طول الزمان عيان
وما هي إلا استطعما أهلها فقد نرى استطعامهم مثله ببيان
فما الحكمة الغراء فى وضع ظاهر مكان ضمير إن ذاك لشان
فأرشد على عادات فضلك حيرتى فما لى بها عند البيان يدان

فأجاب بما حاصله أن الجملة صفة . فلو قيل : استطعمام لم يحصل ربط والمعنى : وإنما هى على كونها وصفا للقرية ألا ترى قوله فوجدا فيها جدارا ولم يقل عندهم وأن الجدار الذى قصد إصلاحه وحفظ ما تحته من قرية مذمومة مذموم أهلها لا صفة للأهل لأنها تصير العناية إلى شرح قال لأهل فلا يكون للقرية أثر فى ذلك وتجد بقية الكلام فيها كما رأيت وقد تقدم منهم إباء التضييف مع طلبه وللبقاع تأثير فى الطباع فكأن هذه القرية حقيقة بالإفساد والإضاعة فقوبلت بالإصلاح لمجرد الطاعة وليست جوابا لإذا وإلا كان محط الكلام ومقصده هو الاستطعام عند الوصول وليس كذلك بل المراد إظهار العجائب من بلوغ اليتيمين أشدهما واستخراج كنزهما .

فلو صح أن الجملة نعت أهل أو جواب إذا صح أن يقال : استطعمهم لكنهما

وجهان بعيدان هذا كلامه . ثم قال : وانضاف ذلك من الفوائد أن أهل الثانى يحتمل أن يكونوا هم الأول أو غيرهم أو منهم أو من غيرهم .

والغالب أن من أتى قرية لا يجد جملة أهلها دفعة بل يقع نظره أولا على بعضهم ثم قد يستقريهم فلعل هذين العبدين الصالحين لما أتياها قدر الله لهما من حسن صنيعه استقراء جميع أهلها على التدريج ليتبين به كال رحمته وعدم مؤاخذته بسوء صنيع عباده ولو قال استطعاهم تعين أن يكون المراد الأولين لاغير فأتى بالظاهر إشعارا بتأكيد العموم فيه وأنهما لم يتركا أحدا من أهلها حتى استطعماه وأبوا ومع ذلك قابلهم بأحسن الجزاء انتهى .

والجارى على الغالب أن يقال الأهل الثانى هو الأول لأنه معرفة بعد أن ذكر نكرة وأن المراد بهما حقيقة أهلها التى صدقت بمن وافوه فى طريقهم ف البلد ويحتمل أن يريد بالأول حقيقة أهلها مطلقا عن قيد الموافاة فى الطريق فيها وعن قيد فرد فرد وبالثانى من يُؤَمَّل للإطعام كالرؤساء والأغنياء .

(فَأَبَوْا) امتنعوا . (أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا) عن أن يضيفوهما أو من أن يضيفوهما أو منعوهما التضيف قال أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ : أتيا أهل قرية لئاما فطافا فى المجالس فاستطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما .

وروى استطعموهم فلم يطعموهم واستضافوهم فلم يضيفوهم . روى أنهما وافياها قبل الغروب فاستطعماهم فلم يطعموهم قال قتادة : فى هذه الآية شر القرى التى لايضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه . وعن أبى هريرة أطعمتهم امرأة من أهلها بعد أن طلبا من الرجال فامتنعوا فدعوا لنسائهم ولعنا رجالهم والتضييف إنزال الضيف والقيام به .

وقرئ فأبوا أن يضيفوهما بضم الياء الأولى وإسكان الثانية أى أبوا أن

يقبلوا ضيافتهما أى نزولهما بهم ضيفين يقال : ضاف به أى نزل به ضيفا وأضافه أى قبله نقام به ولم يرده أو من أضافه كضيّفه بمعنى أنزله وأقام به وأصل تركيب الإسناد والميل والاستناد والإمالة أضاف ظهره للحائط أسنده إليه وضاف ظهره للحائط أسنده إليه وضاف السهم عن الرمية أى مال .

وقيل : إنهما لم يجدا فى تلك الليلة طعاماً ولا ماء وكانت باردة شاتية فالتجآ إلى حائط يكاد ينهدم ويسقط على خوف منها وقد بناه رجل صالح وهو الجدار المذكور فى قوله تعالى : (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا) طوله إلى جهة السماء ثلاثون ذراعا بذراع أولئك القوم وهى مائة أذرع بأذرع هذه الأمة وطوله على وجه الأرض خمس مائة ذراع وعرضه خمسة أذرع .

(يُرِيدُ) أى الجدار . (أَنْ يَنْقَضَّ) أى يكاد ينقض واستعيرت الإرادة لقرب الانقضاض كقوله :

يريد الرمح صدر بنى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل

كما يستعار الهمّ والعزم لقرب الفعل يقال عزم السراج أن يطفأ ولست أريد بالاستعارة هنا مقابل المجاز المرسل بل أردت الاستعارة اللغوية العامة للمجازين فإن لفظ الإرادة وضعت للحيوانى واستعملت هنا فى الجماد على سبيل العارية فإن ذلك مجاز مرسل بأن استعمل الإرادة بمعنى مشارفة السقوط لأن إرادة الفعل فى الجملة سبب له وملزوم له والفعل مسبب ولازم وهذا أولى من أن يقال شبه كون الجدار حال الضعف بإرادة الحيوان للسقوط فاستعار لفظ الإرادة لذلك السكون استعارة اصطلاحية مقابلة للمجاز المرسل وينقضّ يفعل أصله ينقضض بكسر الضاد الأولى سكنت وأدغمت فى الثانية . وأيضاً معناه ينكسر وينهدم أو يسقط وهو

فى الأصل مطاوع قضضته أى كسرته أو هدمته أو أسقطته . وانقضاض الطيور نزولها إلى الأرض . وانقضاض الكوكب هويه للرجم .

ويجوز أن يكون ينقض يفعل بتشديد اللام من النقض فأصوله النون والقاف وأحد الضادين وهو فى الأصل أيضاً مطاوع نقضه أى هدمه ولك إقرؤه على المطاوعة فإن تصيير الله إياه بتلك الحال من الضعف كالشروع فى نقضه أو فى قضه فأراد أن يطاوع النقض أو القض .

وقرئ أن ينقص بالصاد المهملة المشددة . وقرئ أن ينقاص كذلك لكن بألف قبل الصاد من انقصت السن وانقاصت تشديد الصاد فيهما أى انشقت طولا وليس الضمير فى أراد عائدا للخضر كما زعم من لا معرفة له بوجه إسناد لإرادة للجدار زاعماً أن الخضر أراد انقضاض الجدار وانقض الجدار بنفسه أو بنقض الخضر ثم أقامه بتجديد البناء .

(فَأَقَامَهُ) أى أقامه الخضر بأن مسحه بيده فزال ميله واعوجاجه وشققه فكان مستقيما صحيحاً ملتئما فى قول سعيد بن جبير .

وقال ابن عباس: هدمه وبناه .وقيل: عمد بعمود . والذى رواه أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ هو الذى ذكره سعيد بن جبير .

(قَالَ) موسى للخضر : (لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) أى على إصلاحه أو بنائه وذلك طلب لأخذ الأجرة على طريق التأدب برد الأمر إلى مشيئته وطريق الكناية عن أنى مريد أن تأخذ عليه الأجر إذ لم يقل : خذ عليه أجراً .

ويجوز أن يكون تنديماً على ترك الأخذ للأجر وتحريضاً على أخذه لأنهما بحالة من الجوع وصلت بهما أن يسألا طعاماً فلم يطعما .

ويجوز أن يكون تعريضاً بأن إقامته فضول حيث اشتغل بإصلاح مال غيره في بلد منعه أهله الطعام وهو في جوع شديد وإنه ينبغي أن يشتغل بما يتقون به فإذا أقامه فليطلب عليه الأجرة واتخذ افتعل من اتخذ كاتبع من تبع فالتاء المدغمة أصل وهي فاء الكلمة . وقال الكوفيون : إنها بدل من همزة أخذ .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو لَتَخِذْتَ بتخفيف التاء وكسر الخاء ويقال لهما البصريان . وأظهر ابن كثير ويعقوب وحفص الذال وأدغمه الباقون ويوجد في النسخ اتصال اللام بالتاء في الخط بدون ألف بينهما ولو في قراءة التشديد .

(قَالَ) الخضر لموسى : (هٰذَا) أي هذا الوقت (فِرَاقُ) أي وقت فراق وهذا الاعتراض الثالث سبب فراق أو موجب فراق أو هذا الفراق الذي تضمنه قولك : « إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني » وهو فراق .

(بَيْنِي وَبَيْنِكَ) وإضافة الفراق لبين من إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع .

وقد قرأ ابن أبي عبلة بتنوين فراق وفتح بينك فيكون بيني وبينك منصوبين على الظرفية .

ويجوز أن يكون بيني وبينك بمعنى وصلي ووصلك فإضافة فراق إضافة مصدر لمصدر أي فراق بيني بينك وبينك بيني أي وصلي وصلك ووصلك وصلي فهي إضافة مصدر لفاعله أو مفعوله لأن كلا من المتفارقين مفارق للآخر أو مفارقتك بيني ومفارقتي بينك أي مفارقتك وصلي ومفارقتي وصلك فهي إضافة مصدر لمفعوله وقراءة ابن أبي عبلة تدل على الظرفية لأنه لما نون نصب إلا أن يقال : يحتمل النصب فيها المفعولية للمصدر المنون .

(سَأُنَبِّئُكَ) سأخبرك (بِتَأْوِيلِ) بتفسير وهو تفسير الشيء على خلاف ظاهره .

(مَالَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) لأنه بحسب علمك الظاهرى منكر .

روى أن موسى أخذ بثوب الخضر وقال : أخبرنى بمعنى ما عملت قبل أن تفارقنى فقال الخضر : (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ) أى صارت لهم من أبيهم بالإرث أو ثبتت لهم منه إلى الآن والكون هو الكون الذى له خبر أو الذى لا خبر له وعلى كل فقد استعمل لفظ كانت الموضوع المضى فى الحال بقطع النظر عن كونها لهم فى المضى أيضاً . ولك أن تقول مستعملة فى المضى ويفهم منه الاستمرار لأنك إذا أثبت شيئاً لأحد مِلكا فالأصل بقاؤه على ملكه حتى يدل ذلك وفى الآية دليل على أن المسكين يجوز إطلاقه على من له شيء لا يكفيه أو يكفيه على تضييق وإقتار .

وقال عكرمة : قلت لابن عباس : رأيت قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمساكين » والسفينة تساوى ألف دينار فقال : إن المسافر مسكين ولو كان معه ألف دينار ولهذا قيل : إن المسافر ومتاعه على قلة إلا ما وَقى الله . وقيل سموا مساكين لعجزهم عن دفع الملك ولزمانة خمسة منهم . وقيل : لكل علة وهم عشرة .

(يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ) بين فارس والروم . قال كعب وغيره : كانت السفينة لعشرة إخوة زَمْنَى لم تكن لهم معيشة غيرها ورثوها عن أبيهم خمسة يعملون فى البحر مجذوم وأعور وأعرج وآدر وهو من انتفخت بيضتاه ومحموم لا تنقطع عنه الحمى أبداً وهو أصغرهم ، وخمسة لا يعملون أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون وعلى هذا فالحكم على الكل بالعمل حكم على المجموع لا على الجميع فإن خمسة لا يعملون

وناسب الحكم عليهم لاجتماعهم فى المسكينية والأب والأم أو فى الأب ولرضى الباقين بالعمل وأمرهم به .

وإن قلت : أين مفعول يعملون ؟

قلت : محذوف أى يعملون السفينة أى يجرونها ويسوسونها أو يعملون شأنها أو يعملون ما يؤجرون عليه وهو الحمل فيها فإن لهم الأجرة على ذلك أو لا معمول له لتضمنه معنى يحترفون .

(فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) بالخرق لئلا يأخذها الملك لأنه لا يأخذ السفينة المعيبة وأعيب فى تأويل مصدر مفعول لأردت أى أردت عيبها أى تصييرها كريهة غير مقبولة له والعيب يطلق بمعنى المصدر كما رأيت وبمعنى ما يكره به الشىء .

(وَكَانَ) مثل كان المذكورة وقس عليهما نظائرهما .

(وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ) قيل : خلفهم لأن رجوعهم فى طريقهم عليه ولم يعلموا به فأعلم الله به الخضر أنه يأخذ كل سفينة غير معيبة فخرقها وأعلم أهلها بأمر ذلك الملك وقال : إذا جاوزتم فأصلحوها وانتفعوا بها . وقيل : وراءهم بمعنى قدامهم .

ويحتمل أن يكون وراءهم ملك بمعنى أن عليهم بأس ملك وعبّر عن ذلك بوراءهم لأن المغلوب المقهور يكون غالبه القاهر له وراءه يتبعه والصحيح عندهم القول الثانى أى قدامهم ملك فى ذهابهم وأما الأول فمشكل لأنهُ إن كان أمامهم فى ذهابهم فما فائدة الإخبار بأنه خلفهم فى رجوعهم وأيضا فيأخذها حين الذهاب لا يتربص للرجوع وإن كانوا يرجعون فى طريق غير الأول فيكون خلفهم فلا يكون خلفهم إلا بعد أن كان قدامهم فيأخذها إذا كانوا مستقبليه فما فائدة الإخبار بأنهُ خلفهم ؟ اللهم إلا أن يقال : يأخذها بعد الإدبار لا يأخذ فى عادته

عند الإقبال وذلك الملك هو الجلندى أعنى أنه ملك عمان لأن ملك عمان يسمى الجلندى ولكن الذى حفظت قديما أن الملك المذكور فى الآية ملك من ملوك اليمن .

وذكر بعض أنه جلندى بن كركر . وقيل: منوال بن جندل الأزدى . وقال ابن إسحاق : مشواه بن خليد الأزدى . وقيل : مزد بن بده . وقيل : جلهان .

وقال شعيب الجبائى: هرد بن ورد . قيل: كان له ثلاث مائة وستون قصرا له فى كل قصر امرأة وهو كافر وقد افتخر به إبراهيم بن مخرمة الكندى على خالد ابن صفوان بن الأهتم بحضرة أبى العباس السفاح . حضر عنده ليلة وكان يحب السمر ومنازعة الرجال فخاضوا وتذاكروا مضر واليمن فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكا ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخراً عن أول منهم النعمان والمنذر ومنهم عياض صاحب البحرين ومنهم من يأخذ كل سفينة غصبا وليس من شىء له خطر إلا إليهم ينسب ، إن سئلوا أعطوا وإن نزل بهم ضيف أقروه فهم العرب العاربة وغيرهم المستعربة .

وقال أبو العباس: ما أظن التميمى رضى بقولك ثم قال: ما تقول أنت يا خالد ؟ قال : إن أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام تكلمت . قال : تكلم ولا تهب أحدا . قال: أخطأ المقتحم بغير علم ونطق بغير صواب وكيف يكون ذلك لقوم ليس لهم ألسن فصيحة ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب ولا جاءت بها سنّة يفتخرون علينا بالنعمان والمنذر ونفتخر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام محمد عليه أفضل الصلاة والسلام فلله المنة به علينا وعليهم فمنا النبى المصطفى والخليفة المرتضى ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم والمقام والحجابة والبطحاء وما لا يحصى من المآثر ومنا الصّدّيق

والفاروق وذو النورين والرضى والولى وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين وأتاهم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اصطلمناه .

ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال : ألك علم بلغة قومك ؟

قال : نعم .

قال : فما اسم العين عندكم ؟

قال : الجحمة .

قال : فما اسم السن ؟

قال : الميذن .

قال : فما اسم الأذن ؟

قال : الصنارة .

قال : فما اسم الأصابع ؟

قال : الشناتر .

قال : فما اسم الذئب ؟

قال : الكنع .

قال : فعالم أنت بكتاب الله عز وجل ؟

قال : نعم .

قال : فإن الله تعالى يقول: « إنا أنزلناه قرآنا عربيا». وقال تعالى : « بلسان عربى مبين » . وقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل ألم تر أن الله تعالى قال: « والعين بالعين » ولم يقل : والجحمة بالجحمة. وقال تعالى : « والأذن بالأذن » ولم يقل: والصنارة بالصنارة. وقال تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم » ولم يقل : شناترهم فى صناراتهم . وقال تعالى : « فأكله الذئب » ولم يقل : فأكله الكنع .

ثم قال لإبراهيم : إنى أسألك عن أربع إن أقررت بهن قهرت وإن جحدتهن كفرت . قال : وما هن ؟

قال : الرسول منا أو منكم ؟

قال : منكم .

قال : فالقرآن أنزل علينا أو عليكم ؟

قال : عليكم .

قال : فالمنبر فينا أو فيكم ؟

قال : فيكم .

قال : فالبيت لنا أو لكم ؟

قال : لكم .

قال : فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم بل ما أنتم إلا سائس قرد أو دابغ جلد أو ناسج برد .

قال : فضحك أبو العباس وأقر لخالد وحباهما جميعا .

(يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ) أى كل سفينة غير معيبة أو كل سفينة صالحة . قال بعضهم : ولعمرى لو كان يأخذ كل سفينة ما انفلتت ولكن يأخذ خيار السفن ويدل لذلك أنهُ خرقها لتكون معيبة وقد قرأ أُبَىّ وعبد الله بن عباس كل سفينة صالحة .

وقرأ بعضهم كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة فذكروا النعت المحذوف لدليل فى قراءة الجمهور (غَصْبًا) من أصحابها .

وإنما قدم قوله : « فأردت أن أعيبها » عن قوله : « وكان وراءهم ملك » مع إن إرادة تصييرها معيبة مسببة عن خوف الغصب وذكر المسبب يتأخر عن

ذكر السبب لأن السبب لما كان مجموع خوف الغصب وكون مالكيها مساكين رتب السبب على أقوى الخوفين وأدعاهما وهو كون مساكينها مساكين وعقبه بالآخر على سبيل التقييد والفهم أو قدم للعناية به .

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) قرأ بعضهم زيادة على ذلك وكان كافرا . وهذه القراءة وما مر من حديث رسول الله ﷺ فى طبع الغلام على الكفر ومن حديث الخضر فى إظهاره كتابة على كتف الغلام أنه كافر لا يوجب الحكم على الصبى بالشرك والنفاق إذا رأيناه يفعل أو يقول ما هو شرك أو نفاق فى حق البالغ ولا بالبراءة لأن ذلك حكم غيب اطلع عليه الخضر ولم نتعبد بذلك .

وقرأ الجحدرى فكان أبواه مؤمنان على أن فى كان ضمير الشأن أو ضمير الغلام وأبواه مبتدأ ومؤمنان خبره على لغة قصر المثنى .

(فَخَشِينَا) هذا من كلام الخضر كما قبله وما بعده لا حكاية ويجوز أن يكون هذا إلى قوله رحما من كلامه حكاية عن كلام الله سبحانه وتعالى ويناسبه قراءة أبى فخاف ربك .

وإن قلت : كيف صح إسناد الخشية والخوف إلى الله جل وعلا ؟

قلت : على معنى قولك : كره كراهة من خاف سوء عاقبة أو خشيها وأما إذا كانت الخشية من الخضر لا حكاية فإنما خشى لأن الله سبحانه أعلمهُ بحال الغلام وأمره بقتله فظن أو تيقن أن قتله المأمور به قطع المفسدة يصير إليها لو حى حتى بلغ وقد فسر بعضهم الخشية باليقين وأكثر ما تكون عن علم بما يخشى منه وأصلها خوف يشوبه تعظيم .

(أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا) مجاوزة لحدود الله فى حقوق العباد أو مطلقا .

(وَكُفْرًا) لنعمه سبحانه وتعالى أو لنعمة أبويه فيمقتهما . وتقدم الكلام على الإرهاق

وعلى مفعوله الأول والثانى ومثله هذا ويزيد بأن المعنى أن يجعلهما داخلين الطغيان والكفر فيكون الهاء هو المفعول الأول . قيل : المعنى : خشينا أن يدعو أبويه إلى الكفر فيجيباه ويدخلا معه فى دينه من فرط محبتهما فيه .

وقيل: المعنى: خشينا أن يعمل أعمال السوء فيعلم أبواه بها ويرضيا أو يداهناه أو يعيناه فيدخلا النار . وقيل: المعنى: يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره فى بيت واحد فيكفرا بسببه بعد الإيمان .

وقيل : المعنى : أن يجتمعوا فى بيت واحد فيكون عليهما بلاء وشدة لأن معاشرة غير الجنس عذاب لأنه يدعو للكفر وهما يدعوان للإيمان .

وقيل : المعنى : أن يدخل عليهما عقوقاً لطغيانه وكفره فيلقيا منه مشقة وذكر الطغيان والكفر لأنهما سبب العقوق أو المراد أنهما نفس العقوق .

(فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا) وقرأ نافع وأبى عمرو بإسكان الباء وتخفيف الدال على أنه من أبدل فعلى أن قوله خشينا من كلام الخضر بلا حكاية فلا التفات وإن قلنا بالحكاية ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة بين قوله خشينا وأردنا وقوله ربهما .

(خَيْرًا مِنْهُ) أى ولداً خيرا من غلامهما المقتول (زَكَاةً) أى طهارة من الذنوب والأخلاق الردية وهو تمييز . وفيه دليل على أن المقتول طاهر من الذنوب ولا يدخل النار ولكن هذا أظهر فمعنى ماتقدم فى كفره أنه لو بلغ الكفر لن يؤمن أبدا . وفيه أيضا مقابلة لقول موسى : « أقتلت نفسا زكية بغير نفس » وإنما عد التبديل لاثنين لتضمن معنى أن يرزقهما ربهما خيرا منه أو لأن الأول على معنى اللام أى أن يبدلهما .

(وَأَقْرَبَ رُحْمًا) تمييز أى وأقرب رحما أى رحمة وشفقة لأبويه وبرا بهما .

وعن ابن عباس : مواصلة للرحم وأبر بوالديه فأبدلهما الله الرحمن الرحيم جارية ميمونة على نفسها وعليهما أدركت يونس بن متى عليه السلام وتزوجها نبى من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله إليه أمة من الأمم .

وقال جعفر بن محمد الصادق عن أبيه : ولدت سبعين نبيا . وقال ابن جريج : إنه أبدلهما الله ابنا مسلما مثلهما وإن المقتول كافر وهو المتبادر من ظاهر الآية . قال مطرف وقتادة فى هذه الآية : قد فرح أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقى كان فيه هلاكهما فليرض العبد بقضاء الله تعالى فإن قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وقرأ ابن عامر ويعقوب وأبو جعفر بضم الحاء كالراء .

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ) اسمهما أصرم وصريم وأل فى الجدار والمدينة للعهد الذهنى لا الذكرى لأن هذا من كلام الخضر مع موسى وذكرها فى قوله تعالى : « أتيا أهل قرية » . وقوله : « فوجدا فيها جدارا » من كلام الله سبحانه وتعالى وذلك المعهود الذهنى هو نفس القرية التى أتيا والجدار الذى وجدا .

ومن كتب : « وأما الجدار ـ إلى قوله ـ صبراً » فى قطعة ذهب قديم مدفون وقرأ عليها عشر مرات وجعلها فى وسادته ونام على الجانب الأيسر ثم على الأيمن ويقول : يا مظهر العجائب يا دليل كل حائر يا من يرشد كل ضال أرشدنى بكرمك إلى ما طلبت فإنه يرى فى منامه على ما أراد من كنز وعلى ما خبأ الإنسان وخفى عن موضعه .

(وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا) وهو من ذهب وفضة روى أبو الدرداء عن النبى ﷺ الكنز ذهب وفضة رواه البخارى فى التاريخ والترمذى مرفوعا والحاكم

وصححه ورواه الثعالبى عن أبى بكر المعشارى بما أخبره به بإسناده عن أبى الدرداء وهو المتبادر من إطلاق الكنز فى الآية والذم على كنز الذهب والفضة لمن لا يؤدى زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق .

وأيضاً يحتمل أن أباهما كنزه لهما عند قرب موته بعد أداء ما لزم فيه لما مضى وأما هما فإنما يكلفان به بعد وجوده وبلوغهما فحينئذ يزكيانه على ما مضى أو لعام أو حتى يحول الحول من حين وجداه أو على ما أشبه ذلك فى شرعهما . وقال ابن عباس : صحف فيها علم وكذا قال ابن جبير .

وعن ابن عباس فى رواية: لوح من ذهب مكتوب فيه: عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبا لمن أيقن بالقدر كيف يحزن، عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجبا لمن يوقن بالحساب كيف يغفل ، عجبا لمن يوقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله . إنى أعجب أيها الإنسان عجبا. وفى الجانب الآخر: أنا الله لا إله إلا أنا وحدى لا شريك لى خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه .

قيل : هذا قول أكثر المفسرين وفى رواية إسقاط ذكر مسألة الحساب وذكر ما فى الجانب الآخر . وكذا روى جعفر بن محمد والحسن إلا أنهما زادا أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وقال : لا إله إلا الله محمد عبدى ورسولى .

وقال الكلبى : لوح من ذهب فيه حكمة ثلاث كلمات فقط : عجبا لمن أيقن بالموت كيف يضحك ، وعجبا لمن أيقن بالرزق كيف ينصب ، وعجبا لمن أيقن بتقلب الدنيا وأهلها كيف يطمئن إليها . وإذا كان هذا اللوح من ذهب فهو كنز مال وكنز علم أو تذكير .

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) واسمه كاشح وكان من الأتقياء قيل : كان سياحا متعبداً وفى ذكر صلاح أبيهما إشارة إلى أنهما حُفظا فى كنزهما لصلاحه . قال ابن عباس والحسين بن على : حفظا بصلاح أبيهما .

وقال جعفر بن محمد : كان بين الغلامين والأب الذى حفظا به سبعة آباء .

قال محمد بن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده فلا يزالون فى حفظ من الله تعالى وستر .

زاد بعض فى روايته عنه : وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله فلا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم .

قال سعيد بن المسيّب : إنى أصلى فأذكر ولدى فأزيد فى صلاتى . وكان إذا رأى ولده قال : يا بنى والله لأزيدن فى صلاتى من أجلك رجاء أن تكون فى حفظ من الله تعالى وستر ويتلو هذه الآية .

قال يحى بن إسماعيل بن سلمة : كانت لى أخت أسن منى وذهب عقلها وتوحشت وكانت فى غرفة فى أقصى سطوحنا بضع عشرة سنة . وكانت مع ذلك تحرص على الصلاة والطهر فبينما أنا ذات ليلة نائم إذا بباب بيتى يدق نصف الليل فقلت : من هذا ؟

فقالت : كجه .

فقلت : أختى ؟

قالت : أختك .

قلت : لبيك .

فقمت وفتحت الباب فدخلت ولا عهد لها بالباب أكثر من بضع عشرة سنة .

فقلت : يا أختاه خيرا ؟

فقالت : خير . أتيت الليلة فى منامى فقيل لى : السلام عليك يا كيجة .

فقلت : وعليك السلام .

فقال لى : إن الله تعالى قد حفظ أباك إسماعيل بن سلامة جدك وحفظك لأبيك إسماعيل ؛ فإن شئتِ دعوت الله لكِ فيذهب ما بك وإن شئت صبرتِ فلكِ الجنة فإن أبا بكر وعمر قد شفعا فيك إلى الله تعالى لحب أبيك وجدك إياهما .

قلت : إن كان ولا بد من اختيارى أحدهما فالصبر على ما أنا فيه والجنة وإن الله لا يتعاظمه شىء ولو شاء أن يجمعهما إلىَّ فَعَلَ .

فقال لى : قد جمعهما لك فانزلى فنزلت فأذهب الله عنى ما كان بى .

وحكى أن بعض العلوية دخل على هارون الرشيد وقد هم بقتله فأكرمه وخلى سبيله فقيل له : بم دعوت الله حتى نجاك منه ؟

قال : قلت : يا من حفظ الكنز على الصبيين بصلاح أبيهما احفظنى بصلاح آبائى .

(فأَرَادَ رَبُّكَ) يا موسى .

(أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) العقل كمال الرأى . قيل : وذلك لثمانى عشرة سنة وسمى ذلك أشد لأنهُ شدة وقوة .

(وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا) لأن فى وقوع الجدار ظهور ذلك الكنز فيؤخذ . وإذا أقامه لم يظهر الكنز من تحته حتى يكون الغلامان هما اللذين يخرجانه باطلاعهما عليه بما شاء الله كخضر لحاجة من الحوائج تحت ذلك الجدار أو كتابة أو وصاية .

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) مفعول مطلق مؤكد للجملة وعامله محذوف أى رحمهما ربك رحمة فحذف رحمهما على أن يكون اسم الله مجروراً متعلقاً بمحذوف نعت

لرحمة أو مفعول مطلق لأراد ربك لأن إرادة الخير رحمة أو حال بمعنى مفعول أى مرحومين من ربك أو بتقدير مضاف أى ذوى رحمة .

ويجوز أن يكون مفعولا لأجله ناصبه أراد وإن قلنا ناصبه يبلغا أو يستخرجا فإنما يصح على عدم اشتراط اتحاد الفاعل وكذا إن قيل ناصبه محذوف أى فعلت ما فعلت رحمة من ربك إلا إن قدرنا : فعلت مافعلت رحمة منى موجودة من الله؛ أسند الإرادة فى قوله: « فأردت أن أعيبها » إلى نفسه لأنه المباشر لتصييرها معيبة وللتأدب مع الله لأنه ذكر العيب وأسند الإرادة إلى نفسه وإلى الله فى قوله :« فأردنا أن يبدلهما ربهما » لأن التبديل بإهلاك الغــلام وإهلاكه بيده وباتخاذ الله بدله وإسنادها إلى الله وحده فى قوله : « فأراد ربك » لأنه لامدخل لغير الله فى بلوغ الصبيين أو لأن الثالثة فى الخير بخلاف الأولى فإنها عيب وشر والثانية فإنهـا ممزوجة أو أسند الأولى لنفسه لأنها فى عيب فتأدب مع الله وعبر فى الثانية بصيغة الجماعة تنبيها على أنهُ من العلماء العظماء فى علم الباطن وعلم الحـكمة وأنه لم يقدم إلى مثل هذا الفعل إلا لحـكمة عالية وأسند الثالثة إلى الله سبحانه لأنها فى رعاية المصالح فى مال اليتيمين لصلاح أبيهما . وحفظ الأبناء فى أحوالهم لرعاية صلاح الآباء ليس إلا لله تعالى أو فعل ذلك فى المواضـع الثلاثة لاختلاف حال العارف بالله فى الالتفات إلى الوسائط ففى الأولى يلتفت إلى واسطة الخارق وهو المخلوق وفى الثانية إلى المخلوق الواسط وإلى الله وفى الثالثة إلى الله .

(وَمَا فَعَلْتُهُ) أى ما فعلت ما لم تستطـع عليه صبرا فالهاء عائدة إلى ما فى قوله : « ما لم تستطع عليه صبرا » وهذا أولى من عـودها إلى ما ذكر أو إلى ما رأيت يا موسى ولو كان الماصدَق واحدا .

(عَنْ أَمْرِى) عن اختيارى ورأيى بل عن إلهام من الله عز وجل، على القول

بأنه غير نبي أو عن الوحى على القول بأنه نبي والأول أصح كما مر أو ما فعلت ذلك بمجرد قوتى بل بنصر الله وأمره لى بوحى أو إلهام .

ومبنى أفعال الخضر فى المواطن الثلاثة على أنه إذا تعارض ضرران وجب تحمل أهونهما لدفع أعظمهما وهى قاعدة ممهدة غير أن الشرائع فى تفصيله مختلفة فساغت أفعال الخضر فى شرعه لا فى شرع موسى وهذا النبى الكريم محمد ﷺ وعليهما كما ساغ أكل المحرم من نحو الميت لدفع الموت بالجوع. وكما ساغ لدفعه قول: إلهين اثنين .

وقد قيل : إن المعنى إنما فعلت ذلك لتظهر رحمة الله تعالى لأنها بأسرها ترجع إلى معنى واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الأعلى .

وقد استدل مالك بخرق السفينة على جواز أخذ المال عن الجانى بدلا من حده لإصلاحه كما ذكره العلامة أبو يعقوب يوسف فى الدليل والبرهان، وقد رددت على المستدل فى حاشيتى على ورقة أرسلها بعض الجربيين القاطنين بمصر .

ومن فوائد هذه القصة : أن لا يعجب المرء بعمله ولو بلغ ما بلغ وفاق به الأولين والآخرين أو ساوى به الملائكة أو فاقهم من علم أو عمل دينى أو دنيوى وأن لا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه فإنه ولو كان منكرا فإنه يرخص له مقدار أن يتثبت أنه منكر فينهى عنه وإن تثبت حرم عليه التأخير فى النهى ولو لحظة بحسب الإمكان وأن يداوم على التعلم ويتذلل لمعلمه فى مالا يعلمه ولو فاق معلمه فى غير تلك المسألة التى يتعلمها . فإذا ظهرت للتلميذ مسألة لم تظهر لشيخه وجب على شيخه التذلل له فى حين تفهمه إياها منه لأن ذلك هو الإنصاف وقبول الحق وحرم عليه استخراجها منه بتخيل أو كبر أو أن يراعى المتعلم وغيره

الأدب فى المقال ، وأن ينبه الإنسان المجرم على إجرامه بلين إن عرف أنه يرتدع به أو لم يعرف وبإغلاظ إن علم أنه لا يرتدع أصلا أولا يرتدع إلا بإغلاظ .

وقيل : إذا لم يعلم أنه لا يرتدع لا يجب عليه نهيه ويتسامح المجرم بعدم المهاجرة عنه حتى يتحقق إصراره على إجرامه فليهاجر عنه .

وقد روى عن على وغيره أن موسى عليه السلام لما أراد فراق الخضر قال له الخضر : استودعتك الله .

قال له موسى : أوصنى .

فقال له الخضر عليه السلام : لا تطلب العلم لتحدَّث به واطلبه لتعمل به ، واجعل همك فى معادك ولا تخض فيما لا يعنيك ، ولا تأمن الخوف فى أمنك ، ولا تيأس من الأمن فى خوفك ، وتدبر الأمور فى علانيتك ، ولا تذر الإحسان فى قدرتك ولا تكن مَشّاءً فى غير حاجة . وإياك واللجاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تعيِّر الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، ولا تنس عيوبك .

ثم قال : ياموسى أتلومنى على خرق السفينة وكسرها مخافة غرق أهلها ونسيت نفسك حين كسرت الألواح ، وتلومنى على قتل الغلام ونسيت نفسك حين قتلت القبطى بغير أمر ، وتلومنى على ترك الأجرة على إقامة الجدار ونسيت نفسك حين سقيت غنم شعيب لله الملك الجبار وليس هذا الأخير عيبا بل أمر حسن مرغب فيه .

وروى أن موسى جاء مع فتاه إلى الخضر من التيه ورجعا منه إلى التيه .

(ذَالِكَ) الذى قررته عليك ياموسى (تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ) أصل تسطع تستطع حذفت منها التاء ويقال أيضا فى الآخر اسطاع بحذف التاء وذلك تخفيف لقرب مخرج التاء من الطاء (عَلَيْهِ صَبْرًا) تقدم مثل ذلك . و الله أعلم .

﴿ فصــل ﴾

اختلف: الخضر حي أم ميت؟ قال الأكثرون: حي واتفقت عليه الصوفية وحكايات رؤيته ووجوده في مواضع الخير لا تحصر وبذلك تقول العامة . وهو وإلياس حيان يلتقيان في كل سنة في الوسم يأخذ كل منهما من شعر الآخر بفتح العين وهما معمّران محجوبان عن الأبصار إلا من شاء الله .

وروى محمد بن المتوكل عن ضمرة بن عبد الله بن هوازن : الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان كل عام في الموسم قال عمرو بن دينار : إنهما حيان مادام القرآن في الأرض فإذا رفع ماتا وكان السبب في حياة الخضر أنه شرب من عين الحياة يوم دخل هو وذو القرنين الظلمة فطلب عين الحياة وكان على مقدمة ذي القرنين فوقع على العين فاغتسل وشرب منها وصلى شكراً لله تعالى وأخطأها ذو القرنين .

وقال آخرون : إنه ميت لقوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » وقوله ﷺ بعد ما صلى العشاء ليلة : أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى على رأس مائة سنة أحد ممن هو اليوم على ظهر الأرض ولو كان الخضر حيا لكان لا يعيش بعدها . والله أعلم .

﴿ فصــل ﴾

يروى أن رسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة حين أسرى به قال : يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة ؟

قال : كان ملك عظيم في الزمان الأول له سيرة حسنة في أهل مملكته وكان

له ابن ولم يكن له ولد غيره فسلمه للمؤدب فأدبه وكان بين منزله ومعلمه رجل عابد يمر به فأعجبه حاله فألفه وكان يجلس عنده والمعلم يظن أنه فى منزل أبيه وأبوه يظنه أنه عند المعلم حتى شب ونشأ فى العبادة .

فقالوا لأبيه : ليس لك ولد غيره لو زوجته فعرض عليه التزوج فأبى ثم عاوده فقال : نعم . فزوجه جارية من بنات الملوك وزفت إليه فقال لها : إنى مخبرك بأمر إن سمعت وكتمته صرف الله عنك شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أفشيته عذبك الله فى الدنيا والآخرة فإنى رجل مسلم ولست على دين أبى ولست من حاجتى فإن رضيت أن تقيمى معى وتتابعينى على دينى فذلك وإن أبيت فالحقى بأبيك وأمك .

قالت : بل أقيم معك فلما أتت عليها مدة قالوا لأبيه : ما نظن ابنك إلا عاقرا ما يولد له فسأله أبوه فقال : ما ذلك بيدى وإنما ذلك بيد الله يؤتيه من يشاء . فدعا المرأة فردت عليه مثل ما رد عليه ولده .

فمكث أبوه زمانا ثم دعا ابنه فقال : أحب أن تطلق امرأتك هذه وأزوجك امرأة غيرها ولودا لعلك ترزق منها ولدا فكره ذلك وألح عليه حتى فرق بينهما وزوجه امرأة شابة فعرض عليها الخبر الأول فقالت : أقيم عندك فبقيا زمانا ثم إن أباه استبطأ الولد فدعاه فقال : ليس يولد لك .

فقال : ليس ذلك بيدى ولكن بيد الله تعالى فدعا امرأته وقال : أنت امرأة شابة ولود وقد كنت ولدت عند زوجك ولست تلدين من ابنى .

فقالت : ما مسنى منذ أخذنى وكذلك المرأة التى قبلى . فدعاها وسألها فقالت مثل ذلك فدعا ابنه وعيّره وعنفه ففزع ولم يأمن على نفسه فخرج من عنده وهام على وجهه .

فندم أبوه على ما فعل وأرسل فى طلبه مائة رجل فى طرق مختلفة شتى فأدركه عشرة فى جزيرة من جزائر البحر فقال لهم : إنى أقول لكم شيئاً فإن كتمتموه كشف الله عنكم شر الدنيا وعذاب الآخرة وإن أفشيتم سرى عذبكم الله فى الدنيا والآخرة .

قالوا له : قل ما شئت .

قال لهم : لست على دين أبى ولا تخبروه بمكانى ولا تخبروا غيره بمكانى فلما دخلوا عليه قال تسعة : وجدناه وقال : كيت وكيت تخلينا عنه . ولما دخل العاشر قال : ما لى به علم . والتسعة قالوا : بل ظفرنا به وإن شئت أتيناك به .

قال : ارجعوا فى طلبه وائتونى به .

فخاف الخضر أن يظفروا به فانتقل إلى موضع آخر فرجعوا وقالوا : لم نجده فقتلهم : وقال لامرأته : ألستِ فعلت بابنى هذا حتى هرب فقتلها . وسمعت امرأته الأولى فخافت من القتل فهربت .

فقال العاشر : ما يؤمننى أن أقتل كالتسعة فهرب فأتى قرية فإذا المرأة الهاربة فى تلك القرية وكانت تحتطب فقالت يوماً : باسم الله فسمعها الرجل فقال لها : مَن أنتِ ؟ فأخبرته .

فقال لها : يا هذه أنا العاشر فهل لك أن أتزوجك فنعبد الله حتى نموت ؟

فقالت : نعم . فتزوجها ثم انطلقا حتى أتيا قرية فيها بعض الفراعنة فأخذا بيتاً من قصب وقال لها : إذا متُّ فادفنينى فى هذا البيت ، وإن متِّ دفنتك فيه ومن تأخر منا أوصى أن يهدم عليه البيت فلا نقبر مع هؤلاء . فمات ودفنته .

ثم بلغ فرعونَ زمانهم أنها تعبد الله وتوحّده فأمر أن يؤتى بها فأتى بها فأمرها أن ترجع عن دينها فأبت فأمر بقدرٍ نحاس فملئت زيتاً وعلت غليانا شديدا

وأمر بولدها الأكبر وألقى فى القدر فمات وكذا الثانى وكان فى حجرها ولد رضيع فأرادوا إلقاءه فى القدر فرقّت ونازعتهم فيه فتكلم الرضيع وقال لها: اصبرى فإنا جميعا فى الجنة .

فلما أرادوا أن يلقوها قالت : لى إليكم حاجة .

قالوا : ما هى ؟

قالت : إذا رميتمونى فى القدر فضموا ما فيها من عظامنا فى بيتنا واهدموه علينا ففعلوا فلما أسرى برسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة فقال: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل ؟

فأخبره جبريل بقصتهم وقال لرسول الله ﷺ : هذه رائحتهم .

ثم إن قوما من تلك المدينة ركبوا فى البحر للتجارة ورمت بهم الأمواج فانكسرت سفينتهم فأغرقوا إلا رجلين على لوح فرمت الأمواج بهما إلى جزيرة من جزائر البحر فخرجا يجولان فى الجزيرة فإذا هما بالخضر عليه السلام وعليه ثياب بيض وهو قائم يصلى فجلسا حتى فرغ من صلاته فالتفت إليهما وقال : مَن أنتما ؟

فقالوا : نحن من مدينة كذا وكذا وخرجنا من هذا البحر فانكسرت بنا السفينة ودفعتنا الأمواج إلى هذه الجزيرة .

فقال : فاختارا أن تقيما فى هذا الموضع وتأتيكما أرزاقكما وإن شئتما أردكما

فقالا : بل تردنا إلى منازلنا .

فقال : على أن تعطيانى عهد الله وميثاقه أنكما لا تخبران بشىء مما تريانه وأعطياه العهد والميثاق .

فنظر فإذا سحابتان فدعاهما وسألهما فقالت كل واحدة : أريد بلد كذا وكذا فدعا السحابة التي تريد بلدهما فقال : احملي هذين حتى تضعيهما على سطح دورهما .

فعزم أحدهما على الكتمان ونزل إلى منزله وعزم الآخر على الإذاعة فنزل من سطحه وخرج من بابه وانطلق إلى باب الملك ونادى بالنصيحة . فأدخل على الملك وقال : نصحتك . رأيت ابنك في موضع كذا وصنع بما كذا وكذا .

فقال : مَن يعلم ذلك ؟

فقال : فلان . فبعث إليه وسأله عما قال فأنكر وقال : أما ركوب البحر فقد ركبنا جميعاً فانكسرت بنا السفينة وصرنا على لوح واحد فلم تزل الأمواج تضربنا حتى صرنا إلى الساحل فخرجنا من البحر فلم نزل نعيش بالشجر والنبات والثمر ترفعنا أرض وتضعنا أخرى حتى أتينا منازلنا .

فقال الآخر للملك : خلِّ رِسلك حتى آتيك به وتعلم أن هذا قد كذب فبعث معه رجالا فركبوا البحر حتى أتوا الجزيرة فطلبوا الخضر فلم يجدوه فيها وردوا الرجل إلى الملك وقالوا : هذا أكذب خلق الله فما رأينا مما قال شيئاً فقتله وخلى عن الآخر . وما زال أهل تلك المدينة يعملون بالمعاصي فغضب الله عز وجل عليهم فبعثني فأدخلت جناحي تحتها فاقتلعتها ورفعتها حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديوك فقلبتها فجاءت تهوى بمن فيها ولم ينج منها إلا رجل وامرأة فجعلا يدوران في حدود المدينة فلا يلقى كل واحد منهما غير صاحبه فلما كثر ذلك اعتزلا .

فقال الرجل : أيتها المرأة قد رأيتِ ما أصاب القوم وإنه لم يفلت غيرى وغيرك فعاهد كل منهما صاحبه على الكتمان وقال : هل لك أن تتزوجيني فنخرج

إلى مدينة من هذه المدائن فأكتسب عليك وتكسبين عليَّ حتى يقضى الله من أمره مايشاء ؟

ففعلا وذهبا إلى مدينة لبعض الفراعنة قيل : هو فرعون موسى فاتخذا لأنفسهما بيتا وولد لهما أولاد وتلطفت المرأة لآل فرعون فحضنت عندهم فبينما هى ذات يوم تسرّح رأس بنت الملك إذ سقط المشط من يدها فقالت : باسم الله تعس مَن كفر بالله . فقتلها على ما فصّلتُهُ فى محله هى وزوجها وأولادهما فى قِدر نحاس مغلاة بالزيت إذ أبوا إلا الإسلام. فكل من الرائحة تفوح من حيث جمعوا عظامها. والمشهور أنها هى الرائحة التى بلغت رسول الله ﷺ ليلة الإسراء فسأل جبريلَ عنها فأخبره عليهما السلام ولا تزول تلك الرائحة إلى يوم القيامة .

وكان الخضر فى أيام أفريدون الملك على قول عامة أهل الكتاب .

وقيل : كان على مقدمة عسكر ذى القرنين الأكبر الذى كان فى أيام الخليل عليه السلام وهو الذى قضى ببئر النسمة وهى بئر احتفرها إبراهيم عليه السلام لماشيته فى صحراء الأردن وإن قوما من أهل الأردن ادعوا الأرض التى احتفرها إبراهيم عليه السلام .

وقيل : إن ذا القرنين الذى على عهد إبراهيم وكان الخضر على مقدمته هو أفريدون الملك .

وزعم بعضهم أن الخضر من ولد مَن آمن بإبراهيم واتبعه على دينه ببابل .

وروى ابن إسحاق عن وهب بن منبه أن الخضر هو أرميا بن خلقيا من سبط هارون بن عمران وهو الذى بعثه الله فى أيام قاسية بن أرمص ملك بنى إسرائيل ورُدَّ بأن قاسية بن أرمص كان فى عهد كنشاسب بن هراسب وفى أيام بُخت نَصَّر وبين كنشاسب وبين أفريدون من الدهور ما لا يجهله ذو علم بأخبار الناس وأيامهم وقد صح عنه ﷺ أن صاحب موسى بن عمران هو الخضر .

وقد يقال : كان على مقدمة ذى القرنين الأكبر صاحب إبراهيم وشرب من ماء الحياة ولم يبعث فى أيام إبراهيم ومَن بعده إلى أيام قاسية .

وعن أنس بن مالك : خرجت مع رسول الله ﷺ وإذا بصوت يجيبنى من شِعب قال : انطلق وأبصر هذا الصوت .

فانطلقت فإذا رجل يصلى تحت شجرة وهو يقول : اللهم اجعلنى من أمة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها

فأتيت رسول الله ﷺ فأعلمته بذلك .

فقال : انطلق فقل له : إن رسول الله ﷺ يقرؤك السلام ويقول لك : مَن أنت ؟

فأتيته فأعلمته بما قال رسول الله ﷺ .

فقال : اقرأ رسول الله ﷺ السلام وقل له : أخوك الخضر يقول لك : ادع الله أن يجعلنى من أمتك المرحومة .

وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى ﷺ قال : ألا أحدثكم بحديث ؟

قالوا : بلى يا رسول الله ﷺ .

قال : بينما الخضر يمشى فى سوق من أسواق بنى إسرائيل إذ لقيه مكاتَب فقال له : تصدَّق علىَّ بارك الله لك .

فقال : آمنت بالله ما قدَّر الله من أمرى سيكون ما معى من شىء أعطيكه .

فقال له السائل : أسألك بوجه الله إلا ما تصدقت علىَّ .

قال له الخضر : آمنت بالله ما يقضى من أمرى سيكون ما معى شىء أعطيكه .

فقال الرجل : تصدَّق علىَّ بارك الله لك فإنى أرى الخير فى وجهك رجوت الخير من قبلك .

فقال له الخضر : آمنت بالله مما يقضى الله من أمرى سيكون ما معى شىء أعطيكه إلا أن تأخذ بيدى وتدخلنى السوق وتبيعنى .

قال الرجل : وهل يكون مثلك يباع ؟

قال: الحق أقول : سألتنى بعظيم سألتنى ربى. قد أجبتك فخذ بيدى وأدخلنى السوق وبعنى .

فأدخله السوق وباعه بأربع مائة درهم فلبث عند المبتاع أياما لا يستعمله فى شىء .

فقال له الخضر : استعملنى .

فقال له : إنك شيخ كبير وأكره أن أشق عليك .

قال : لا يشق ذلك علىّ .

قال : فقم انقل هذه الحجارة من هاهنا إلى هاهنا . وكانت الحجارة لا ينقلها إلا شاب فى يوم تام . فقام فنقلها فى ساعة واحدة وأمده الله تعالى على نقلها بملك من الملائكة فتعجب الرجل منه فقال له : أحسنت .

ثم عرض للرجل سفر فقال للخضر عليه السلام : إنى أريد أمينا ناصحا فاخلفنى فى أهلى .

قال : نعم إن شاء الله تعالى فاستعملنى فى شىء .

قال : أكره أن أشق عليك .

قال : لا يشق ذلك علىّ .

قال : اضرب لبِناً لقصر أريده ووصفه له ثم خرج لسفره فلما قضى حاجته ورجع من سفره إذا هو بالقصر قد شُيّد بنيانه على ما أراد . فازداد منهُ تعجبا وقال له : مَن أنت ؟

قال : أنا المملوك الذى اشتريت .

قال : سألتك بوجه الله إلا ما أخبرتنى مَن أنت ؟

فقال له الخضر : إن هذا القسم هو الذى أوقعنى فى العبودية . أنا الخضر . سألنى سائل بوجه الله أن أعطيه فلم يكن معى شىء أعطيه فأمكنته من نفسى حتى باعنى منك . وبلغنى أنه من سُئل بوجه الله العظيم فرد سائله وهو يقدر على حاجته وقف يوم القيامة بين يدى الله عز وجل ليس على وجهه لحم ولا جلد .

قال : فانكب الرجل عليه وهو يقول : بأبى أنت وأمى شققتُ عليك ولم أعرفك فاحكم على فى مالى وأهلى وأحبّ الأشياء إليك .

قال : أحب الأشياء إلىَّ أن تخلى سبيلى أعبد ربى . وكان الرجل كافراً فأسلم على يديه وأعطاه أربع مائة دينار وخلى سبيله .

قيل : فأوحى الله إليه : قد نجيتك من الرق وأسلم الكافر وأعطاك مكان كل درهم دينارا ولا يخسر مع الله أحد والله أعلم .

(وَيَسْأَلُونَكَ) أى اليهود أو قريش : أبو جهل وأتباعه بإرسال اليهود إياهم (عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ) الإسكندر الرومى .

قال وهب : لقب بذلك لأنه ملك فارسَ والروم .

ورُوِى : الروم والترك .

وقيل : المشرق والمغرب .

وقيل عن النبى ﷺ وعن الزهرى : لأنه طاف قرنى الدنيا : الشرق والغرب .

وقيل : لأنهُ انقرض فى أيامه قرنان من الناس .

وقيل : كان القرنان حسنتين .

وقيل : غديرتين تصلان إلى الأرض . إنهُ كان لهُ قرنان أى ضفيرتان .

وقيل : لأنهُ كان لتاجه قرنان .

وقيل : إنهُ كان على رأسه ما يشبه القرنين وتواريهما العمامة .

وقيل : لأن صفحتى رأسه من نحاس .

وقال على : لأنهُ ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات فأحياه الله وضرب على قرنه الأيسر فمات فأحياه الله قال : وفيكم مثلهُ .

وقيل : كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحييه الله تعالى .

وقيل : لأنه أدخل النور والظلمة وأمرها الله بالامتثال له .

وقيل : لأن قرنى الشيطان عند مطلع الشمس وقد بلغه .

وقيل : لشرف أبويه .

وقيل : إنه يقاتل بيديه وركابيه .

وقيل : لأنه علم الظاهر والباطن .

وقيل : لأنه رأى فى منامهِ أنه أخذ بقرنى الشمس .

ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته كما يقال : زيد شجاع ينطح أقرانه .

وما ذكرته من أنه رومى هو المشهور .

وقيل : هو عربى من أهل اليمن من حمير .

قال الفخر عن أبى الريحان المسرورى المنجم : إنه من حمير وإن اسمهُ نوار ابن سمر بن عز بن أفنويس الحميرى وهو الذى افتخر به أحد شعراء حمير وقال :

قد كان ذو القرنين قِدْما مسلما ملكا على الأرض غير مفند

بلغ المشارق والمغارب يلتقى أسباب ملك من كريم مرشد

فرأى إياب الشمس عند غروبها فى عين ذى خلب ونظمة حرمد

وهو وَلَدُ عجوزٍ ليس لها غيره واسمه إسكندر بن فيلفوس .

وقيل : مرزبان بن مرزبة اليونانى من ولد يونان بن يافث بن نوح .

وقيل : اسمهُ عبد الله

وقيل : الصعب .

وقيل : المنذر .

وقيل : أفريدون. ورجح الثلاثى الصعب قال: وليس هذا الإسكندر اليونانى لأن هذا فى زمان إبراهيم والإسكندر كان قريباً من زمان عيسى وبينهما أكثر من ألف سنة .

والحق أن الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن هو الأول لما ذكر ولأنه من العرب والإسكندر من اليونان ولأنه صالح أو نبى والإسكندر كافر كما قال الفخر الرازى . وهو مسلم إجماع فقيل : نبى ويدل له قوله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين » وخطاب الله تعالى لا يكون إلا مع الأنبياء إلا أن يقال : إنه خطاب بإلهام أو على لسان غيره وقيل : ولى .

وزعم بعض أنه ملك من الملائكة .

وروى عن عمر بن الخطاب أنه سمع رجلا يقول : يا ذا القرنين فقال: اللهم اغفر . أما رضيتم أن أن تتسمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة .

قال على : سخر له السحاب ومدت له الأسباب وبسط له النور .

روى أنه قال : وكان عليه الليل والنهار سواء وسهل عليه السير فى الأرض وذللت له طرقها . وسئل عنه فقال : أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه رواه أبو الطفيل .

وسأله ابن الكوا : ما ذو القرنين أملك أم نبى ؟

فقال : ليس بملك ولا نبي ولكن كان عبداً صالحاً ملكاً عادلا وعليه الأكثر .

وذكر بعضهم أنه إذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وأعطاه الله العلم والحكمة وألبسه الهيبة وملّكه الأرض .

قيل : مَلك الأرض مؤمنان : ذو القرنين وسليمان . وكافران : نمرود وبُخْتَ نَصّر .

روى أنه لما مات أبو ذي القرنين جمع ملوك الروم بعد أن دانت له طوائف ثم مضى إلى ملوك العرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم رجع إلى مصر وبنى الإسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام ودخل بيت المقدس وقرب إليه القربان ثم انعطف على أرمينية وباب الأبواب وبنى السد ودانت له ملوك العراق والنبط والبربر واستولى على ملوك الفرس ثم مضى إلى الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ثم رجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات وحمل إلى الإسكندرية

وقيل : أوصى أن يحمل في تابوت من ذهب إلى بلده في الروم .

وروى أنه كتب إلى أمه وهي في الإسكندرية قبل وفاته بقليل : إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل ملك وأعدى لهم طعاما ووكلى بالأبواب في منع من أصابته مصيبة في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد ففعلت فلم يدخل إليها أحد فعلمت أن الإسكندر عزاها في نفسه

وروى أنه كتب إليها : أن اعملى طعاماً وأمرى مناديا : ائتوا الطعام إلا من أصابته مصيبة في قريب أو صاحب ففعلت فلم يأت أحد فقالت: لِمَ لا يأتون ؟ فقيل لها : أنت منعتِهم ؛ إذ لا أحد إلا وقد أصيب بذلك .

مقالات : رحم الله ابنى عزالى فى نفسه وهو حى . ويأتى كلام فى هذا . وعمره نيف وثلاثون سنة وقد بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو القدر المعمور من الأرض .

وعن وهب بن منبه أن ذا القرنين رحل من الروم ابن عجوز لما بلغ كان عبداً صالحاً وقال الله عز وجل له : إنى باعثك إلى أمم مختلفة ألسنتهم منهم أمتان بينهما طول الأرض إحداهما عند مغرب الشمس يقال لها : ناسك والأخرى عند مطلعها يقال لها : منسك وأمتان بينهما عرض الأرض إحداهما فى القطر الأيمن يقال لها : هاويل والأخرى فى القطر الأيسر يقال لها : تاويل وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج فقال ذو القرنين: يارب بأى قوة أكابرهم ؟ وبأى جمع أكاثرهم ؟ وبأى لسان أناطقهم ؟

قال الله تعالى : إنى سأطوقك وأبسط لسانك وأشد عضدك فلا يهولنك شىء وألبسك ثوب هيبة فلا يرعبك شىء وأسخر لك النور والظلمة وأجعلهما من جنودك فالنور يهديك من أمامك والظلمة تحوطك من ورائك .

فانطلق حتى أتى مغرب الشمس فوجد جمعاً وعدداً لا يحصيه إلا الله فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم فى مكان واحد فدعاهم إلى الله وعبادته فمنهم من آمن ومنهم من صد فعمد إلى من صد فأدخل عليهم الظلمة فدخلت أجوافهم وبيوتهم فدخلوا فى دعوته .

فجند من أهل المغرب جنداً عظيما وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى أتى هاويل ففعل فيهم كفعله فى ناسك ثم مضى حتى أتى منسك ففعل فيهم كفعله فى الأمتين وجند منهم جنداً ثم أخذ ناحية اليسرى فأتى تاويل ففعل فيهم كفعله فى من قبلهم ثم عمد إلى الأمم التى فى وسط الأرض .

فلما كان مما يلى منقطع الترك مما يلى المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين إن بين هذين الجبلين خلقا أشباه البهائم يفترسون الدواب والوحوش كالسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح خلقه الله فى الأرض وليس يزداد خلق كزيادتهم فلا شك أنهم سيملكون الأرض ويظهرون عليها ويفسدون فيها « فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا قال : ما مكنى فيه ربى خير » وقال : أعدوا لى الصخور والحديد والنحاس حتى أعلم علمهم .

فانطلق حتى توسط بلادهم فوجدهم على مقدار واحد يبلغ طول الواحد منهم نصف الرجل المربوع منا لهم مخاليب وأضراس كالسباع والشعر يوارى أجسادهم يتقون به الحر والبرد ولكل واحد أذنان عظيمتان يفترش إحداهما ويلتحف بالأخرى يصيف فى واحدة ويشتو فى الأخرى ويتسافدون تسافد البهائم حيث التقوا فانصرف فقاس ما بين الصدفين وحفره إلى الماء وبناه .

قال عكرمة بن عامر الجهنى : خرجت من عند رسول الله ﷺ فى اليوم الذى أخدمه فيه وإذا أنا برجال من أهل الكتاب معهم مصاحف وكتب فقالوا : استأذن لنا على رسول الله ﷺ فانصرفت إليه فأخبرته بمكانهم فقال : مالى ولهم يسألوننى عما لا أدرى أنا عبد لا أعلم إلا ما علمنى الله ثم قال : ائتنى بوضوء فأتيته بوضوء فتوضأ ثم قام إلى المسجد فركع ركعتين فما انصرف حتى بدا لىَ السرور فى وجهه فقال : اذهب فأدخلهم وأدخل من وجدت بالباب من أصحابى . فلما وقفوا عليه قال : إن شئتم أخبرتكم بما أردتم أن تسألونى عنه قبل أن تتكلموا أو إن شئتم سألتم وأخبرتكم .

قالوا : أخبرنا .

قال: جئتم تسألوننى عن ذى القرنين وسأخبركم كما تجدونه فى كتبكم مكتوباً: إن أول أمره أنه كان غلاماً من الروم وأعطى ملكا. فسار حتى انتهى إلى أرض مصر فبنى عندها مدينة يقال لها : الإسكندرية فلما فرغ من بنيانها أتاه ملك فعرج به ثم قال: انظر ما تحتك.

فقال : أرى مدينتى وأرى مدائن معها ثم عرج به.

فقال : انظر.

فقال : قد اختلطت مدينتى مع المدائن ثم زاد فقال : انظر.

فقال : أرى مدينتى وحدها ولا أرى غيرها.

فقال له الملك : إنما تلك الأرض كلها وذلك السواد المحيط بها البحر وإنما أراد الله أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطاناً فيها فسر فى الأرض وعلم الجاهل وثبِّت العالم.

فسار حتى بلغ مغرب الشمس ثم سار حتى بلغ مطلع الشمس ثم أتى السدين وهما جبلان لينان يزلق عنهما كل شىء فبنى السد ووجد يأجوج ومأجوج يقاتلون قوماً ثم مضى ووجد أمة من الغرانيق يقاتلون قوما كذراع ثم مضى ووجد أمة يقاتلون قوما وجوههم كوجوه الكلاب ثم مضى فوجد أمة من الحيات تلتقم الحية الصخرة العظيمة ثم أفضى إلى البحر المحيط بالأرض.

فقالوا : نشهد أن أمره كان هكذا وإنا نجده فى كتابنا هكذا.

وروى أنه رجع من بابل وقد أحاط البلاء به ، وظهرت به آثار السقام وقد رأى فى منامه أنه يموت فوق أرض من حديد وتحت سماء من حديد ثم أخذه العطش والحمى ففرشوا تحته أدرع الحديد وظللوا عليه بالحديد فأيقن بالموت وأوصى إلى أمه أن تعمل وليمة وأن لا يحضرها من أصيب بخليل أو محبوب.

ولما مات وضع فى تابوت من الذهب ليحمل إلى أمه بالإسكندرية وله ست وثلاثون سنة وكانت مدة ملكه تسع سنين فقال حكيم الحكماء : ليتكلم كل منكم بكلام ليكون للخاصة مذكراً وللعامة واعظاً .

فقام أحدهم فقال : لقد أصبح مُقتاس الملوك أسيراً .

وقال آخر : هذا الإسكندر كان يحبس الذهب وصار الذهب يحبسه .

وقال الآخر : العجب كل العجب أن القوىّ قد غُلب .

وقال آخر : قد كنت لنا واعظاً ولا واعظ أبلغ من وفاتك .

وقال آخر : رب هائب أن يذكرك سرًّا وهو الآن لا يخاف جهراً .

وقال آخر : يا من ضاقت عليه الأرض فى طولها وعرضها ليت شعرى كيف حالك فى قدر طولك منها .

وقال آخر : يا من كان غضبه الموت هلّا غضب على الموت .

وقال آخر : ما لك لم يتحول عضو من أعضائك وقد كنت تزلزل الأرض .

ولما ورد على امه فى التابوت شرعت فى عمل الوليمة وقالت : لا يحضرها من أصيب بمحبوب أو خليل ، فلم يحضر أحد .

فقالت : ما بال الناس لا يحضرون الوليمة ؟

فقالوا : أنت منعتِهم من الحضور .

قالت : كيف ذلك ؟

قيل لها : قد أمرتِ أن لا يحضرها من فقد محبوبا أو خليلا وليس فى الدنيا أحد إلا وقد أصيب بذلك فخف بعض ما بها من الحزن وتسلت بعض تسلية وقالت : رحم الله ولدى لقد عزّانى أحسن تعزية وسلّانى بألطف تسلية .

(قُلْ) مجيبا لهم (سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ) سأقص عليكم أيها السائلون عن ذى القرنين (مِنْهُ) من حاله . وقيل : من الله متعلق بأتلوا وبمحذوف حال من قوله :

(ذِكْرًا) أى خبرا . والسين هنا وفى قوله « سأنبئك » للحال المتصلة بحال التكلم وإن شئت فقل للاستقبال المتصل بحال التكلم بلا مهلة .

وقيل : للاستقبال المفصول بقوله : « عليكم منه ذكرا » وقوله : « بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا » .

وقيل : إنه لم يقل : أما السفينة الخ متصلا بقوله : « ما لم تستطع صبرا » بل قال ذلك وسكت فأمسكه موسى بثوبه وقال : لا أفارقك حتى تخبرنى فأخبره وما يدرى أحد مقدار ما يمكث غير مخبر له لو لم يمسكه .

وذكر الزمخشرى أن السين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة يعنى أنها تفيد تأكيد الوعد . وقد صرح بذلك كما قال ابن هشام فى قوله تعالى : « أولئك سيرحمهم الله » لكن ذلك مع الاستقبال فى الآية فيجوز أن تكون فى سورة الكهف لتأكيد الوعد بحصول الفعل بدون استقبال وذلك لأنه لا فسحة بين تلاوة رسول الله ﷺ على سائليه قوله تعالى : « قل سأتلوا عليكم منه ذكرا » وتلاوته عليهم قوله تعالى : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ) مهدنا له الأسباب فى الأرض أو مكنا له أمره فيها يتصرف كما شاء .

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أراده وتوجه إليه مما يستعين به الملوك على فتح المدن ومحاربة الأعداء ومما أراده هو مبتدعا له . (سَبَبًا) ما يتوصل به إلى

المقصود من علم أو قدرة وآلة . وفسر بالطريق وبالعلم يتسبب به إلى كل ما يريد ويسير به فى أقطار الأرض وفسر بالبلاغ إلى حيث أراد .

وذكر بعضهم أن الله عز وجل قرب له أقطار الأرض . (فَأَتْبَعَ) سلك .

وقرأ الكوفيون وابن عامر بقطع الهمزة وإسكان التاء غير مشددة وكذا فى الموضعين الآتيين (سَبَبًا) طريقا هى إلى المغرب .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تغرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ) أى فى عين ذات حمأة . والحمأة : الطينة السوداء المنتنة . ويقال : حمئت البئر أى صارت فيها الحمأة .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وأبو بكر حامية أى حارة . وهى قراءة ابن مسعود وطلحة وابن عمر والحسن .

وعن أبى ذر رضى الله عنه : كنت رديف رسول الله ﷺ على جمل فرأى الشمس حين غابت فقال : يا أبا ذر أتدرى أين تغرب هذه ؟

قلت : الله ورسوله أعلم . فإنها تغرب فى عين حامية . ولا منافاة بين القراءتين لجواز أن تكون العين جامعة للطينة السوداء وللحرارة .

وقرأ ابن عباس حمئة عند معاوية . فقرأ معاوية حامية بالألف وياء .

فقال ابن عباس : حمئة .

فقال معاوية لعبد الله بن عمر : كيف تقرأ ؟

قال : كما يقرأ أمير المؤمنين . ثم وجه إلى كعب الأحبار : كيف تجد الشمس تغرب ؟

قال : فى ماء وطين . كذلك نجد فى التوراة .

وروى أنه قال : فى ناط أى ماء وطين فوافق قراءة ابن عباس وكان رجل حاضرا فأنشد :

فرأى مغيب الشمس عند ماء بها . . . . البيت

وروى أن ابن عباس وعمرو بن العاص اختلفا فى القراءة فجعل بينهما كعبا فوافق ابن عباس .

ولعل غيوبها فى ماء وطين إنما هو بحسب نظر بالغ بساحل البحر المحيط بأن يكون قد بلغه ذو القرنين فرآها كذلك إذ لم يكن – حيث يقع بصره – غير الماء كما أن راكب البحر يراها كأنها تغيب فى البحر ولذلك قال : « وجدها تغرب » ولم يقل : كانت تغرب فكأنه قيل: تغرب فى ظنه أو علمه غير المطابق أو فى الحال التى تقيها كأنها تغرب فى ذلك ؛ فإن جرم الشمس أضعاف الدنيا ولكن رواية كعب يتبادر منها أنها تغيب فى ذلك حقيقة ولو احتملت التأويل المذكور وعلى التأويل قرب الله له ساحل الجانب الآخر غير الذى هو فيه بقدر ما يرى طينه ويرى الشمس كأنها غائبة فيه وتكون العين البحر المحيط . ويجوز أن تكون فى معنى عند أى عند عين حمئة .

(وَوَجَدَ عِنْدَهَا) أى عند العين من الجانب الذى هو فيه (قَوْمًا) لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما لفظه البحر وهم كفار .

وقال ابن جريج: هم قوم فى مدينة لها اثنا عشر ألف باب وهم كفار. ويقال: إنها جابرسا واسمها بالسريانية حرحيسا .

وقيل : بعضهم مؤمن وبعضهم كافر .

وروى أنهم قوم من ثمود آمنوا بصالح وفيهم كفار لولا ضجيج أهل تلك المدينة لسمع الناس وجبة الشمس حين تجب أى حين تغيب . فإن كان هذا

حديثه عنه ﷺ فلا إشكال وإلا فما لنا لا نسمع ضجيجهم الغائب لوجوبها عن أسماعنا

(قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ) بالقتل على كفرهم (وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) بالإرشاد إلى التوحيد وتعليم الشرائع وذلك تخيير له بين قتلهم ودعائهم إلى الإيمان وقيل : تعذيبهم : قتلهم واتخاذ الحسن فيهم : أسرهم سماه إحساناً بالنظر إلى القتل وفى مقابلته . وقيل : تعذيبهم : قتلهم واتخاذ الحسن فيهم : تركهم . وقيل : اتخاذ الحسن : أن يأسرهم فيعلمهم الإيمان . وعلى أن فيهم مؤمنين وكافرين فالمراد بالقوم الكافرون والكلام فى التعذيب واتخاذ الحسن كما أن المراد بالقوم الكافرون والمؤمنون وإما تقسيم لفعله فيهم فالتعذيب للكفرة واتخاذ الحسن المؤمنين والأول أنسب بقوله : (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ) نفسه بالكفر والمعاصى والإصرار عليهما بعد أن دعوته للإيمان .

(فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ) نقتله إن لم يكن كتابيو معطياً للجزية فهو كحكم هذه الشريعة . ظاهر كلام بعض أنه قال : الحسن .

(ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ) للبعث إذا قامت الساعة .

(فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا) غير مألوف وغير معروف لشدته قال قتادة : كان يطبخ من أصر على الكفر فى القدور فيجتمع عليه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . وقرئ بإسكان الكاف .

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ) وحد الله جل وعلا .

(وَعَمِلَ صَالِحًا) قبل دعوتى أو بعدها

(فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى) أى جزاء الدار الحسنى وهى الجنة وجزاؤها ما فيها

من التعيم أو الإضافة للبيان أى جزاءً هو الحسنى فهى الجنة ويجوز أن يكون المعنى جزاء الفعلة الحسنى أو جزاء فعلته الحسنى وهى الإيمان والعمل الصالح.

وقرئ بتنوين جزاء فيكون الحسنى بدله. وقرأ حمزة والكسائى ويعقوب وحفص بنصب جزاء وتنوينه فيكون حالا من الضمير المستتر فى قوله « له » والحسنى على هذا مبتدأ أى له الحسنى حال كونها مجزياً بها أو مفعولا مطلقاً مؤكداً للجملة المذكورة قبله كقولك: زيد أبوك عطوفا والعامل محذوف أى مجزية جزاء بها وهذه الجملة المحذوفة مستأنفة أو حال من الضمير المستتر فى قوله له أو تمييزاً للنسبة وبه قال الفراء.

وقرأ بعضهم جزاء بالنصب وعدم التنوين وإعرابه كما مر والحسنى مبتدأ كما مر وترك تنوينه لالتقاء الساكنين وهو شاذ لأن التنوين الذى يحذف للساكن هو تنوين الاسم قبل ابن إذا كان ابن تابعاً له.

(وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) مفعول بقول وفيه معنى الجملة أى نقول له كلاماً يتضمن اليسر أى نأمره بما يسهل عليه ونلين له القول وذلك كالزكاة والخراج لمنافع المؤمنين بعضهم من بعض لا له هو ولا لمن معه كما لم يأخذ أجرة على السد.

وقرئ بضم السين كالياء انظر كيف فعل حين خيره الله اختار ما هو أليق بالإسلام وأشد قرباً إلى الله وهو الدعوة إليه.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) إلى المشرق.

(حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ) أى الموضع الذى تطلع عليه أولا من معمور الأرض وهو اسم مكان

وقرئ بفتح اللام على خلاف القياس فيه أو على أنه مصدر ميمى على حذف مضاف أى مكان مطلعها أى مكان طلوعها.

(وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) م قوم من الزنج لم يجعل الله سبحانه وتعالى لهم من دون الشمس ستراً من لباس ولا سقف ولا بناء ولا شجر وكانت أرضهم لا تحمل البناء. قال كعب الأحبار : أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب فإذا طلعت الشمس دخلوها فإذا ارتفع النهـار خرجوا إلى معائشهم .

وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الأخرى ومعنا صاحب يعرف لسانهم فقال لهم : أحببنا أن ننظر كيف تطلع الشمس .

فبينما نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشى عليّ ثم أفقت وهم يمسحوني بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سرباً لهم فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم .

قال مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض .

قيل : طرفهم مما يلي الشمال مجاورون يأجوج ومأجوج قيل : إذا طلعت دخلوا أسرابهم وإذا زالت عنهم خرجوا إلى معائشهم وحروثهم .

وقيل : لا يخرجون إلا ليلا .

وقيل : هم عراة إذا طلعت نزلوا في الماء وإذا ارتفعت خرجوا كالبهائم .

وقيل : قوم مؤمنون من قوم هود واسم مدينتهم جيلقا وبالسريانية مرقيسا .

(كَذَٰلِكَ) خبر لمحذوف أي أمره معهم كذلك وهذا من باب التخلص

الهديى ويجوز تعليقه بوجد أى وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كما وجدها تغرب فى عين حمئة قريبة المنظر فى الحالين هذان الوجهان ظهرا لى .

وقال غيرى : كما بلغ مغرب الشمس بلغ مطلعها فيتعلق ببلغ الثانى فى الآية .

وقيل : يتعلق بمحذوف أى حكم فى القوم عند مطلع الشمس كما حكم فى القوم عند مغربها وصححه بعضهم .

وقيل : يتعلق بنجعل أى لم نجعل لهم من دونها ستراً كما جعلنا لكم ستراً بحصون وجبال وشجر ولباس فالإشارة إلى ما هو ستر .

وقيل : صفة لمصدر محذوف لوجد أو لنجعل أو نعت لقوم أى على قوم مثل ذلك القوم الذين تغرب عليهم الشمس فالكفر والحكم عليهم ثم رأيت الوجه الأول الذى ظهر لى منصوصاً عليه للشيخ هود رحمه الله والزمخشرى والقاضى والعبارة له هكذا أى أمر ذى القرنين كما وصفناه فى رفعة المكان وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره فى أهل المغرب من التخيير والاختيار .

(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) أى أحاط علمنا بما عند ذى القرنين من جنود وآلات وعدد وأسباب ملك . فخبرا تمييز محول عن الفاعل بمعنى العلم .

والمراد بهذه الجملة تكثير ما عند ذى القرنين من ذلك أحطنا بظواهر ذلك وخفاياه البالغة مبلغا لا يحيط به غيرى لأنى اللطيف الخبير ويجوز أن يراد بما لديه ما عنده من الصلاحية للملك وتأهله له ويجوز أن يكون خُبراً مفعولا مطلقاً لتضمن أحطنا معنا علمنا والخبر هو العلم .

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا) إلى جهة الشمال .

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) بين الجبلين اللذين خلقهما سدا ليأجوج ومأجوج والشبيهين بالسد الذى يبنى حاجزاً للشىء أو اللذين تجد يا محمد اليوم سدة

بناها ذوالقرنين بينهما لو رأيتهما. وعلى كل حال هما جبلان فى آخر الشمال فى منقطع أرض الترك منيعان من ورائهما يأجوج ومأجوج وقد افتخر ملك تلك الجهة المتصلة بهما على ملك قسطنطينية بأن ملكه وصل سد يأجوج ومأجوج حين قاتل الترك الموحدون المالكون للقسطنطينية هؤلاء الترك المشركين المدعين أن ملكهم اتصل بالسدين واستعان الترك الموحدون بعساكر العرب وغيرهم وبروم المغرب من الفرنسيس وغيرهم وذلك فى حين بلوغى فى تفسيرى هذا سورة الأعراف وتسمى هؤلاء الترك الكفرة بالمسك وهو بلغتهم الذباب لكثرتهم.

وذكر بعضهم أن الجبل الذى فيه السد يلى الروم من جانبه الغربى وأن طوله سبع مائة فرسخ وينتهى إلى بحر الظلمات.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بين السدين بفتح السين والمعنى واحد وهما لغتان. وقيل السد بالضم: لما خلقه الله وبالفتح لما عمله الناس لأنه فى الأصل مصدر سمى به حدث يحدثه الناس. وقيل بالعكس.

وقيل فى المضموم: إنه بمعنى مفعول أى مما فعله الله. وقيل: السدان: جبلا أرمينية وأذربيجان والصحيح الأول وبين فى الآية مفعول به لبلغ. ووقع فاعلا لتقطع فى قراءة بعض « لقد تقطع بينكم » برفع بين ووقع مضافاً إليه فى قوله: « فراق بينى وبينك » وهو من الظروف المتصرفة لذلك يقال: ولا دليل فى ذلك لجواز أن يكون بمعنى الوصل فى « لقد تقطع بينكم » وفى « فراق بينى وبينك » وفى الآية أيضاً على حذف المضاف أى بلغ موضع وصل السدين أى حيث وصل بينهما أو بمعنى الفصل كذلك أى موضع الفصل بينهما قبل أن يوصل سدا بآخر.

ويحكى أن الواثق بالله بعث بعض من يثق به من أتباعه ليعاينوا السدين

فخرجوا حتى وصلوا إليه وشاهدوه فوصفوا أنه بناء من لَبِن حديد مسدود بالنحاس المذاب وعليه باب مقفل .

والذى حفظت قديماً أن سلاما الترجمان كان عارفاً بألسنة كثيرة حتى قيل : إنه يعرف أربعين لغة ويجارى فيها ويقول : إنهُ رأى هذا السد عياناً بعثه الواثق من خلفاء بنى العباس ليتحققه .

فرجع إليه بعد سنتين وأربعة أشهر فأخبر أنه سار ومن معه حتى وصلوا إلى صاحب السرير بكتاب الواثق فأكرمهم وأنفذ معهم أدلاء .

فمضوا حتى دخلوا فى تخوم سحرة وساروا إلى أرض ممتدة طويلة كريهة الرائحة فقطعوها فى عشرة أيام وكان معه شىء يشمونه لأن رائحتها تأخذ على القلب وخرجوا منها إلى أرض خراب لا حسيس بها ولا أنيس مسيرة شهر .

وخرجوا إلى حصون بالقرب من جبل السد أهلها يتكلمون بالعربية والفارسية وهناك مدينة عظيمة اسم ملكها خاقان أنكس .

فسألونا عن حالنا فأخبرناهم أن أمير المؤمنين الخليفة أرسلنا لنرى السد عياناً ونرجع إليه بصفته فتعجب هو ومن عنده منا ومن قولنا : أمير المؤمنين الخليفة وبين المدينة والسد فرسخان .

وسار معنا ناس منهم فرأينا طول السد على الأرض مائة ذراع وخمسين ذراعاً وفيه باب حديد طوله إلى جهة السماء مائة وخمسون ذراعا له عضادتان كل عضادة خمس وعشرون وارتفاعها مائة وخمسون وبأعلاها دورند من حديد طوله مائة ذراع وخمسون ذراعاً وهي القبة العليا وفوقه شرافتان من حديد فى طرف كل شرافة قرنان من حديد مائلان إلى الشرافة الأخرى كل ذلك من لَبِن

حديد مغيب فى نحـاس مذاب والبابان مرصعان مغلقان عرض كل مصراع خمسون ذراعا وعلى الباب قفـل حديد طوله سبعة أذرع وغلظه ذراع ونصف وارتفاع القفل من الأرض أربعون ذراعا وفوق القفل بخمسة أذرع معلق تعلق به مفتاح وطول المفتاح ذراع ونصف وله اثنتا عشرة سِنّة من حديد والعتبة السفلى سمكها عشرة أذرع وكل تلك الأذرع بالرشاشى ورئيس تلك الحصون يركب فى كل جمعة فى موكب عظيم حتى يأتى الباب وبأيديهم مرزبّات من حديد يضربونه فيسمعون دويا من خلف الباب كالرعد فيعلمون أن هناك حفظة .

وقرب السد حصن طوله عشرة فى عشرة وبجانب الباب حصنان كل منهما مائة ذراع بينهما عين ماء عذب وفى أحدهما بقية من آلات البناء وهى قدور حديد أكبر من قدور الصابون وهناك بقايا من لَبِن الحديد لزق بعضها ببعض من الصدأ طول كل لبنة ذراع ونصف فى عرض ذراع وارتفاع شبرين وأما الباب والقفل والدورند فكأنها فُرغ منها الآن غير صَدِئة دُهنت بأدهان الحكمة.

قال سلام الترجمان : سألت مَن هناك ؟ هل رأيتم قط أحدا منهم .

فأخبروا : أنهم رأوا عددا كثيرا فوق شرافات الباب فهبت ريح عاصف فرمت ثلاثة طول واحد منهم دون ثلاثة أشبار ولهم مخالب موضع الأظفار ذوو أنياب وأضراس كالسباع وإذا أكلوا بها يسمع لأكلهم حركة قوية ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان يفترش واحدة ويلتحف بالأخرى .

فكتب سلام الترجمان هذه الصفت كلها فى كتاب ورجـع إلى الواثق بالله تعالى .

ويسمى الجبل المحيط بهم قرنان وهو كالحائط لا يصعد إليه وعليه ثلوج أبدا وضباب لايزول أبدا صيفا ولا شتاء والله أعلم .

(وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ) يفهمون (قَوْلًا) .

وقرأ حمزة والكسائى بضم الياء وكسر القاف من أفقهه فالمفعول الأول محذوف أى لا يفقهون أحدا قولا .

قال ابن عباس : لا يفقهون كلام أحد ولا يفهم الناس كلامهم . قيل : هم الترك . والمشهور أن الترك قوم من يأجوج ومأجوج كانوا حين بناء السد خارجين عن الجبلين يغيرون فسموا الترك لأنهم تُركوا وراء السدين والمراد لا يكادون يفقهون قولا إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم الأخرس أو إلا بترجمان لقوله عز وجل : (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ) الخ مأثبت لهم القول . وفى مصحف ابن مسعود : « قال الذين من دونهم » أى من دون ذلك القوم : (إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ) وقرأ عاصم بهمزهما هنا وفى الأنبياء وهما عجميان فالمنع من الصرف للعجمة والعلمية على القبيلتين .

وقيل : عربيان من أج الظليم إذا أسرع أو من أجت النار إذا اشتعلت واتقدت .

وقيل : أجيج النار : ضوؤها ونورها شبهوا بهما لكثرتهم أو بالظلم لسرعتهم فى الأشياء وعلى أنهما عربيان من تلك الصيغ فأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وعليه فمنع صرفهما للعلمية على القبيلتين والتأنيث وقرىء ياجوج وماجوج .

(مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) يخرجون أيام الربيع إلى الأرض التى دون السدين فلا يدعون فيها شيئا أخضر إلا أكلوه ولا يابسا إلا حملوه وأدخلوه أرضهم فلقوا منهم أذى شديدا .

وقيل : يأكلون الناس ويقتلونهم .

وقيل : أرادوا أنهم إن خرجوا أفسدوا . قال مقاتل : هم ولد يافث بن نوح عليه السلام .

وقيل : إن آدم نام فاحتلم فاختلطت نطفته بالتراب فتولد منه هذا الحيوان فهم إخوة الناس من أبيهم كذا روى عن كعب الأحبار وليس بحديث . ويرده أن الأنبياء لا تحتلم وأن رؤياهم حق ووحى والاحتلام أمر باطل من الشيطان .

وفى الحديث : يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لايموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة ام وهم أصناف منهم ما طوله عشرون ذراعاً وما طوله ذراع وأقل وأكثر

وعن على أن لهم مخالب الطير وأنياب السباع وتداعى الحمام وتسافد البهائم ولهم شعور تقيهم الحر والبرد وإذا مشوا فى الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية ويمنعهم الله عز وجل عن دخول مكة والمدينة وبيت المقدس ويأكلون كل شىء يمرون به ومن مات منهم أكلوه

ويقال : إن صنفا منهم له أذنان فهو يلتحف إحداها ويفترش الأخرى .

وسئل رسول الله ﷺ : هل بلغتهم الدعوة ؟ فقال ﷺ : دعوتهم ليلة أسرى بى فلم يجيبوا فهم حلق للنار . قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة قال الله عز وجل : يا آدم أرسل بعث النار فيقول : يارب وما بعث النار ؟

فيقول الله تعالى : من كل ألف تسمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فاشتد الأمر على المسلمين .

فقال رسول الله ﷺ : أبشروا فإن يأجوج ومأجوج وسائر الكفار ألف إلا واحدا والواحد من المسلمين إلى الجنة

وذكر أصحاب التواريخ أن أولاد نوح عليه السلام ثلاثة : سام وحام

ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والبربر والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج .

قال ابن عباس: أولاد آدم عشرة أجزاء تسعة يأجوج ومأجوج وجزء سائر الناس .

وروى حذيفة مرفوعا عن النبي ﷺ أن يأجوج ومأجوج أمة كل أمة أربعة آلاف أمة لا يموت الرجل منهم حتى ينظر ألف ذكر من صلبه كلهم قد حملوا السلاح .

قال : هم ثلاثة أصناف كالأرز شجرة بالشام طوله مائة وعشرون ذراعا وصنف منهم طوله وعرضه سواء مائة وعشرون لا يقوم لهم جبل ولا حديد وصنف يلتحف أحدهم أذنه ويفترش الأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه ومن مات منهم أكلوه .

قال عليّ : منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط فى الطول .

وقيل : يأجوج من الترك و أجوج من الجبل والديلم .

وذكر بعضهم أن الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ اثنا عشر ألف فرسخ للسودان والهند وثمانية آلاف ليأجوج ومأجوج وثلاثة آلاف للروم وألف للعرب .

وذكر بعضهم أن يأجوج ومأجوج أخوان شقيقان من ذرية يافث ابن نوح .

وعن كعب : هم ثلاثة أصناف : صنف كالنخل الطوال نساؤهم منهم ، وصنف كالأرز ، وصنف أربعة أذرع طولا وأربعة عرضا ، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون الأخرى لهم كخراطيم الكلاب .

وقيل : هم مائة ألف أمة لا تشبه أمة أخرى .

وقال قتادة : هم اثنتان وعشرون قبيلة فساد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة وكانت قبيلة منهم غازية وهم الأتراك .

وقال الأوزاعى وعطية بن حسان : أمتان كل أمة أربع مائة ألف اه . قال عطية : لا يشبه أحد أحدا ولهم فى أرضهم ما يشتهون من ماء وشجر ونساء ذكره ابن عمر لسائله : ما طعامهم ؟ وسأله ذلك السائل : أهم كالبشر ؟ فقال : ما أجد أحدا من ولد آدم بأعظم منهم ولا أطول ولا يموت الميت منهم حتى يولد له ألف ولد تصاعدا .

وعن عمرو بن العاص : أن يأجوج ومأجوج ذرية جهنم ليس فيهم صديق وهم ثلاثة أصناف : على طول الشبر وعلى طول الشبرين وثلث عرضه وطوله سواء .

وعن الأوزاعى : أن الأرض سبعة أجزاء : ستة يأجوج ومأجوج وجزء سائر الخلق .

وروى عن رسول الله ﷺ : يأجوج أمة لها أربع مائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده ليس لله خلق ينمو كنمائهم فى العام الواحد ولا يكثر ككثرتهم يتداعون تداعى الحمام ويعوون عوى الذئب ومنهم من له قرنان وذنب وأنياب بارزة يأكلون اللحوم نيئة ويأكلون مشائم نسائهم .

وحكى أن فيهم طائفة لكل منهم أربعة أعين : عينان فى رأسه وعينان فى صدره ، ومنهم من له رجل واحدة ، ومنهم طائفة لا تأكل إلا لحوم النـــاس ولا تشرب إلا الدماء .

قيل : لا خلاف أن يأجوج ومأجوج بين المشرق والشمال والواضح عندى أنهم فى الشمال بالنسبة إلى قسطنطينية ولكن الجبل المحيط بهم مما يلى المغرب يصل إلى خلف بحر الظلمة الذى فى آخر الأندلس فى شماله وأظنهم عامرى ذلك إلى ما وراء الأندلس والجبل المحيط بهم مما يلى المشرق متصل إلى حدود الصين وأظن ما وراءه معمورا إلى ذلك بهم . فعن مكحول أن المسكون من الأرض مسيرة مائة عام ثمانون منها يأجوج ومأجوج وعشرة للسودان وعشرة لبقية الأمم وليس وراءهم إلا البحر المحيط .

وقيل : خلفهم ثلاث أمم : نسل وتاويل وتدريس . وعن الزهرى أن هذه الثلاثة من يأجوج ومأجوج .

وذكر بعض أن يأجوج ومأجوج يُرزقون المن من السحاب فى أيام الربيع فى كل عام فإذا تأخر عن وقته المعهود استمطروه كما يستسقى الغيث .

وروى أنه إذا طفت دابة من دواب البحر ألقاها الله إليهم ، ولهم نهر لا يعرف له قعر ، وإذا تقاتلوا وأسر بعضهم بعضاً طرحوا الأسارى فيه فيرون طيورا تخرج من الكهوف فى جانب الوادى تخطفهم قبل أن يصلوا إلى الماء وتأكلهم فى الكهوف ، وأرضهم ذات أشجار ومياه وخصب وثلج وبَرْد على الدوام ، وأكثرهم إفساداً قصار القدود الذين لا يجاوزون ثلاثة أشبار الذين وجوههم مستديرة جدا .

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) أجرة نخرجها لك من أموالنا : وقرأ حمزة والكسائى هذا وفى « قد أفلح » خراجا والمعنى عندهما واحد .

والذى حفظت قديماً أن الخراج ما كان للسلطان على رعيته راتباً على الأموال أو نوع منها كالأرض أو على الأنفس ثم رأيت القاضى أشار إليه قولا وأن الخرج بالإسكان مصدر على هذا القول .

(عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) بجزم عندنا وقرأ حمزة والكسائى وابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين .

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي) أى ما جعلنى ربى فيه مكينا من مال وملك وسداد رأى وقرأه ابن كثير مكننى بفتح النون الأولى غير مدغمة فى الثانية على الأصل وما موصولة مبتدأ خبرها قوله : (خَيْرٌ) أى خير من خرجكم الذى تجعلون لى فلا حاجة لى إليه وأنا أجعل لكم السد تبرعا لله سبحانه وتعالى .

(فَأَعِينُونِي) على السد (بِقُوَّةٍ) أى بقوة أبدانكم كحمل الصخور وكالصنعة والعمل بالآلة والبناء .

ويحتمل أن يريد بالقوة الجد والاجتهاد والعزم كأنه قال : لا تقصّروا فى إعانتى بما أطلب منكم كحمل وبناء وعمل .

(أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) حاجزا حصينا موثقا والردم أكبر من السد بل السد أعم وذلك كقولك : ثوب مردوم مرقع فوق رقاع . وجزم أجعل فى جواب الأمر وهو مبدوء بهمزة المتكلم .

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) اجعلوها آتية إلىّ بأن تأتونى بها كأنه قال: أعطونى زبر الحديد أى قطعه الكبار والقطعة زُبرة بضم الزاء وإسكان الباء .

وإن قلت : أليست زبر الحديد والقِطر مالاً ؟

قلت: بلى ولكنه مال مردود فى منافعهم ومنافع العباد لا مال يأخذه ذو القرنين ويرجع به متملكا له والمال الذى جعلوا له إنما يريدون أن يأخذه ويذهب به أو يترتب عليهم أبدا فى ذمتهم لكل سنة مثلا كذا وكذا والإعانة بآلة ليست خراجا بل إعانة بالقوة ومناولة .

وقد قرأ أبو بكر « ردماً ائتونى زبر الحديد » أمر من الإتيان أى بزبر الحديد فيكسر تنوين ردما الساكن ونصب على نزع الخافض على هذه القراءة .

ويحتمل أن يريد بالقوة القوة التى أطلبها منكم ولو نوع مال لكن ليس خراجا لى .

ويحتمل أن يأتوه بالزبر والقِطر فيشتريه وجملة آتونى بدل من أعينونى أو مستأنفة جوابا لسؤال كأنهم قالوا : ما تلك القوة ؟

قال : عمال وصناع وآلة .

فقالوا : وما تلك الآلة ؟

فقال : آتونى زبر الحديد والحطب فآتوه إياها .

(حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) أى الجانبين أى جانبى الجبلين والمراد أنه ساوى بينهما ببناء الزبر والحطب أى جعل ما بينهما مساويا بهما فى العلو وذلك من الصدف وهو الميل لأن كلا من الجانبين منعدل عن الآخر ومنه التصادف للتقابل والجانبان أيضاً متقابلان .

• وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بضم الصاد والدال . وقرأ أبو بكر بضم الصاد وإسكان الدال .

وقرئ بفتح الصاد وضم الدال وذلك لغات بمعنى .

وقرئ سَوَّى بفتح السين وتشديد الواو وإسقاط الألف قبلها .

وقرئ سُووِىَ بضم السين ممدودة بواو ساكنة وبعد الواو واو مكسورة بعدها ياء مفتوحة وعليها فالنائب مستتر أى سُووِىَ الحمل بينهما .

وقيل بجواز حذف الموصول مع بقاء صلته ولو لم يذكر مثله ، وجواز حذف النائب أى سووى ما بين الصدفين ويجوز كون بين بمعنى الفصل أى ساوى فصلهما أى وصله .

قال بعضهم : بُعد ما بين الصدفين فرسخ وذكر الكوفى أنه مائة فرسخ حفره حتى بلغ الماء وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب جعله كالعجين للصخر والبناء من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما بتركيب الحطب والفحم على الحديد والحديد عليهما وعَرْض ذلك التركيب خمسون ذراعاً وطوله إلى جهة السماء مائة ذراع وأمرهم بالنفخ كما قال الله عز وعلا : (قَالَ انفُخُوا) فى النار بالمنفيخ ونفخوا .

(حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ) بنفخهم أى جعل بين الصدفين وهذا دليل على تصريف بين حيث رجع إليها ضميراً منصوباً على أنه مفعول به إلا أن يقال : إن بين هنا بمعنى الفصل أو يرد الضمير إلى الخلل المقدر أو الموصول المقدر على ضعف أو إلى الحديد فإن زبر الحديد حديد . وإنما أضيفت للجنس إضافة عام للخاص أو إلى المنفوخ فيه المدلول عليه بانفخوا

(نَارًا) مبالغة كقولك : زيد أسد أو على نية أداة التشبيه أى مثل نار أو كنار فى شدة الحر فإن الحديد المذاب أخو النار أو نار حقيقة انظر إلى اشتعال الفحم والحطب وإلى حمرة الحديد وصيرورته جمرة حمراء .

(قَالَ آتُونِى) أى آتونيه وهذه الهاء التى قدرت عائدة إلى قِطرا فى قوله : (أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا) فإنه تنازعه آتونى وأفرغ وأعمل فيه الثانى وأعمل الأول فى ضميره وحذف لأنه فضلة وهو تلك الهاء التى قدرت وباب التنازع مما يجوز فيه عود الضمير إلى متأخر لفظا ورتبة ولما كان عوده إلى متأخر لفظا ورتبة على

خلاف الأصل وكان صعبا على الإنسان كان يحذف إذا كان فضلة ولو كان العامل فى قِطرا هو الأول لأعمل أفرغ فى ضميره وأثبت به أن يقال: أفرغه بهاء عائدة إلى متأخر لفظا لا رتبة إذ يتوهم بعدم إثباته حينئذ أن أفرغ عامل فى قِطرا وبذلك تمسك الكوفيون على ترجيح إعمال التالى للظــاهر والكوفيون لا يعتبرون هذا التوهم فرجحوا الأول. والقِطر: النحاس المذاب لأنه يقطّر وهاء عليه عائدة إلى ما عادت عليه هاء جمله .

وقرأ حمزة وأبو بكر قال ايتونى بهمزة الوصل من الإتيان بعدها ياء مبدلة من همزة أتى أى ائتونى به أى بقِطر. والإفراغ: الصب. فلما آتوه القِطر أفرغه على الحديد المحمى فاختلط والتصق بعضه ببعض وصارا جبلا صلدا أكلت النار الحطب والفحم وصار النحاس المذاب مكانهما وذلك معجزة عظيمة لأن الزُّبرة الواحدة إذا نفخ عليها حتى صارت كالنار لم يقدر أحد على القرب منها فأمكنهم الله من العمل قرب ذلك بالنفخ والإفراغ وكان كالبُرْد المحبّر طــريقة سوداء وطريقة حمراء .

وروى أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فأخبره بالردم فقــال : صفه . فقال : يارسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت فى بيت فلما كان وقت الغروب سمعت ضجـة عظيمة أفزعتنى فارتعدت منها فقال صاحب البيت : لا بأس عليك ؛ إن هــذه الضجة أصوات قوم يذهبــون هذه الساعة من خلف هذا الردم تريد أن تنظر إليه ، فإذا لَبِنُه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البُرْد المحبّر طريقة سوداء وطريقة حمراء .

وقال ابن عطية فى روايته : طريقة صفراء وطريقة سوداء وطريقة حمراء .

فقال رسول الله ﷺ : صدقت قد رأيته . من سره أن ينظر إلى مَن رأى

الردم فلينظر هذا الرجل . وذهابهم وقت الغروب إنما هو إلى منازلهم يعملون فى تنقيب هذا السد إلى الغروب ليجيئوا إلى هذه الجهة كل يوم فيرده الله كما كان بعد أن كادت تضىء منه الشمس ويقولون : غدا نفتحه وإذا أراد الله عز وجل ألقى فتحه على لسان كبيرهم على الفتح أن يقول : غدا نفتحه إن شاء الله فيجدونه كما تركوه ينقبونه .

وروى عن بعض أنه بناه من صخور مرتبطة بكلاليب حديد وما بقى أجوف بين الصخور أفرغ فيه النحاس المذاب .

وروى أنه لما بنى ذو القرنين السد حمد الله وأثنى عليه ونام فوقه فصعد حيوان من البحر سد الأفق واستعلى على السد برمية سهم فظنوا أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا وضربوه بالسهام فلم يلتفت إليهم فانتبه فقال : ما لكم ؟

فقالوا : انظر ما حل بنا وكان متوجها إليه .

فقال : ما كان الله ليأخذ نفسا قبل انقضاء أجلها وقد منعنى من العدو وما كان الله ليسلط علىّ دابة من البحر تهلكنى وقطعت عمرى فى مصالح عباده بتوفيقه فدنا منه فقال : أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السد بُنى وخرب سبع مرات ولم يرد على ذلك ، ثم غاب فى البحر . تبارك مَن له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

وروى أنهُ لما فرغ من السد سر سرورا عظيما وأمر بسرير فنصب له على السد ورقى عليه وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا رب الأرباب ومسهل الصعاب أنت ألهمتنى أسد هذا المكان صونا للبلاد وإراحة للعباد وقمعا هذا العدو المطبوع على الفساد وأحسن لى المثوبة يوم المعاد ورُدَّ غربتى وأحسن أوبتى . ثم سجد سجدة أطال فيها ثم استوى على فراشه واستلقى على ظهره وأغفى غفوة فطلع من البحر

طالع سد الأفق بطوله وارتفع كالمامة العظيمة السوداء فسد الضوء عن الأرض فبادرت الجيوش والمقاتلة قسيهم واشتد الصياح فانتبه ونادى : ما شأنكم ؟

فقالوا : الذى ترى .

فقال : امسكوا عن سلاحكم وكفوا لم يكن الله عز وجل ليلهمنى لما أراد ويغربنى عن أهلى ويسقط رأسى فى البلاد لمصالح العباد مدة عشرين سنة وستة أشهر ثم يسلط على بهيمة من بهائم البحر المسجور ، فكفوا

وأقبل الطالع نحو السد وارتفع عليه رمية منهم ثم قال : أيها الملك أنا ساكن هذا البحر وقد رأيت هذا المكان مسدودا سبع مرات وفى وحى الله عز وجل : أن ملكا صورته صورتك واسمه اسمك يسده سدا مؤبدا فأحسن الله معونتك وأجزل مثوبتك ورد غربتك وأحسن أوبتك فأنت ذلك الملك الهمام وعليك من الله السلام ثم غاب عن بصره فلم يعلم كيف ذهب والله أعلم .

وفى جبل يأجوج ومأجوج حيات وأفاعى عظيمة جدا ويسير فى هذا الجبل فى النادر من يريد أن ينظر ما وراءه فلا يصل إلى طرفه الأعلى ولا يمكنه الرجوع فيهلك وربما رجع من ألف واحد فيخبر أنه رأى خلف الجبل نيرانا عظيمة وطلوعه من هذه الجهة ممكن وإنما يمتنع من داخل لملاسته وقيامه كالحائط .

وكان يأجوج ومأجوج أخوين شقيقين تناسلا ، وكانت لهم غارات على من جاورهم قبل وصول ذى القرنين إليهم فأخلوا كثيرا من البلاد وأهلكوا غزيرا من العباد ، فكانت منهم طائفة عفيفة ينكرون ذلك عليهم فلما وصل ذو القرنين إليهم أقام بجيوشه عليهم وشكت الطائفة الضعيفة إليه ما فعلوا من البلاد والأمم المجاورة من الفساد وأنهم على خلاف مذهبهم ويبرءون من معتقدهم وشهدت لهم قبائل كثيرة بذلك فمال إليهم وتركهم خارج السد وأقطعهم تلك الأراضى ليعمروها

ويأكلوها وهم الخزلجية والسنية والخرجز والبغزغر والكماكية والحاجانية والأنكش والتركش والخفشاخ والخميج والنر والقلفى وأمم عظيمة يطول ذكرها.

(فَمَا اسْطَاعُوا) أى فما استطاعوا فحذفت التاء تخفيفا لقرب مخرجها من الطاء بعدها. وقرئ اصتطاعوا بحذفها وقلب السين صاداً لتطابق الطاء ولا تنافرها كما نافرتها السين.

وقرأ حمزة بالسين وإبدال التاء طاء وإدغامها فى الطاء فيلتقى ساكنان على غير حدهما وإنما يلتقيان فى الوقف وحيث يكون الأول حرف علة والثانى مدغم.

(أَنْ يَظْهَرُوهُ) أن يعلوا ظهره لعلوه وملاسته وفى هذا دليل على أنه لا بد أن يكون طوله أكثر من مائة وعشرين ذراعا أو أقل بقليل لا مائة ذراع كما قيل لأنه لو كان مائة وفى يأجوج ومأجوج من طوله مائة وعشرون لأمكن أن يظهره من طوله هكذا؛ لأن من زاد على شىء بغير قليل يمكن أن يتخطاه وأن يعلوه بل لو لم يزد إلا بقليل أو لم يزد بشىء لأمكن أن يعلوه بشىء يضمونه أو يبدونه بجانبه فدل على أن طوله مفرط جدا بحيث لا مطمع فى أن يعلوه.

وقد ثبت فى رواية أن طوله مائتا ذراع أو على أن طولهم ولا طول بعضهم كذلك ولو بنوا له دَرَجا من داخل لم يطيقوا أن ينزلوا خارجاً فمنعهم الله من أن يظهروه لهذا أو للطول أو لقصرهم أو بما شاء سبحانه كامل القدرة وأما الجبلان فليفان بزلق عنهما كل شىء كما فى الحديث وطرفاهما الآخران متصلان بالبحر والله أعلم.

(وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) من أسفله لشدته وصلابته وغلظه فحيث يفرغون طاقتهم فيفشلون إلى المغرب حتى يردوا أقل قليل فيجدوا ما نزعوا قد رده الله فى مكانه كما كان.

(قَالَ هَٰذَا) أى السد أو الإقدار على تسويته . (رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي) نعمة منه تبارك وتعالى على عباده لأنه حاجز لهم عن عباده الآخرين .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي) أى ميقاته الذى وقته لخروجهم وهو قريب من قيام الساعة جداً . وقيل : وعده قيامها والمراد بمجيئه على هذا قرب قيامها جداً لأنهم يخرجون قبل قيامها .

(جَعَلَهُ دَكَّاءَ) مصدر بمعنى مفعول أى جعله مدكوكا أى مبسوطا على الأرض وكل ما انبسط على الأرض بعد ارتفاع فقد اندك .

وقرأ الكوفيون دكاء بالمد والهمزة من غير تنوين فهو وصف أى أرضا مستوية .

وعلى القراءتين فالظاهر أن السد كله يجعل يومئذ دكا لعلهم يفتحون كله أو يفتحون بعضه ويزيد الله الباقى أو المراد بجعله دكا جعل موضع فتحهم دكاء بأن يبقيه كما فتحوه ويزيدوا بقيته من غد يومهم .

(وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي) أى الوعد المذكور لأنه تكرار معرفة أو وعده مطلقا .

(حقا) ثابتا يقع لا محالة : وهـذا من كلام ذى القرنين ويجوز من كلام سيدنا محمد ﷺ وقد خوطب بقوله تعالى : « قل سأتلوا » قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده عقدة التسعين ومعنى عقدة التسعين أن يجعل طرف السبابة فى وسط الإبهام من باطنها فتدوران كالحلقة .

وروى قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أن يأجوج ومأجوج يحفرونه كل يوم حتى يكاد يرون شعاع الشمس فيقول الذى عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً فيجدونه غداً قد أعاده الله كما كان حتى إذا بلغت

مدتهم قال : ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله فيعودون إليه من الغد فيجدونه كما تركوه فيخرقونه فيخرجون إلى الناس فيتبعون المياه فيتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وفيها دم تقطر به فيقولون : قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيزدادون قسوة .

وخرّج الترمذى أنهم إذا وصلوا جبل بيت المقدس قالوا : لقد قتلنا من فى الأرض فهلم نقتل من فى السماء فيرمون بنشابهم إلى جهة السماء فترجع محمرة دما فيبعث الله عز وجل عليهم نغفا فى رقابهم فيموتون .

قال : فوالذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر من لحومهم شكرا . أخرجه الترمذى . والنغف : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم وهو من أضعف خلق الله عز وجل يقهرهم به .

وقيل : يرسل عليهم طيرا كالنبق أو كأذنال الخيل . وشكرت الشاةُ : امتلأ ضرعها لبناً .

والمراد أن دواب الأرض تسمن ويكثر لحمها . روى أنهم يشربون ماء المشرق وبحيرة طبرية ودجلة والفرات فيمر آخرهم فيقول : لقد كان فى هذه الأماكن ماء ويحصر نبى الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة دينار لأحدكم اليوم فيرغبون إلى الله تعالى فيرسل على يأجوج ومأجوج النغف فى رقابهم فيصبحون فَرْسَى كموت نفس واحدة ثم يهبط نبى الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم فيرغبون إلى الله عز وجل فيرسل طيرا كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

وروى : فى البحر .

وروى الترمذى : فتطرحهم بالمهبل يعنى البحر عند مطلع الشمس وليسوا يشربون ماء البحر المالح .

ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا بيت وبر يغسل الأرض كالزلفة ثم يقال للأرض : أنبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ يأكل العصبة من الرمانة ويستظلون بقشرها وتكون البركة حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي القبيلة والأنحة من البقر لتكفي ما دون القبيلة واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك أن بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ويقبض الله تعالى روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُر فعليهم تقوم الساعة . قال كعب : إذا خرجوا فر الناس منهم فى البرية والجبال .

وروى أن المسلمين يبعثون جيشا ينظرون حال يأجوج ومأجوج وهم موتى حينئذ فلا يصلون إليهم ولا يرجعون إلى أصحابهم حتى يبعث الله إليهم ريحا طيبة يمانية من تحت العرش فتقبض روح كل مؤمن .

قال ﷺ : ثم لا أجد مثل الساعة إلا كرجل أنتج مُهرا فهو ينظر متى يركبه قيل : هم قبيلتان لا تنحصران ولا تتركان قطرة ماء إذا خرجتا إلا شربتاه ولا خضراء إلا قلعتاها يمر أوائلهم على بحيرة طبرية ويشربون ماءها ويأتى مَن بعدهم فيقولون : كان هنا ماء فيلحسون الطين الذى بقى يتسافدون على الطرقات كالحمير وينزل جبريل على عيسى بن مريم عليه السلام ويقول له : أحرز عبادى .

وفى رواية : حرّز .

وفى رواية : حوّز إلى جبل الطور فإنى قد أخرجت عبادا لا يطيق أحد قتالهم ولم يكن معه فى ذلك الوقت من المؤمنين إلا اثنا عشر ألفا وأربعة آلاف امرأة وثمانية آلاف رجل فيحاز بهم إلى جبل الطور ويرسل الله عز وجل عليهم طيرا كالنبق أو كأذيال الخيل فتدخل تحت آباطهم وخلف آذانهم ويهلكون بها ويمكث المسلمون يطبخون من قسيهم ورماحهم سبع سنين .

وعن أبى سعيد عن رسول الله ﷺ : لَيُحَجَّنَّ البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج رواه البخارى .

وذكره الشيخ هود بلا ذكر لرواية : ولا يدخل مكة والمدينة وبيت المقدس يأجوج ومأجوج والدجال .

وذكر بعضهم أنهم يمكثون فى الأرض سبع سنين وأن أول مقدمتهم بالشام وساقتهم ببلخ .

وأن فى التوراة أنهم يخرجون أيام المسيح ويقولون : بنو إسرائيل أصحاب أموال وأوانٍ كثيرة فينهبون نصفهم فيرسل الله عليهم صيحة فيموتون فيستغنى بنو إسرائيل بروثهم عن الحطب سبع سنين كذا قيل وفيه أن روثهم حرام فإنما ينتفع به الفسقة وإذا قتلهم الله أنتنت الأرض بوَدكهم ولحومهم وشحومهم .

وذكر القرطبى عن كعب أن الله سبحانه وتعالى يرسل السماء أربعين يوما فتنبت الأرض حتى إن الرمانة لتشبع السكن .

قيل لكعب : ما السكن ؟

قال : أهل البيت .

وأخرج ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أن الله عز وجل يبعث عليهم دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضا فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسا فيقولون : مَن رجلٌ يشترى نفسه وينظر ما فعلوا فينزل إليهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى فينادى : ألا أبشروا فقد هلك عدوكم .

فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لها رَعىٌ إلا لحومُهم وتَشكر عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط .

وأخرج ابن ماجه وأبو بكر بن أبى شيبة ـ واللفظ لابن ماجه ـ عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : لما كانت ليلة أُسْرِىَ برسول الله ﷺ لقى إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة فبدأوا بإبراهيم فسألوه عنها فلم يكن عنده منها علم ثم سألوا موسى فلم يكن عنده منها علم فردوا الحديث إلى عيسى قال : قد عُهِد إلىّ فيما دون وجبتها وأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله فذكر خروج الدجال قال : فأنزل فأقتله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فلا يمرون بماء إلا شربوه ولا شىء إلا أفسدوه فيجأرون إلى الله فأدعو الله أن يميتهم فتنتن الأرض من ريحهم فيجأرون إلى الله فأدعو الله فيرسل السماء بالماء فتحملهم فتلقيهم فى البحر ثم تُنْسف الجبال وتُمد الأرض مد الأديم فعُهِد إلىّ إذا كان كذلك كانت الساعة كالحامل لايدرى أهلها متى تَفْجَؤُهم بولادتها .

وقال ابن أبى شيبة : ليلا أو نهارا

قال العوام : ووجه تصديق ذلك فى كتاب الله تعالى : « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » زاد ابن أبى شيبة : « واقترب الوعد الحق » اهـ ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح .

(وَتَرَكْنا) هذا إلى آخر السورة من كلام الله سبحانه وتعالى . (بَعْضَهُمْ) أى بعض يأجوج ومأجوج أو بعض الخلق وهذا الخلق الإنس والجن وهؤلاء من جملة الإنس .

واختار بعضهم الوجه الثانى والأول أولى عندى لأن الكلام على يأجوج ومأجوج وقد يقوى الثانى بقوله : « ونفخ فى الصور »

(يَوْمَئِذٍ) أى يوم إذ جعلناه دكا أو يوم إذ جاء وعدنا أو يوم إذ خرجوا من السد فإن خروجهم منه مذكور ضمنا فى قوله : فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء .

(يَمُوجُ) يختلط ويضطرب كموج الماء فى بعض يختلط الإنس والجن بعضهم ببعض حيارى ويأجوج ومأجوج مزدحمين فى البلاد أو يموجون لكثرتهم .

(وَنُفِخَ فِى الصُّورِ) أى القرن أى ينفخ إسرافيل فيه للبعث فحذف الفاعل وناب المجرور عنه .

(فَجَمَعْنَاهُمْ) للحساب (جَمْعاً) لا يغادر أحدا .

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ) أى يوم إذ نفخ فى الصور . (لِلْكَافِرِينَ) أى على الكافرين .

(عَرْضاً) ثم يدخلونها خالدين .

قال ابن مسعود : ليس أحد من الخلق يعبد غير الله إلا وقد رفع له سعيه يقال لليهود : مَن تعبدون ؟

قالوا : نعبد عزيرا .

فيقال لهم : هل يسركم الماء ؟

فيقولون : نعم : فيرون جهنم كهيئة السراب ثم قرأ : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا » ويقال للنصارى : ما تعبدون ؟

فيقولون : المسيح .

فيقال : هل يسركم الماء ؟

فيقولون : نعم . فيرون جهنم كهيئة السراب ثم كذلك مَن كان يعبد غير الله .

ويجوز أن يكون عرضنا بمعنى قربنا أو أظهرنا فتكون اللام فى قوله للكافرين على أصلها

(الَّذِينَ) بدل من الكافرين أو نعت ذم أو خبر لمحذوف أو مفعول لمحذوف .

(كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ) بصائر قلوبهم . أو شبههم بقوم عُمْى لا يهتدون لما ينفعهم (فِي غِطَاء) غشاوة وستر .

(عَنْ ذِكْرِى) عن القرآن فهم لا يهتدون به أو عما وصمته لينظر فيه للاستدلال وهو كل مايدل على الله ويتذكر به فإنه تذكر من الله يتذكر به من يتذكر أو عما يكون موصلا إلى ذكرى بالتعظيم والتوحيد وهو أيضا ما ذكرته .

(وَكَانُوا) فى الدنيا (لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) بعيدين عن سماع القرآن والوعظ بقلوبهم كبعد من أزال الله السمع عن أذنه بالكلية وخلقه كجماد حتى إن سمعه محال لا يستطاع فإن هذا أبعد عن السمع من الأصم قد يسمع إذا صيح به وذلك لغلبة الخذلان والشقاء عليهم .

وقيل : لا يستطيعون أن يسمعوا بآذانهم القرآن من رسول الله ﷺ لشدة بغضهم وعداوتهم له فهم لا يعقلونه فلا يؤمنون به .

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الهمزة للإنكار والتوبيخ أو للتعجب من جملة ماعطفته الفاء بعدها أو داخلة على محذوف معطوف عليه بالفاء كسائر نظائره فى الوجهين وحسب بمعنى ظن وقد قرأ ابن مسعود أفظن الذين كفروا .

(أَنْ يَتَّخِذُوا) فى تأويل مصدر سد مسد مفعولى حسب لاشتماله على المسند والمسند إليه كأنه قيل : أفحسبوا أنفسهم متخذين أو مفعول أول والثانى محذوف يقدر بعد قوله تبارك وتعالى « أولياء » تقديره نافعهم ، أو لا أعذبهم به .

(عِبَادِى) الملائكة وعيسى وعزيرا .

(مِنْ دُونِى) متعلق بيتخذوا أو بمحذوف حال من قوله : (أَوْلِيَاءَ) أربابا وأولياء مفعول ثان ليتخذوا .

والمعنى على الوجه الأول فى مفعولى حسب : أفحسبوا أن يتخذوا عبادى فى الدنيا بعبادتهم إياهم أولياء لدفع عذاب الآخرة أو أولياء ينفعونهم فى الآخرة لايصح ذلك أبدا بل عبادى المعبودون أعداء لهم فى الدنيا والآخرة متبرئون منهم وما أمرتهم بموالاة من يعبدون بل بعبادتى وتوحيدى أو فحسبوا أن يتخذوهم أولياء ولا أعاقبهم أو لا أغضب عليهم كلا لا يكون ذلك .

وأما على الوجه الثانى فالمعنى ظاهر كأنه قيل : أفحسبوا اتخاذهم عبادى أولياء نافعا لهم أو مزيحا عنهم العذاب كلا . وعن ابن عباس : عبادى الشياطين.

وقرأ على " أفحسب بإسكان السين وضم الباء على أنه اسم فعل بمعنى يكفى أى فيكفى الذين كفروا أن يتخذوا الخ فيكون الذين مفعولا له وأن يتخذوا فاعل حسب أو هو وصف بمعنى الكاف مضاف للذين مبتدأ خبره أن يتخذوا أو أن يتخذوا فاعله أغنى عن الخبر لاعتماده على الاستفهام أو خبر مقدم وأن يتخذوا مبتدأ والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا وهى قراءة جيدة .

(إِنَّا أَعْتَدْنَا) هيأنا (جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ) هؤلاء وغيرهم (نُزُلًا) مايقدم لمن نزل بالإنسان ضيفا أو عيدا من طعام ومتكأ وذلك تهكم بهم كقوله عز وعلا: « فبشرهم بعذاب أليم » كأنه قيل : نضيفهم بجهنم وفيه تنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما يستحقونها بالنسبة إليه كالعقارب والحيات الجهنمية والزمهرير والجوع والعطش الشديدين فإن مايستعجل للضيف قليل بالنسبة إلى ما يُعد له بعد.

وقيل : نزلا بمعنى منزل وفيه تهكم أيضا .

(قُلْ) يا محمد . (هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) تمييز مطابق ويجوز كونه جمعا للتنويع محول عن الفاعل فى المعنى والأخسرين اسم تفضيل لا مفعول به كما قيل لأن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به .

وردّ ابن خروف والصفّار ذلك بأن خسر لا يتعدى فنقيضه ربح واستدل الصفّار بقوله تعالى وتبارك « كرّة خاسرة » إذ لم يرد أنها تخسر شيئا .

ويرد عليهما قوله تعالى : « خسروا أنفسهم » . وقوله تبارك وتعالى : « خسر الدنيا والآخرة » بنصب الآخرة فى قراءة وأما خاسرة فكأنه للنسب أى ذات خسر وأن نقيضه الذى زعما أنه لايتعدى قد ورد متعديا . يقال : ربحت ألوفا وليس أعمالا مشبها بالمفعول به كما قال سيبويه لأن اسم التفضيل لا يشبه اسم الفاعل لأنه لايؤنث ولايثنى ولا يجمع إلا بشرط قاله ابن هشام .

ومعنى الأخسرين أعمالا الذين لم يربحوا بأعمالهم ثوابا فى الآخرة بل بطلت ونالوا بها هلاكا وهم اليهود والنصارى فيما روى عن ابن عباس . وقيل : الرهبان الزائغون عن كتاب الله تعالى الملازمون للصوامع .

وزعم علىّ أنهم أهل حروراء وهم المسلمون الذين خرجوا عنه لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم وسأله ابن الكواء فقال: منهم أهل حروراء. وسئل: أهم مشركون ؟

فقال : لا .

فقال : أمنافقون ؟

فقال : لا . بل إخواننا بغوا علينا ونودى على ضالة برمم يوم قاتل على المشركين فأنكر أنهم مشركون ونودى برمم يوم قاتل المنافقين فأنكر نفاقهم وقال : إخواننا بغوا علينا وذلك خطأ تشهد به عبارته لأنه ليس الإنسان إلا

مؤمنا أو مشركا أو منافقا فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون والمؤمن لا يوصف بالبغى وهو مؤمن ومن بغى دخل فى حد النفاق .

وأيضا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه السافك دماء مَن لم يتبعه على هذه الزلة وأيضا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله ولا بلقائه بل يؤمنون بآيات الله وبالبعث . والأخسرون أعمالا قد وصفهم الله سبحانه تعالى بكفر الآيات ولقائه . ولست أقول ذلك معجبا بنفسى ولا متعجبا ممن عصى بل حق ظهر لى فصرحت به .

وعن مجاهد : المراد أهل الكتاب قال الشيخ هود : هم أهل الكتاب ضل أوائلهم فاتبعهم أواخرهم على ضلالتهم ويحسبون أنهم على هدى كما قال الله عز وجل :

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ) بطل عملهم شبه عملهم بشىء محسوس موجود لكن لا نفع فيه أو بما غاب فلم يكن به نفع فى الحضرة . والذين خبر لمحذوف أو مفعول لمحذوف أو بدل أو نعت .

(فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) متعلق بالسعى أو بضل أى ماسعوه فى الحياة الدنيا ضل فى الآخرة لا يوجد له فيها أثر وخبر ، أو ضل فى الدنيا سعيهم لا يصل الآخرة منه شىء . (وَهُمْ يَحْسَبُونَ) أى يظنون . (أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) عملا يجازون به معجبين به معتقدين أنهم محقون وهو مفعول يحسنون .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا) مبتدأ وخبر . (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) بدلائل توحيده ونبوة رسوله من القرآن والمعجزات وسائر ما يدل على وجود الله جل وعلا من المخلوقات (وَلِقَائِهِ) أى بالبعث المترتب عليه الجزاء أو المراد ولقاء جزائه .

وإن قلت : أهل الكتاب مقرون بالبعث ؟

قلت : نعم لكن لما أنكروا القرآن ورسالة سيدنا محمد ونبوته كانوا كافرين بالبعث وبسائر كتب الله وأنبيائه ودلائله ؛ فإن منكر شيء واحد مما أثبت الله منكر لكل ما أثبت .

وأيضا من أهل الكتاب من يقر برسالته إلى العرب فقط وهو أيضا كافر لذلك كله ولا سيما أن فى القرآن أن رسالته للناس كافة . ومنهم من يقر ببعث الأرواح دون الأجساد فهو أيضا كافر لذلك كله .

(فَحَبِطَتْ) بطلت .

(أَعْمَالُهُمْ) بسبب ذلك الكفر كما تدل عليه الفاء .

(فَلَا نُقِيمُ) أى لا نثبت .

(لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) أى حساباً لأنه لا عمل لهم غير باطل فضلا عن أن نحسبه لهم ولو كان كجبال تهامة . شبّه إظهار عمل الإنسان وبيان ما يترتب عليه من الخير بوزن شيء وعبّر عنه بوزن ونفاه لأنه لا عملَ خيرٍ لهم باق ويدخلون النار بغير حساب .

ويجوز أن يكون وزنا بمعنى مقدارا من الخير قال ﷺ : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقال : اقرأوا إن شئتم « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة . وقرئ فلا يقيم بالمثناة التحتية قبل القاف .

(ذَٰلِكَ) هذا من باب التخلص وهو خبر لمحذوف أى الأمر ذلك والإشارة إلى عدم إقامة الوزن لهم أو حبط الأعمال والجملة بعد ذلك مبنية لتمام المعنى . ويجوز

أن يكون مبتدأ والخبر من قوله : (جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ) خبره والرابط محذوف أى ذلك جزاؤهم جهنم به وهـذا الذى قدرت متعلق بنسبة الخبر للمبتدأ الثانى أو يتعلق بجزاء فيحسن تقديره فقيل : جهنم أى الذى يجزونه بسبب ذلك جهنم أو ذلك مبتدأ خبره جزاؤهم وجهنم بدل من الخبر بل بيان والمعتبر هنا المبدل منه أو من جزاؤهم بدل اشتمال من هنالك وجهنم خبر ذلك والمعتبر هنا البدل .

(بِمَا كَفَرُوا) ما مصدرية أى بكفرهم وإذا لم نقدر لفظة به فلا يخفى أن هذه الباء للسببية وإذا قدرناها فهذه للاستعلاء المجازى أو للتعويض توسعاً كأنه قيل لهم ذلك الجزاء عوض كفرهم .

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا) مر مثله والعطف على كفروا أى بكفرهم واتخاذهم آياتى ورسلى هزوا .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ) فى علم الله ووعده سواء وجدت أو ستوجد أو المراد أنها موجودة ثابتة لهم من الدنيا أو سبق بها أيضاً علم الله عز وجل .

(جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ) أى جنة تسمى الفردوس والإضافة للبيان وهى وسط الجنة وأعلاها . قال ﷺ : إذا سألتم فاسألوا الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلاها وفوقه عرش الرحمن ومنه تتفجر أنهار الجنة . والمراد فى الآية أن الفردوس للذين آمنوا وعملوا الصالحات وغير الفردوس أيضاً لهم كما تقول : هذه الدار لزيد ولست تعنى أن باقى الدار لغيره .

ويحتمل أن يراد نوع المؤمنين لهم جنات الفردوس وباقى الجنان لغيرهم كما قال كعب : ليس فى الجنات جنة أعلى من الفردوس ، فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وذكر بعضهم أن الفردوس جبل فى الجنة تتفجر منه أنهار الجنة .

وذكر بعضهم أن الفردوس جنان .

وقيل : العنب والنخل وبعضها الشامل لأنواع الشجر والنبات وفيه النخل .

قيل : هو لفظ رومى .

وقيل : حبشى ونقل إلى العربية .

ومَن أراد أن يقوم فى وقت من الليل مخصوص فليقرأ : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » إلى آخر السورة عند مضجعه ويقول : اللهم نبِّهنى فى وقت كذا فإن روحى بيدك وأنت تقول : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها » أذكرك وتذكرنى وأستغفرك فتغفر لى إنك على كل شىء قدير فتفعل ما تريد . وإن زاد إلى ذلك: اللهم لا تولنى ذكرك ولا تحرمنى خيرك وإن بعثت لى رسولا من عندك يوقظنى إلى ذكرك فى وقت كذا وكذا فحسن إن شاء الله . وذلك مشاهد بإذن الله سبحانه وفضله . إما أن يهتف بك هاتف : يا فلان أو يتقاتل هِرٌّ وآخر فتستيقظ أو يوجد الاستيقاظ بشىء غير ذلك أو بلا شىء وقد صح عن رسول الله ﷺ : إن فى كل ليلة ساعة إجابة لا يرد فيها دعاء مسلم لأمر آخرة أو دنيا إلا أعطاه الله إياه فاقرأ الآية وانو تلك الساعة تستيقظ إليها إن شاء الله واشكرنى فى دعائك ولا تَدْعُ على أحد بسوء ولو ظلمك واشكر نعمتى .

(نُزُلًا) ما يحضر للضيف أو منزلا كما مر . وإذا كانت مثل ما يعجل للضيف فما بالك بما وراءها من مزيد .

(خَالِدِينَ فِيهَا) حال مقدرة أى ثبتت لهم من الآن مقدرين بالخلود فيها أو مقدراً خلودهم فيها .

(لَا يَبْغُونَ) لا يطلبون .

(عَنْهَا حِوَلًا) تحولا وعنها متعلق بحولا وقدم عليه ولو كان مصدراً لأن الجار والمجرور يتوسع فيهما أو يتعلق بمحذوف حال من حولا .

ويقال : حال عن كذا أى تحول . والمعنى : أنه ليس شىء أرفع من الجنة فضلا عن أن يحبوا التحول عنها إليه بخلاف نعيم الدنيا فإنه لا يكون أحد فى نعيم إلا أحب معه آخر أو وحده وربما مله وأراد آخر ولو كان دونه ونعيم الجنة لا يمل .

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى) أى لعلم ربى ويسمى العلم كلمة لأن ما يعلمه أحد يتكلم به فى الجملة .

والمداد : اسم لما تمد به الدواة من حبر أسود أو أصفر أو أحمر أو أزرق أو غير ذلك وما يمد به السراج من الزيت أو غيره .

ويقال : السماء مداد الأرض ويقدر مضاف فى قوله: كان البحر أى ماء البحر لأن البحر اسم للأرض التى فيها ذلك الماء لا للماء .

ويجوز أن يراد به الماء مجازا تسمية للحال باسم المحل ولأحد المتجاورين باسم الآخر . والمعنى لو كان ماء البحر مداداً يكتب الخلائق به كلهم علم الله (لَنَفِدَ الْبَحْرُ) أى انقضى ملؤه وفرغ .

(قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ) وقرأ حمزة والكسائى فى رواية عنهما قبل أن ينفد بالمثناة التحتية .

(كَلِمَاتُ رَبِّى) علمه وحكمه (وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ) أى بمثل البحر .

(مَدَدًا) زيادة وهو كالمداد وقد قرأ ابن عباس مداداً .

وقرأ الأعرج مددا بكسر الميم جمع مدة وهى ما يمد به الكاتب فيكتب به

والنصب على التمييز وجواب لو محذوف أى لنفد أيضاً ولم تنفد كلمات ربى فإن كلماته لا تتناهى بخلاف الأجسام .

قيل : قال يحيى بن أخطب : فى كتابكم : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ثم تقرأون : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فنزل : « قل لو كان البحر مدادا . إلى قوله : مددا » يعنى أن ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله .

وقيل : لما نزل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » قالت اليهود : أوتينا التوراة وفيها علم كل شيء فأنزل الله تبارك وتعالى : « قل لو كان البحر مدادا ـ إلى قوله ـ مددا » .

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ) آدمى . (مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وجملة يوحى إلىّ إلى آخره مستأنفة أو خبر ثان وإنما فى الموضعين للحصر ويؤول بمصدر ما بعد الثانية فيكون نائب يوحى أى يوحى إلى وحدانية إلهكم وعدم الشريك له فى الملك والعبادة .

أمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يقول ذلك تعليما للتواضع لئلا يزهى على خلقه أى ما أنا إلا آدمى مثلكم لا أدعى الزيادة عليكم ولا الإحاطة بالعلم إلا أنى خصصت بالوحى كما قال ابن عباس .

وقيل : قال المشركون : ما أنت إلا بشر مثلنا فأمره الله عز وجل أن يقول : ما أنا إلا بشر مثلكم لكن اصطفانى للوحى وخصّنى به دونكم .

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ) أى لقاءه بخير ورضاه عنه أو يرجو حسن لقائه أو من كان يعتقد البعث .

(فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) وهو عمل الطاعات والعبادات .

(وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ) أى فى عبادة ربه (أَحَدًا) أى لا يرائى أحداً بعبادته ولا يحب السمعة بها ولا يطلب بهـا أجراً بل يخلصها لله سبحانه وتعالى ، فإن الرياء شرك أصغر يحبط العمل كما يحبطه الشرك لـكن لا يلزمه الإعادة بل التوبة .

قال رسول الله ﷺ : أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر . قال : الرياء .

وروى الربيع بن حبيب عن أبى عبيدة عن جابر عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو له أى لغيرى . كما فى رواية : هو للذى عمله له كله وأنا أغنى الشركاء عن الشرك . ومثـله لمسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح المشهور فى حديث رسول الله ﷺ .

وللبيهقى وغيره : قال الربيـع : قال رسول الله ﷺ : من صلى أو صام تصدق رياء فقد أشرك .

قال عن أبى عبيدة عن محمد بن المنـكدر عن ابن عباس عن النبى ﷺ : يأتى على الناس زمان الشرك فيه أخفى من ذرة سوداء على صخرة صماء فى ليلة ظلماء يعنى الرياء أو ما يعتقده الإنسان ويصف به الله وهو شرك ولا يدرى .

وعن سعيد بن أبى فضالة : سمعت رسول الله ﷺ إذا جمع الله النـاس ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ : من كان يشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه منه فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك . أخرجه الترمذى وقال : حديث غريب .

وعن مسلم بن عبد الله البجلى عنه ﷺ : من سمّع سمّع الله به ومن يرائى يرائى الله به أى أسمعه المـكروه . رواه البخارى ومسلم .

قيل : نزلت فى جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ : إنى أعمل العمل لله فإذا اطُّلِعَ عليه سرنى . قال : إن الله لا يقبل ما شورك فيه . وروى أنه قال : لك أجران : أجر السر وأجر العلانية وهذا إذا قصد الاقتداء به .

وروى أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إنى رجل أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى مكانى فسكت النبى ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية قال جابر بن زيد : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أتصدق بصدقة ألتمس فيها الحمد والأجر . فقال رسول الله ﷺ : الله لا شريك له فأنزل الله هذه الآية : « فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

وروى أنها نزلت فى رجل إذا صلى أو صام أو تصدق فذُكر بخير ارتاح لذلك فزاد فى ذلك لمقالة الناس . والله أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

تمت سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

وتسمى سورة كهيعص وهى مكية إلا آية السجدة قيل : وإلا قوله سبحانه : « وإن منكم إلا واردها » وقيل إلا : « فخلف من بعدهم » الآيتين وآيها تسع أو ثمان وتسعون وكلمها اثنتان وثمانون وتسعمائة وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة ، وعنه صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنات بعدد من كذب زكريا وصدّق به ويحيى ومريم وعيسى وسائر الأنبياء المذكورين فيها . وبعدد من دعا الله فى الدنيا ومن لم يدع الله سبحانه وتعالى . وقال ﷺ : من قرأ سورة مريم وطه أعطى مثل ثواب المهاجرين والأنصار .

وقالوا : مَن كتبها وجعلها فى قدح زجاج فى منزله كثر خيره ورأى فى منامه ما يسره . وإن كتبت على حائط البيت منعت طوارقه . وإذا شربها الخائف أمن .

ومن صام يوم الخميس ونقش يوم الجمعة فى الساعة الأولى على فص خاتم من فضة أو غيره مما ينقش عليه من الأحجار كهيعص حمعسق ونحوها من أوائل السور ولبس ذلك أو حمله كان مقبولا مطاعا محبوبا .

وحروف كهيعص إذا نقش فى مخمس والطالع برج الثور والزهرة . فيه أو فى درجة شرفها فى الحادى عشر من الطالع يبخر المخمس بالعود والعنبر ولف فى خرقة حرير بيضاء وكان النقش فى فضة خالصة أو نحاس أصفر يرى حامله عجائب وغرائب يقصر عنها اللسان ويعمل فى المحبة والألفة فعلا عجباً وفى قضاء الحوائج .

ك	ه	ى	ع	ص	٢٠	٠٥	١٠	٧٠	٦٠
ع	ص	ك	ه	ى	٧٠	٦٠	٢٠	٠٥	١٠
ه	ى	ع	ص	ك	٠٥	١٠	٧٠	٦٠	٢٠
ص	ك	ه	ى	ع	٦٠	٢٠	٠٥	١٠	٧٠
ى	ع	ص	ك	ه	١٠	٧٠	٦٠	٢٠	٠٥

وجلب الرزق والقبول ودخول الفرح والسرور والخير والبركة فيما يتناول من أمو الدنيا والآخرة هكذا طمى ولا يحمل هذه الخواتم إلا بطهارة ولا يدخل به الخلاء فإنه والله أعلم من أسمائه العظام المكنونة .

ومن جعلها تحت رأسه ونام رأى فى منامه ما يريد أن يسأل عنه وكل ما يكون فى خاطره وإن جعلها فى نائم أخبر بكل ما صنع وإن لم تعرف حال الغائب فاجعلها تحت رأسك وأنت بوضوء تراه فى منامك ويخبرك بحاله وبكل ما سألت من أمر أو من غيرك مما كان أو يكون وترى عاقبة ما ترددت فيه وتخبر بدفين إن خفى أو تخبر بأنك لا تظفر به.

وذكر بعض أنها تنقش يوم الأحد أول ساعة فى الذهب لتحريك قلب كل شىء وعدد حروف كهيعص بالجُمَّل المغربى مائة وخمسة وستون وبالمشرق مائة وخمسة وتسعون ويكتب الوفق الحرفى فى الظاهر والعددى فى الباطن والحرفى يتأثر فى كل وقت .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(كٓهيعٓصٓ) بإشباع مد الكاف والعين والصاد وبعد الهاء والياء مداً طبيعياً وإمالتهما عند الكسائى وأبى بكر وأمال أبو عمرو الهاء وابن عامر وحمزة الياء.

وروى عن حمزة إخلاص كسر الياء وعن عاصم كسرها وكسر الهاء كذا قيل عن الكشاف. قلت: الصواب أنه أراد بالكسر الإمالة فإنها تسمى كسراً. وعن الحسن ضمها. ووجه الإمالة أن ألفات أسماء التهجى ياءات

وروى أن السنوسى وافق ابن عامر وحمزة فى إمالة الياء وقرأ نافع الهاء والياء بين بين وأظهر الحرميان وعاصم الدال وأدغمها الباقون فى ذال ذكر بعد قلبها ذالا.

وعن ابن عباس كهيعص اسم من أسماء الله. وقيل: اسم للقرآن وقيل: للسورة وقيل: قسم.

وفى رواية عن ابن عباس: الكاف من كريم وكبير ونحوهما والياء من نحو رحيم والعين من نحو عالم والصاد من نحو صادق. وقيل: المعنى كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم بما فى صدورهم صادق فى وعده ووعيده.

(ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ) خبر ما قبله إن أول بالسورة أو بالقرآن فإنه مشتمل عليه أو خبر لمحذوف أى هذا الذى يتلى عليه ذكر رحمة ربك أو مبتدأ حذف خبره أى فيما يتلى عليك أو مما يتلى عليك ذكر رحمة ربك.

وإضافة ذكر لرحمة إضافة مصدر لفاعله وعبد مفعوله كقولك ذكرنى جود زيد أى أصابنى وإضافة مصدر لمفعوله وعبد مفعول الرحمة إن قلنا بجواز نصب المصدر المقرون بتاء الوحدة مفعوله كذا قيل. قلت: ليست هذه تاء بنى المصدر عليها.

وقرئ ذكر رحمة ربك بفتح الذال والكاف والراء ورفع الرحمة . وقرئ ذكر بفتح الذال وكسر الكاف مشددة وإسكان الراء ونصب الرحمة وزكريا بدل عبد أو بيانه . وقرأ أبو بكر وابن عامر بتخفيف همزة زكريا وهمزة يا زكرياء إنا نبشرك وشبهه وتخفيف الهمزة بعدها ويصح أن تكون الآية من التجريد مبالغة أى ذكرته الرحمة بالرحمة فحذف بالرحمة .

(إِذْ نَادَى) دعا وقيل : نادى نداء مشتملا على الدعاء متعلق برحمة (رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا) سرا جوف الليل لأنه أسرع للإجابة وأبعد من الرياء وأدخل فى الإخلاص مع أن الجهر والإخفاء عند الله سيان .

وقيل : أسرّ دعاءه خوفا من مواليه .

وقيل : لئلا يلام على طلب الولد فى زمان الشيخوخة .

وقيل : لضعفه وهرمه ؛ فإنه ابن ستين سنة أو خمس وستين أو سبعين أو خمس وسبعين أو خمس وثمانين أقوال . وفسر النداء بقوله : (قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى) أى ضعف .

وقرئ بضم الهاء وكسرها . والعظم الجنس ومنى حال من العظم أو نعته لأنه للجنس وخص العظم بالذكر لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا ضعف تساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا ضعف كان ما وراءه أضعف وقيل : العظم أسنانه ضعفت فهى تتساقط .

(وَاشْتَعَلَ) انتشر . (الرَّأْسُ) وعن أبى عمرو إدغام السين فى الشين .

(شَيْبًا) تمييز محول عن الفاعل وأل فى الرأس للتعريف الحضورى أو على طريق تعريف الذهن، تعالى الله عن الذهن فإن الله عالم بأن مراده رأسه والمخاطب بالقرآن يعلم المراد أيضا أو أل نائب عن الضمير ويقدر الرأس لى أو منى

وأسند الاشتعال للرأس مبالغة عظيمة وكان يكفى مبالغة أن يسنده إلى ما حل فى الرأس وهو الشعر . والأصل اشتعل شيب الرأس فحول الإسناد لفائدة الإبهام ثم الإيضاح وللتعظيم بالتنكير فإن اشتعال الرأس مبهم وفى قوله شيبا إيضاح وتنكير .

وشبّه الشيب فى بياضه وإنارته بنار صفية لا دخان فيهـا وشبّه انتشاره فى الشعر باشتعالها ثم أخرج مخرج الاستعارة المركبة وهى التمثيلية بسطتها فى شرح عصام الدين ولكنها فى الشق الثانى تبعية بعد أصلية لأنه يشبه انتشاره باشتعالها وسماه اشتعالا واشتق من الاشتعال اشتعل بمعنى انتشر ولا يكاد الفصيح يخرج الكلام على الاستعارة البسيطة ما وجد المركبة ولا يخفى ما فى الآية من أنواع الفصاحة والبلاغة .

(وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) لم أك فيما مضى خائباً بدعائى إياك فلا تخيبنى فيما أتى وذلك تنبيه على أن الله عوّده الإجابة وأطمعه فيها ولا يخيّب الكريم من أطمعه وعلى أن المطلوب وهو الولادة ولو لم يكن معتاداً لأنه شيخ لكن الإجابة معتادة وفى ذلك توسل بما سلف .

روى أن محتاجا سأل بعضاً وقال : أنا الذى أحسنت إلىّ وقت كذا فقال له : مرحباً بمن توسل بنا إلينا وقضى حاجته .

وقيل : المعنى : دعوتنى للإيمان فآمنت ولم أشق بترك الإيمان والباء متعلق بلم أى انتفى الكون شقيًّا بدعائى إياك لأنه لو لم يدعه لخاب ولو علق بأكن أو بشقيا لصح لأنه إذا طلب طالب فلم يظفر قيل : كان بسبب دعائه خائباً أو شقىَ بدعائه وذلك أن طلبه هو الذى يظهر ظفره أو شقاوته وإضافة دعاء للكاف من إضافة المصدر للمفعول وأما على معنى دعوتنى فآمنت فإضافة لفاعله .

(وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ) الذين يلوننى فى النسب كبنى العم .

وقيل : هم العصبة .

وقيل : الكلالة .

وقيل : جميع الورثة .

وعنه ﷺ : رحم الله أخى زكرياء ما كان عليه من ورثته .

قيل : كانوا أشرار بنى إسرائيل نخاف أن لا يحسن الخلافة على أمته ويبدل دينه كما شاهد من بنى إسرائيل .

(مِنْ وَرَائِى) بعد موتى . وقيل: أمامى وقرأ ابن كثير « مِنْ ورائِىَ » مهموزة ممدودة مفتوحة الياء وقرئ أيضاً بالقصر والفتح وهو شاذ قال ابن هشام : من ورائى متعلق بخفت على ما يتبادر وهو فاسد المعنى .

قلنا : وجه الفساد أن الخوف واقع فى الحال لا فيما يستقبل ولو علق به لزم أن يكون المعنى أن الخوف يقع بعد موته قال : والصواب تعليقه بالموالى لما فيه من معنى الولاية أى خفت ولايتهم من بعدى وسوء خلافتهم أو بمحذوف حال من الموالى أو من مضاف للموالى مقدر أى خفت فعل الموالى من ورائى . قال ابن جنى من ورائى حال متوقعة أى خفتهم متوقعاً مقصوراً كونهم من بعدى .

وقرأ عثمان ومحمد بن على وعلى بن الحسين خفت الموالى بفتح الخاء والفاء وتشديدها وكسر التاء للساكن بعدها أى قلوا وعجزوا من بعدى عن إقامة الدين أو خفوا ودرجوا قدامى .

وعلى هذه القراءة قال : فمن متعلق بخفت قلت: هذا على معنيين : أحدهما : أن يكون ورائى بمعنى خلفى وبعدى فيتعلق الظرف بالموالى أى قلوا وعجزوا عن إقامة أمر الدين فسأل ربه تقويتهم ومظاهرته بولى يرزقه .

والثانى : يكون بمعنى قدامى فيتعلق بخفت ويريد أنهم أسرعوا قدامه ودرجوا ولم يبق منهم من به تقوية واعتضاد كما مر آنفا .

ومن كانت عنده زوجة لا تحمل فليصم هو وهى يوم الجمعة فإذا صلى المغرب أفطر هو وزوجته على سكر ولوز وخبز ولا يشربان من الماء شيئاً ويكتب الآيات فى جام زجاج بعسل نحل لم تمسه النار ويمحها بماء عذب طاهر ويأخذ من الحمص الأبيض مائتى حبة وأربعة وعشرين حبة ويقرأ على كل حبة : « وإنى خفت الموالى ـ إلى قوله ـ ويوم يبعث حيا » ثم يجعل الماء فى قدر على النار ويجعل الحمص فيه ويوقد عليه إيقادا قويا ثم يصلى العشاء الآخرة هو وهى يقرأ بعد صلاة العشاء هذه السورة كلها ثم يصفى الماء من الحمص إذا نضج ثم يضيف إليه شيئاً من ماء العنب ويشرب منه النصف والزوجة النصف وينامان ساعة ويواقعها فإنها تحمل الوقت .

وإن فعل ذلك ثلاث ليال قبل أن يأكل شيئاً كان أبلغ وأنجب الولد .

(وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا) لا تلد (فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ) أى عندك وهو تأكيد لكونه وليا مرضيا لكونه مضافاً إلى الله وصادر من عنده وإلا فهب لى وليا يرثنى كاف ، أو أراد اختراعاً منك بلا سبب لأنى وامرأتى لا نصلح للولادة ومثله لا يرجى إلا من فضلك وكمال قدرتك .

(وَلِيًّا) ابناً .

(يَرِثُنِى) نعت وليا . وقرأ أبو عمرو والكسائى بالجزم فى جواب الدعاء والقراءتان فى قوله : (وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) جدى العلم والنبوة . سأل ربه أن يجعل من صلبه من يقوم بالعلم والنبوة لئلا يضيعا لما رأى من إفساد بنى إسرائيل وقتلهم الأنبياء وليس المراد إرث المال لأن الأنبياء لا تورث ومالهم لبيت المال .

وقيل : يرث حبورتى وملك آل يعقوب وزكريا كان رأس الأحبار .

وقيل : يرث مالى ونبوة آل يعقوب وحبورتهم .

قلت : زكريا أبعد من أن يشفق على ماله أن يرثه بنو عمه ولم يجب الله دعاءه فإن يحيى قتل قبل أبيه زكريا فلم يرث آباءه . وإجابة دعاء الأنبياء غالبة لا لازمة كما لم يجب لإبراهيم فى حق أبيه وكما لم يجب نبينا ﷺ فى سؤاله : أن لا يذيق بعض أمته بأس بعض وذلك لمخالفة ما طلبوا ما جف به القلم وكان مما جف به أن يوجد يحيى نبيًا صالحًا ثم يقتل .

والحبورة : العلم بتمييز الكلام وتحسينه وفلان حبر بفتح الحاء وكسرها وهو أفصح ويعقوب هو ابن إسحاق وزكريا عليه السلام من نسله . قيل : وكان من نسل هارون .

وقيل : يعقوب بن ماثان أخو زكريا .

وقيل : يعقوب أخو عمران أبى مريم وهما أخوان من نسل سليمان والإرث يتعدى للموروث منه بنفسه وبمن كما فى الآية . وقيل : من للتبعيض لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء .

قلت : ويصح أن تكون للابتداء ولا يمنع الابتداء والتعدية كونهم ليسوا كلهم أنبياء وعلماء غايته أن يكون كقوله : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وقرأ ابن عباس والجحدرى يرثنى وارث من آل يعقوب .

قلت : الجملة نعت وليا والرابط وارث فإنه ظاهر فى مقام ضمير الولى أو الرابط محذوف على طريقة التجريد البديعى وهو أن ينتزع من متصف بصفة آخر مثله مبالغة لكمالها فيه أى يرثنى به وارث جرد وارث من وليا مع أنه هو .

وقرأ على وجماعة يرثنى وارثا من آل يعقوب بنصب وارثا على الحال من ضمير الرفع أو النصب فى يرثنى .

وقيل : هذه قراءة الجحدرى وابن عباس والتى قبلها لعلى ومن معه وعن الجحدرى يرثنى أُوَيْرِث تصغير وارث وقال : لأنه غُلَيِّم صغير والأصل وُوَيْرِث بواوين الأولى فاء الكلمة والثانية ألف وارث أبدلت الأولى واوا لانضمامها .

(وَاجْعَلْهُ رَبِّ) يارب . (رَضِيًّا) مرضيا عندك قولا وفعلا واعتقادا فعيل بمعنى مفعول وأخبره بإجابة دعائه بقوله : (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ) بقرأ حمزة بفتح النون وإسكان الباء وضم الشين .

(بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى) تولى تسميته تشريفا له ولأبيه واختار له هذا الاسم لأنه أحياه بالإيمان أو أحيى به عقم أمه .

(لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا) نظيرا فى التسمية لم يسم أحد باسمه قبله وفى التسمية بالأسماء الحسنة المحمودة تنويه بشأن المسمى ومثله يعمر ويعيش وهو علم منقول من مضارع واختار بعض أنه عجمى .

وقيل : سمى بذلك لأنه حيى به رحم أمه ولأن دين الله حى بدعوته .

وقيل : لم نجعل له نظيرا فى أنه لم يعص ولم يهم بمعصية وفى أنه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر لم يلدا زمان الولادة ولما ذهب زمانها ولدا وفى أنه لم تلد العواقر مثله .

وقيل : لم يرد اجتماع الفضائل كلها ليحيى فإن إبراهيم وموسى قبله أفضل منه وإنما قيل للمثل : سمىّ لأن المماثلين يتشاركان فى الاسم .

(قَالَ رَبِّ أَنَّى) كيف . (يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) تيبس المفاصل وصفها مصدر عتى بمعنى تيبس وأصله عتوو بواو وواو بوزن قعود قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء وقلبت الضمة كسرة .

وقيل : أصله عتوو بواوين بوزن قعود ثقلت ضمتان وواوان متوالية قلبت ضمة التاء كسرة فالواو الأولى ياء ثم الثانية فأدغمت فيها الأولى .

وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائى وحفص بكسر العين تخفيفاً وتبعاً ، وقرأ ابن مسعود بفتحها . وقرأ أبىّ ومجاهد عتيا بفتح العين بمعنى عتى .

وعن بعض أن سنه مائة وعشرون سنة وسن امرأته ثمان وتسعون وإنما طلب الولد هو وزوجه على حالة العقّ والعقر ولما أجيب استبعد ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيماناً ويرتدع المبطلون ويعترف من هداه الله أن المؤثر كمال قدرته وأن الوسائط عند التحقيق ملغاة ومعتقد زكريا أولا وآخرا أن الله غني عن الأسباب .

(قَالَ) الله أو الملك المبشر له تصديقا له : (كَذَلِكَ) خبر لمحذوف أى الأمر كذلك والجملة مقول القول أو الكاف اسم مفعول للقول الثانى مضاف لاسم الإشارة وجملة القول الثانى وفاعله مقول الأول .

ويقوّى الوجه الأول قراءة الحسن وهو علىّ هين أى الأمر كذلك أى كما وعدت أنا أوهو مع ذلك يهون علىّ أو كما وعدت وهو علىّ هين لا أحتاج فيما أريد أن أفعل إلى الأسباب وإذا لم نجعل الكاف مفعولا للقول الثانى وهو الذى فى قول جل وعلا : (قَالَ رَبُّكَ) فمفعوله محذوف على قراءة الحسن دل عليه ما بعده .

وأما على قراءة الجمهور فمفعوله قوله : (هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ) وهذه الجملة تفسير للإشارة وقد علمت أن الإشارة إلى قول زكريا أو إلى وعد الله والهيّن : السهل اليسير رد عليه قوة الجماع وفتق رحم امرأته .

(وَقَدْ خَلَقْتُكَ) وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وابن وثاب وقد خلقناك .

(مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) موجودا ولكن شىء سيوجد أو لم تك شيئا يعتد به ولا دليل فى الآية على أن المعدوم ليس شيئا والحق أن الشىء يطلق على الموجود والمعدوم بعد وجوده والذى سيوجد ولإظهار الله هذه القدرة العظيمة ألهم السؤال ليجاب بما يدل عليها .

ولما تاقت نفسه إلى السرعة البشرية قال ما حكى الله عنه فى قوله : (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) علامة على حمل امرأتى . وسكن غير نافع وأبى عمرو الياء .

(قَالَ آيَتُكَ أَنْ لَا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) حال من ضمير تكلم أى أن تمنع الكلام ولا تستطيعه وأنت سالم الجوارح سوىّ الخلق مابك خرس ولا بكم وإذا أراد ذكر الله أطلق الله لسانه وذلك هو الصحيح وهو قول الجمهور .

ويجوز أن يكون سويا نعتا لثلاث أى كاملات مستويات متتابعات وهو قول ابن عباس . وفى ذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران دلالة على أنه استمر عليه منع الكلام مع الناس والتجرد لذكر الله ثلاثة أيام ولياليهن .

ومن بعضهم : عاقبه الله بمنع الكلام لسؤاله العلامة بعد إعلام الله إياه .

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ) من المسجد وكانوا ينتظرون فتحه ليصلوا فيه بأمره على العادة . قاله الحسن . وقيل : من الغرفة . وقيل : المحراب : موضع الصلاة ولما خرج عليهم رأوه متغير اللون وقالوا : ما لك ؟

(فَأَوْحَى) أشار . قاله قتادة ومجاهد ويؤيده « إلا رمزا » وقال ابن عباس : كتب لهم فى الأرض وهو رواية عن مجاهد .

(إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا) أن تفسيرية ومن أجاز دخول المصدرية على الأمر أجاز كونها مصدرية فيقدر حرف الجر أى بأن صلوا لله والتسبيح الصلاة وفيها تنزيه لله سبحانه وتعالى .

وقيل : المراد التسبيح والذكر من غير الصلاة وكان مأموراً أن يسبح وأن يأمر قومه به .

(بُكْرَةً وَعَشِيًّا) أوائل النهار وأواخره فعلم بمنعه من كلامهم حملها يحيى وبعد ولادته بسنين قال الله تعالى له : (يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ) التوراة فالقول مقدر أي قال الله : يا يحيى كما رأيت أو قلنا : يا يحيى .

(بِقُوَّةٍ) بجد بأن تحفظه وتعمل به .

(وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ) الحكمة وفهم التوراة وحفظها .

قال بعض السلف : من قرأ القرآن قبل أن يبلغ فهو ممن أوتى الحكمة صبياً .

وقيل : إن قائل هذا هو ابن عباس .

وعن معمّر أن الأطفال إذا دعوا يحيى إلى اللعب وهو طفل قال : لم أخلق للعب فتلك الحكمة التي آتاه الله .

وقيل : الحكم : النبوة أحكم الله عقله وأكمله ونبأه وهو طفل وهذا من خوارق العادات وأمر النبوة مبنى على خرقها .

وقيل : الحكم العقل وهو قول الضحاك ورواية عن معمر (صَبِيًّا) قيل : هو ابن ثلاث سنين .

وقيل : معناه شاب لم يبلغ حد الكهول فى لفظ صبى تجوز واستصحاب حال .

(وَحَنَانًا) عطف على الحكم وهو الرحمة من الله عليه أو الرحمة والتعطف فى قلبه على أبويه وغيرهما .

ويقال لله : حنان كما يقال : رحيم على التجوز ، وقيل : لا .

ومن مجيء حنان بمعنى التعطف قول الشاعر :

وقالت : حنان ما أتى بك ها هنا أذو نسب أم أنت بالحى عارفُ

أى أمرى حنان . وأكثر ما يستعمل مثنّى كقوله :

أبا منذر أفنيت فاستبْقِ بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

ويستعمل حنان أيضاً فيما عظم لأمر الله كقول زيد بن عمرو فى خبر بلال :

والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانا .

(مِنْ لَدُنَّا) من عندنا (وَزَكَاةً) طهارة من الذنوب وإخلاصا .

وقيل : صدقة تصدق الله بها على أبويه أو مكنه ووفقه للتصدق على الناس .

وعن مجاهد : كان طعام يحيى العشب وكان للدمع فى خديه مجارٍ ثابتة .

(وَكَانَ تَقِيًّا) مطيعا مجانبا المعاصى . وعن الحسن عنه ﷺ : ما من آدمى إلا وقد أخطأ خطيئة أو همّ بها غير يحيى بن زكريا فإنه لم يهم بصغيرة ولا كبيرة .

(وَبَرًّا) بارًّا حذفت ألفه تخفيفاً أى محسنا .

(بِوَالِدَيْهِ) أبيه وأمه . وزعم بعض أن البَرّ : الكثير البِر . ولا عبادة بعد تعظيم الله أعظم من بر الوالدين .

(وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) الجبار المتكبر عن الطاعة .

وقيل : الذى لا يرى لأحد على نفسه حقا .

وقيل : الذى يجبر الناس على أخلاقه . والعَصِىّ صفة مبالغة بوزن فعيل أى عصيا لوالديه . أو لربه .

والمراد وصفه بالتواضع الذى هو من صفات المؤمن والمبالغة فى جبار وعصى راجعة للنفى أو جبار للنسب أو تجعل المبالغة بمنزلة الكل ويجعل السلب من عموم السلب ولو تأخرت المبالغة وذلك على خلاف الغالب .

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ) من الله (يَوْمَ وُلِدَ) من أن يناله الشيطان بما ينال به غيره .

وقيل : السلام التحية من الله . قال ابن عيينة : أوحش ما يكون الخلق يوم الولادة لأنه خرج مما كان فيه ويوم الموت لأنه ينتقل من دار وقوم إلى دار وقوم ويوم البعث لأنه مشهد عظيم فأكرم الله يحيى فى هذه المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة بالسلام وأما الأمان فقد تحصّل له بنفى العصيان .

(وَيَوْمَ يَمُوتُ) من عذاب القبر .

(وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا) من عذاب النار وهول القيامة .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ) القرآن (مَرْيَمَ) أى قصة مريم (إِذِ) بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها فإذ خارجة عن الظرفية إلى المفعولية أو بدل كل على أن المراد بمريم وقتها من تسمية الزمان بمن حل فيه أو بتقدير مضاف أى وقت مريم أو أراد بوقت الانتباذ نفس القصة الواقعة فيه للحال باسم الزمان وعلى كل فإذ خارجة عن الظرفية .

ويجوز أن يكون ظرفا متعلقاً بمحذوف أى نمل مريم وقدر بعض خبر مريم وعلقه بخبر ويجوز تعليقه بمحذوف نعت لمحذوف أى أمر مريم الواقع إذ لخ .

(انْتَبَذَتْ) اعتزلت . قال ابن هشام : إذ بدل من المفعول وهو مريم بدل اشتمال .

وزعم الجمهور أنه لا تكون إذ إلا ظرفا أو مضافا إليها فإذ ظرف لمضاف محذوف أى واذكر قصة مريم إذا نتبذت .

وقيل : إذ بمعنى أن المصدرية أى اذكر مريم انتباذها على البدلية الاشتمالية .

(مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) أى اعتزلت فى مكان نحو الشرق من الدار أو شرقى بيت المقدس للعبادة .

وقيل : ذهبت إلى جهة الشرق فى أهلها لتغتسل من الحيض وقيل بشرق محرابها وكانوا يعظمون جهة الشرق . ولانتباذها مكانا شرقيا اتخذ النصارى المشرق قبلة وقد علمت مما مر أن مكانا ظرف ويجوز أن يكون مفعولا به لانتبذت على أنه تضمن معنى أتت أو قصدت .

(فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا) ستراً لتفلى رأسها أو ثيابها أو تغتسل من حيضها وكانت قد طهرت منه وكان اليوم شاتيا شديد البرد .

وقيل : الستر : الجدار . وقيل : تسكون فى المسجد فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها فإذا طهرت عادت إلى المسجد .

(فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا) جبريل عليه السلام (فَتَمَثَّلَ لَهَا) بعد لبس ثيابها (بَشَرًا سَوِيًّا) أى جاءها فى صورة مثل صورة شاب أمرد سوى الخلق لتستأنس بكلامه لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها ولو جاء فى صورة الملك لنفرت عنه ولا تقدر على استماع كلامه .

وقيل : الروح روح عيسى جاء فى صورة بشر فحملت به والصحيح ما تقدم وسمى جبريل روحا لأن الدين يحيى به وبوحيه أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريبا كما تقول لحبيبك : أنت روحى .

وقرأ أبو حيوة بفتح الراء لأنه سبب لما فيه روح المسلمين كما قال « فَرَوْحٌ وريحان » ولأنه من المقربين والمقربون موعودون بالرّوح وتمثيله على تلك الصفة ابتلاء لها ولعفتها وقد تعففت .

وقيل : كانت فى منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه

وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت أن تجد خلوة فى الجبل لتلقى رأسها فانفرج السقف فخرجت وقعدت وراء الجبل فأتاها الملك . قيل : قام بين يديها فى صورة ترب لها اسمه يوسف من خدام بيت المقدس وبشرا حال ولو كان جامدا لمعنى مشتق .

وقال اللقانى : إن كان معنى تمثل تشخّص وظهر فالحالية ظاهرة أو تصور فينبغى جعل النصب بنزع الخافض وهو الباء إذ التصور ليس فى حال البشرية بل فى حال الملكية .

(قَالَتْ إِنِّى) وسكن الياء غير الحرميين وأبى عمرو . (أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ) من أن تنالنى بسوء . (إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) لله وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله أى إن كنت تتقى الله وتبالى بالاستعاذة به فأنا عائذة به منك أو فتتعوذ بتعويذى أو فجانبنى أو ينفعنى تعويذى .

ويجوز أن يكون للمبالغة أى إن كنت تقيا متورعا فإنى أعوذ منك فكيف إذا لم تكن كذلك . وقيل : التقىّ اسم لفاسق مشهور فى ذلك الزمان .

(قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) ضمير قال عائد للروح بمعنى جبريل ولو كان روح عيسى لم يصح أن يقال : « قال : إنما أنا رسول » إلى آخره .

(لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) بالنبوة وغيرها . أسند الهبة لنفسه مع أن الواهب هو الله لأن الله أرسله بها وهو الواسطة والسبب فإنه نفخ فيها رضى الله عنها فكأنه قال : لأكون سببا فى هبته .

ويجوز أن يكون حكاية لقول الله ويؤيده قراءة أبى عمرو وورش عن نافع والحلوانى عن قالون وكثير عن يعقوب ليهب بالياء ونسبها بعض الأكثر عن نافع والمشهور عنه الهمزة عندنا . وفى بعض المصاحف : إنما أنا رسول ربك أمرنى أن أهب لك .

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى) لم يجامعنى (بَشَرٌ) رجل بحلال فإن هذه الكناية إنما تطلق على الحلال ولو أرادت غير ذلك لقالت مثلا : ولم يفجرنى أو لم يخبث بى وقد قال جل وعلا : « من قبل أن تمسوهن » وقال سبحانه وتعالى : « أو لامستم النساء » .

ولا يقال : إن المراد يحتمل الزنا وكنى عنه بالمس ؛ لأنا نقول : ليس ها هنا بقمين أن يكنى عنه . ويدل لما قلنا أيضا قوله عز قائلا :

(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) لم أكن كثيرة المحبة للرجال وعظيمة المحبة لهم بأرنى . والبغى فعول من البغى الذى هو الزنا أصله بغوى اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداها بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء وقلبت الضمة كسرة . هذا قول المبرد فهو كصبور وغضوب صفة مبالغة لا تلحقها التاء فى المؤنث .

وقال ابن جنى : وزنه فعيل وإنه صفة مبالغة ولذا لم تلحقه التاء قال : ولو كان فعولا لقال : بغو كما قيل : فلان نهو عن المنكر .

ويصح أن يكون بوزن فعيل على أنه ليس صفة مبالغة ولم تلحقه التاء لجواز أن لا تلحق فعيلا بمعنى فاعل عند بعض إذا وجدت قرينة التأنيث .

وأجيز أن يكون فعيلا على أنه للنسب ولم تلحقه الياء لكونه للنسب وهذا بناء على أن فعيلا للنسب لا تلحقه التاء وهو مبحوث فيه والصحيح الأول وعليه ابن هشام .

قال الشيخ خالد : سأل المازنى جماعة من نحاة الكوفة عن هذه الآية بحضرة الواثق بالله فلم يأتوا بوجه الصواب فسأله الواثق عنها فأجاب بما قال الموضح . انتهى .

(قَالَ) الروح : (كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ) هكذا قال ربك وجملة (هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ) تفسير للإشارة أو المعنى : الأمر كذلك من خلق غلام منك من غير رجل . قال ربك : إن ذلك على هين .

(وَلِنَجْعَلَهُ) أى ونفعل ذلك لنجعله فهو تعليل لمحذوف أو لنظهر به قدرتنا، ولنجعله فهو معطوف على تعليل محذوف ومِثْلُه: « وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى » وقوله عز قائلا: « وكذلك مكّنّا ليوسف فى الأرض ولنعلّمه ».

وقيل : عطف على لأهب على مقتضى الظاهر أو على ليهب على طريق الالتفات من الغيبة للتكلم .

وقيل : معطوف على « هو علىّ هيّن » أى قال ربك : الأمر كذلك ؛ لأنه يسهل عندى ولنجعله وهو من العطف على المعنى المسمى فى غير القرآن العطف على التوهم .

(آيَةً لِلنَّاسِ) على كمال قدرتنا . (وَرَحْمَةً مِنَّا) على العباد يهتدون بإرشاده إلى مبعث محمد .

(وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) مفروغا منه فى الأزل لا تبديل ولا تغيير أو مسطرا فى اللوح أو كان أمرا حقيقا بأن يقضى .

قال ابن عباس : فاطمأنت إلى قوله . فدنا منها فنفخ فى جيب دِرعها أى قميصها . والجيب : مدخل العنق أو اليد فوصلت النفخة إلى بطنها .

وقيل : نفخ فى الدرع قبل أن تلبسه .

وقيل : مد الجيب بأصبعه ونفخ فيه .

وقيل : نفخ فى الكم .

وقيل : فى الذيل .

وقيل : من بعيد فوصل إليها النفخ .

وقال أبىّ : نفخ فى فيها .

(فَحَمَلَتْهُ) فى وقت النفخ (فَانْتَبَذَتْ) اعتزلت خوفا من الناس وحياء من أن يعيّرها أهلها وغيرهم بولادتها ولم تتزوج .

(بِهِ) وهو فى بطنها والباء للمصاحبة متعلقة بمحذوف حال من ضمير انتبذت (مَكَانًا قَصِيًّا) بعيدا من الناس وأهلها وهو وراء الجبل .

وعن ابن عباس : أقصى الوادى وهو وادى بيت لحم .

وقيل : أقصى الدار . ومدة بقائه فى بطنها ستة أشهر .

وقال الحسن والضحاك وعطاء وأبو العالية : سبعة أشهر .

وقيل : ثمانية . ولم يعش ثمانية غيره .

وقيل : تسعة كسائر الناس .

وقيل : حملته فى ساعة ، وصور فى ساعة ، ووضع فى ساعة حين زالت الشمس من يومها .

وقيل : ذلك كله فى ساعة . وهو قول ابن عباس . وما من مولود إلا يستهل غيره . وحاضت حيضتين قبل حمله وحملته وهى بنت ثلاث عشرة سنة .

وقيل : بنت عشر .

وقيل : ست عشرة .

قيل : كان ابن عم لها اسمه يوسف لما قيل : حملت بالزنا خاف عليها قتل الملك فهرب بها . فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه أن يقتلها فأتاه جبريل فقال : إنه من روح القدس فلا تقتلها فتركها .

وعن وهب أن يوسف هذا أول من علم ببطنها وكان هو وهى يخدمان المسجد ولا يعلم فى زمانهما أشد عبادة منهما . وتحيّر كلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها وعفتها وأنها لم تغب عنه . فقال لها : وقع فى نفسى من أمرك شىء وقد حرصت على كتمانه فغلبنى أن أتكلم به فقالت : قل قولا جميلا .

قال : أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر ؟ وهل ينبت شجر من غير غيث ؟ وهل يكون ولد من غير ذكر ؟

قالت : نعم ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر ؟ ألم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث . أو تقول : إن الله لم يقدر أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء . ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها .

قال يوسف : لا أقول هذا ولكن أقول : إن الله يقدر على كل شىء يقول له : كن فيكون .

قالت له مريم : ألم تعلم أن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجته منه . فزال ما فى نفسه من التهمة وكان ينوب عنها فى خدمة المسجد لضعفها بالحمل . فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها : انتبذى مكانا قصيًّا .

(فَأَجَاءَهَا) جعلها جائية وهو أفعل كأكرم من المجىء دخلت همزة التعدية على جاء وكأنه قال : جاء بها .

(الْمَخَاضُ) وجع الولادة ويفسر أجاء بالإلجاء كما يفسر الإيتاء بالإعطاء مع أنه من زيادة الهمزة على أتى . وقرئ بكسر الميم .

(إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) نخلة يابسة فى الصحراء فى شدة البرد ولم يكن لها سعف ولا رأس جاءت إليها لتمسك لشدة الولادة وذلك فى الشتاء .

والتعريف إما للغلبة كالبيت للكعبة كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة معروف عند الناس ليس ثَمّ غيره فإذا قيل : جذع نخلة فُهِمَ هو دون غيره وإما للعهد وإما للجنس ألهمها الله ذلك ليريها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذى هو طعام النفساء الموافق لها .

(قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ) من مات يمات كخاف يخاف . وقرئ مت بضم الميم يموت كقال يقول ويا للتنبيه أو النداء على حذف المنادى .

(قَبْلَ هَـٰذَا) الأمر الذى هو الحمل والولادة (وَكُنتُ نَسْياً) ما من شأنه أن ينسى أو يطرح عمدا ويترك كالخرقة والوتد والحبل والعصى ومن ذلك الذبح بكسر الذال ، والطحن لما يطحن وقد جمعت شيئا من ذلك فى شرح اللامية .

وقرأ حمزة وحفص والأعمش وابن وثاب بفتح النون وهو بمعنى المكسور لغتان عند الفراء كالوتر والوتر والجسر والجسر .

ويجوز أن يكون مصدراً سمى به الشيء . وقرأ محمد بن كعب القرظى نسيا بالهمزة وفتح النون وهو الحليب المخلوط بالماء وينساه أهله لقلته .

(مَنسِيّاً) نعت مؤكد وهو اسم مفعول أصله منسوى كمضروب قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء وقلبت الضمة كسرة .

وقرأ الأعمش بكسر الميم تبعاً للسين تمنت الموت والنسيان من جهة الدين لئلا يظن بها السوء فتكون الفتنة ولئلا يعصى الناس الله بسببها ولشدة التكليف عليها إذ يبهتوها وهى عارفة ببراءة الساحة وما أعظم أن تكون تستحق التعظيم بشيء خصك الله به ترى الناس يعيبونك به ويعنفونك وليس ذلك منها كراهة لأمر الله وقد تمنى عمر على مثل ذلك الحد .

(فَنَادَاهَا) عيسى أو جبريل (مِنْ تَحْتِهَا) رضى الله عنهما . وقيل : ضمير الإضافة للنخلة وهو قول قتادة .

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر بفتح الميم والفاء أى ناداها الذى تحتها وهو عيسى أو جبريل وكان جبريل يقبل الولد كالقابلة .

وقيل : تحتها : أسفل من مكانها أى بقعة أسفل من البقعة التى هى فيها

والأول أظهر ومذهب الحسن وأبى ومجاهد وابن جبير أن المنادى عيسى قبل وهو أظهر وأبين وبه يتبين عذر مريم رضى الله عنها ولا تبقى بها استرابة وفيه أنه لا حاضر من الناس لندائه ومذهب ابن عباس أن المنادى جبريل وأن عيسى لم يتكلم حتى جاءت به قومها وكان يقرأ فناداها ملك من تحتها . وقرأ زر وعلقمة : فخاطبها من تحتها :

(أَلَّا تَحْزَنِي) أن تفسيرية ولا ناهية وأن مصدرية تقدر الباء قبلها ولا نافية أو ناهية بناء على جواز دخولها فى الطلب .

(قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ) وقرأ ورش تحتش بإبدال كاف المخاطبة شينا وهى لغة ذكرها المرادى .

(سَرِيًّا) إنسانا عظيما شريفا من السرور وهو الشرف والسيادة وهو عيسى نفسه إن كان هو المنادى فإنما أخبر عن نفسه بذلك لأمر الله إياه ولإزالة الحزن عنها لا تفاخرا وذلك قول قتادة وابن زيد والحسن .

وقال الجمهور : نهر ماء صغير لم يكن ثم وهو باللغة السريانية . وقيل : قد كان قبل ذلك وانقطع . وهو قول البراء بن عازب .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن السرى فقال : نهر ماء .

وإن قلت : لم تحزن لفقد الماء أو الولد ولفقد الرطب فكيف يصبرها ويسليها بهما ؟

قلت : لم يقع تصبرها بهما من حيث إنهما ماء ورطب أو ولد ورطب ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد عن الريبة وأنها بمعزل عما تبهت به وأن لها أمورا خارقة للعادة فليس ولادتها من غير رجل ببدع :

(وَهُزِّى إِلَيْكِ) متعلق بمحذوف حال من جذع على أن الباء زائدة والجذع مفعول فلا تمنع من تقديم الحال أو يقدر الاستقرار بعده بل يقدر الكون الخاص أى هزى بجزع النخلة متوجها إليك . وغير زائدة .

والمعنى : افعلى الهز به وهذا بناء على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف غير زائد ولا يعلق إليك بهزى لأن الفعل لا يعمل فى ضميرين لمسمى واحد وكذا شبه الفعل إلا علم وما معه وقد يقال : الحق أنه إنما يمنع إذا لم يتعد لواحد بحرف وقد يعلق به على تقدير مضاف أى إلى نفسك لكن هذا المضاف غير محتاج إليه .

(بِجِذْعِ النَّخْلَةِ) وهو يابس كما ذكرت وقال : قوم إن الجذع الذى ألجأها إليه المخاض وأمرت بهزه كان سعفا مطعما رطبا . وعن بعض أنه جذع عجوة .

والصحيح أنه يابس ميت لما ولدت أحياه الله أورق وأثمر وأرطب فى حين .

وروى أن العين نبع من ضرب جبريل الأرض .

وقيل : ضربها عيسى فخرج .

وقيل : معنى كون العين تحتها أنه إن شاءت جرى وإن شاءت أمسك والهز : التحريك بجذب ودفع .

وقيل : الباء للاستعانة والمفعول محذوف أى هزى الثمرة بجذع النخلة أى بهز جزعها وإذا فسر بافعلى به الهز فهو لازم لا مفعول له .

ومن أخذ ثلاث خوصات من ثلاث نخلات ألوان : أصفر وأحمر وأخضر وكتب على كل خوصة « وهزى إليك – إلى – إنسيا » بقلم حديد ثم علق كل خوصة فى جريدتها من نخلتها أنجب ثمر نخله ويأتى آجلها عاجلا وسلم من الآفات وأنجب النخل بنفسه أيضا .

(تُسَاقِطْ) مجزوم فى جواب الأمر والأصل تتساقط بتاءين: تاء المضارع وتاء الماضى قلبت تاء الماضى وهى الأخيرة سينا وأدغمت بالسين وقرأ حفص بضم التاء وكسر القاف وبالتخفيف وقرئ تتساقط بالتاءين .

وقرأ حمزة تساقط بفتح التاء والقاف والتخفيف على حذف إحدى التاءين ويساقط بالمثناة التحتية وتشديد السين إدغاما لتاء الماضى فيها بعد قلبها سينا والمثناة والقاف مفتوحان .

قال بعض : وهذه قراءة يعقوب وتسقط ويسقط بضم أولها وكسر القاف وبفتح أولها وضم القاف والتاء للنخلة والياء للجذع .

(عَلَيْكِ رُطَبًا) تمييز على كل قراءة غير تسقط ويسقط بضم أولهما وكسر قافهما بأنه عليهما مفعول به وذلك على أن تساقط ويساقط بضم التاء والياء وكسر القاف بمعنى تتساقط . أما على أنهما بمعنى تسقط ويسقط بضم الأول وكسر القاف فرطبا مفعول به .

ويجوز أن يكون مفعولا فى قراءة تسقط ويسقط بفتح الأول وضم القاف على أنهما متعديان . وأجاز المبرد كون رطبا مفعولا لهزى قبل وليس كذلك .

(جَنِيًّا) بلغ أوان التقاطه . وكسر طلحة بن سليمان الجيم تبعا . قال الربيع ابن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب ولا المريض خير من العسل وكذا ينفع الرطب فى عسر الولادة .

(فَكُلِي) من الرطب (وَاشْرَبِي) من النهر . (وَقَرِّي عَيْنًا) طيبى نفسا وارفضى الحزن .

وقيل : قرى عينا بولدك وعينا تمييز محول عن الفاعل أى لتبرد عينك . وذلك أن دمعة الحزن حارة وقرئ قرى بكسر القاف وهو لغة نجد .

ويجوز أن يكون المراد اشربى من عصير الرطب وأن يكون قرى من القرار

بمعنى السكون ؛ فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه ولم تنظر لغيره وإثمار النخلة فى الشتاء أيضا معجزة .

وقال الثعلبى : إن ابن عمها يوسف بن يعقوب المذكور كان نجارا يتصدق من عمل يديه وإن اليوم الذى لقيها فيه جبريل أطول يوم فى السنة وآخره نفد ماؤها فقالت : يا يوسف ألا نذهب بنا نستقى ؟

فقال : إن عندى لفضلا من ماء أكتفى به يومى فمضت لتستقى فلقيها جبريل فاستعاذت منه وهو فى صورة شاب فقال : أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام — إلى — مقضيا . فاستسلمت لأمر ربها فنفخ فى جيبها ثم ملأت قُلّتها وانصرفت .

وقيل : وضعت درعها لتستقى وقال لها وقالت له ونفخ فى جيب الدرع ثم لبسته . وإن وَهْباً قال : المسجد الذى تخدمه ويوسف عند جبل صهيون وهو من أعظم مساجدهم يومئذ ولخدمته فضل عظيم وإنه لما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن المسجد بيت من بيوت الله طهُر ورُفع ليذكر فيه اسمُه فاجرى لموضع تلدين فيه فتحولت إلى بيت خالتها أم يحيى لما دخلت عليها قامت أم يحيى فالتزمتها فقالت امرأة زكريا : أشعرتِ أنى حبلى ؟

قالت مريم : وأنت شعرتِ أنى حبلى ؟

فقالت امرأة زكريا : إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك .

قيل : فذلك قوله : «ومصدقا بكلمة من الله» ثم أوحى الله إليها : إن ولدتِ بين قومك عيّروك وقذفوك وقتلوك وولدكِ .

وقال الكلبى : قيل لابن عمها : إنها حملت من الزنى وسيقتلها الملك فهرب بها

على حمار ليس بين ظهره وبينها شيء فانطلق بها حتى بلغ أرض مصر فى منقطع بلاد قومها وأدركها المخاض فى ذلك المكان إلى الجذع .

وإن ابن عباس قال : حملت به ووضعته فى ساعة لقوله سبحانه وتعالى : « فحملته فانتبذت به مكاناً قصيا » .

وإن مقاتلا قال : حملت فى ساعة ووضعت فى ساعة حين زالت الشمس من يومها وهى بنت عشرين سنة وقد حاضت حيضة واحدة قبل .

ولما اشتد بها الطلق التجأت إلى نخلة يابسة لا سعف ولا كرانيف ولا عروق لها فأحدقت الملائكة بها صفوفا والنخلة فى موضع يقال له : بيت لحم وإن النهر الذى أنبعه الله عذب بارد إذا أرادت الشرب وفاتر إذا أرادت استعمال مائه واستدل بالآية الربيع بن خيثم على أنه ما للنفساء خير من الرطب وميمون على أنه ما لها مثله إذا عسرت .

وكان ﷺ يحنك به أولاد الصحابة إذا ولدوا بعد ما يمضغه .

وعمد يوسف إلى حطب وجعله كالحظيرة حواليها بالقرب منها لتصطلى به من البرد وأوقد ناراً وكسر لها سبع جوزات كنّ فى خرجه . فمن ذلك يوقد النصارى ويلعبون بالجوز ليلة المولد .

ولما وُلد عيسى أصبحت الأصنام بكل أرض منكوسة ففزعت الشياطين وجاء إبليس وهو فى عرش له على نخلة خضراء يمثل بالعرش يوم كان على الماء وقد مرت ست ساعات من النهار ففزع منهم إذ رآهم جماعة وقد كانوا من قبل يلقونه فرادى فذكروا أن الأصنام نكست وأنه ما لنا على بنى آدم أشد عونا منها نكلمهم من جوفها وقد صغرت عندهم وخشينا أن لا تعبد بعد وإنا لم نأتك حتى خضنا الأرض والبحار ولم نزدد إلا جهلا .

فقال لهم : إن هذا الأمر عظيم فكونوا على مكانكم فطار إبليس فلبث ساعة وقد مر على مكان الولادة ورأى الملائكة محدقين .

وعلم أن الحدث فيه فأراد أن يأتيه من تحت الأرض فإذا أقدام الملائكة راسية فى الأرض فأراد أن يدخل من بينهم فنحّوه يريد أن يطعنه بأصبعه فى جبينه كما يفعل بكل مولود فيصرخ فلم يقدر .

فرجع فقال : ما جئتكم حتى خضت الأرض مشرقها ومغربها وبرها وبحرها والخافقين والجو الأعلى .

وقيل : ذلك فى ثلاث ساعات وأخبرهم بمولد عيسى عليه السلام .

وقال لهم : ما اشتملت رحم أنثى على ولد إلا بعلم . ولكن - لعنه الله - لا يعلم ما فى البطن ذكراً أو أنثى ولا أحواله وهو كاذب فى ادعاء العلم .

قال : ولا وضعت أنثى إلا بحضرتى وإنى لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدى وما كان نبى قبله أشد علىّ وعليكم منه . وخرج فى تلك الليلة قوم يقصدونه من أجل نجم طلع قد تحدثوا أن طلوعه فى كتاب دانيال من علاماته ومعهم الذهب والمر واللبان فمروا بملك من ملوك الشام فسألهم : أين يريدون ؟ فأخبروه .

فقال : ما بال هذه الأشياء أهديتموها دون غيرها ؟

قالوا : تلك مثاله فإن الذهب سيد المتاع كله وكذلك هذا النبى سيد أهل زمانه . والمر يشفى به الجرح والكسر وكذلك هذا النبى يشفى به كل مريض . واللبان يتبع دخان السماء ولا ينالها دخان غيره وكذا هذا النبى يرفع إلى السماء دون غيره فى زمانه فحدث الملك نفسه بقتله .

فقال : اذهبوا فإذا علمتم مكانه فأعلمونى بذلك فإنى أرغب فى مثل ما رغبتم من الخير .

وانطلقوا حتى دمسوا ما كان معهم من المدية إلى مريم فرجعوا إلى الملك ليعلموه بمكانه فلقيهم ملك فقال : لا ترجعوا إليه ولا تعلموه فإنما أراد قتله فانصرفوا فى طريق آخر .

قال مجاهد : قالت مريم : كنت إذا خلوت تكلم معى من بطنى وإذا شغلنى إنسان سبح فى بطنى وأنا أسمع .

(فإمَّا ترَيِنَّ) إن الشرطية وما الزائدة قال الشيخ خالد : أصله قبل التوكيد ترأيين كتمنعين نقلت حركة الهمزة إلى الراء قبلها ثم حذفت الهمزة فصار تريين بفتح الراء وكسر الياء الأولى وسكون الثانية . فإما أن تقول : حذفت الكسرة لاستثقالها أو تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا وعلى التقديرين التقى ساكنان حذف أولهما فصار ترين بفتح الراء وسكون الياء ثم دخل الجازم وهو إن الشرطية المتصلة بما الزائدة فحذفت نون الرفع فصار ترى بفتح الراء وإسكان الياء ثم أكد بالنون فالتقى ساكنان ياء المخاطبة ونون التوكيد وتعذر حذف إحداهما لعدم دليله فحركت الياء بحركة تجانسها وهى الكسرة ولم تحرك النون المدغمة محافظة على الأصل ولعروض الكسرة لم تقلب الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . انتهى .

وعن ابن رومى عن أبى عمرو ترَئِنَّ بالهمزة مبدلة عن ياء المتكلم والهمزة بدل من الياء التى هى لام الكلمة وأما الياء التى هى ضمير فمحذوفة وذلك أن بين الهمزة والياء تآخيا .

(مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا) صمتاً كما قرأ به ابن مسعود وغيره كأنس بن مالك . وقيل : المراد الصيام وكانوا لا يتكلمون إذا صاموا وقد نهى ﷺ عن صوم الصمت لأنه نسخ فى أمته وكان أنس يقرأ أيضا صمتا .

وروى أن من أراد الاجتهاد من بنى إسرائيل صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم حتى يمسى وهذا لا يجوز عندنا معشر الأمة أعنى نذر الصمت. والقائل لها فإما ترين الخ جبريل أو عيسى عليهما السلام أمرت أن تقول : إنى نذرت الرحمن صوما الخ ثم تمسك . هذا قول الجمهور .

وقيل : تقول ذلك بالإشارة . وفى الكلام حذف أى فإما ترن من البشر أحدا وسألك فقولى : إنى نذرت للرحمن صوما و تفويض الكلام للأفضل أفضل وذلك لئلا تسرع مع البشر المتهمين لها فى الكلام لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يبرئ ساحتها و لكراهة مجادلة السفهاء . قيل : السكوت عن السفيه واجب . ومَن أذلّ الناس سفيهٌ لم يجد مسافها .

(فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ) فى شأن الولد وغيره . (إِنْسِيًّا) آدميا بل أكلم الملائكة وأناجى ربى .

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) بعد أربعين يوما من ولادته . وعن الكلبى : احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فأدخلها فيه وبعها أربعين يوما فكلمها عيسى فى الطريق : يا أماه أبشرى فإنى عبد الله ومسيحه . ولما دخلت على أهلها ومعها الصبى بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين .

(قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) بديعا منكرا جئت بولد من غير زوج وما ذكر من المكث أربعين ذكره فى عرائس القرآن . وقيل : أتت به تحمله حين ولدته .

(يَا أُخْتَ هَارُونَ) أى يا شبيهة هارون وهو هارون غير هارون موسى رجل صالح يسمى هارون المصلح المخبت فى عشيرته شبهت به عفة وصلاحا أو تهكما وليس أخاها فى النسب أى كيف صدر منك هذا الفعل مع ما رأينا من صلاحك .

وفي عرائس القرآن : تبع جنازة هارون هذا أربعون ألفا من بنى إسرائيل كل يسمى هارون . قيل : تبركا به سوى سائر الناس وهو قول قتادة .

وقال وهب : كان هارون هذا من أفسق بنى إسرائيل وأفسدهم فشبهوها به .

وقيل : رجل صالح من أصلح بنى إسرائيل أخ لها من أبيها .

وقيل : هو أخو موسى لأنها من نسله . كما يقال لواحد من العرب : يا أخا العرب ، ولتميمى : يا أخا تميم والمشهور غير هذا .

وعن المغيرة بن شعبة : لما قدمت خراسان قالوا : إنكم تقرأون يا أخت هارون . وقيل : قدم نجران بأمر النبي ﷺ فقال له النصارى أخانهم الله : إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت هارون وبينهما ستمائة سنة .

قال : لم أدر ما أقول . فلما قدمت على النبي ﷺ ذكرت له ذلك فقال : ألم يعلموا أنهم يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين والحق أن بينهما ألف سنة . وقيل : هي من عقب من كان مع هارون في طبقة الأخوة لا من نسله وهي رواية عن النبي ﷺ . وقيل : بينهما ألف أو أكثر . وعن السدى أنها من نسله .

(ما كَانَ أَبُوكِ) عمران . (امْرَأَ) إنسان . (سَوْءٍ) زنى بفتح السين .

(وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) شديدة البغى الرحل لأجل الزنا فمن أين صارت لك هذه الفعلة حتى جئت بهذا الولد وفي ذلك تعظيم لفعلها وإعلام بأن الفاحشة من أولاد الصالحين أفحش وهموا برجمها وحاوروها . قيل : جاء زكريا وقال لعيسى : انطق بحجتك إن كنت أمرت بها .

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) أن يكلموه ليجيب . (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ) مهد الصبي . وقيل : حجرها . (صَبِيًّا) لم يعهد كلام مثله وهو إذ ذاك ابن أربعين يوما أو أكثر . وقيل : يوم ولد ، وغضبوا . قالوا : لسخريتها

بها أشد من زناها. وكان ناقصة. والمراد الاستمرار. وفى المهد متعلق بها وصبيا خبرها أو بمحذوف خبر. وصبى خبر آخر أو حال من ضمير كان أو من ضمير الاستقرار أو تامة. وصبيا حال من ضمير كان أو زائدة. وفى المهد صلة من وصبيا حال من ضمير استقرار الصلة. وكان ناقصة بمعنى صار.

وقيل: إن الكلام على ظاهره وإنه حينئذ خارج من حد المهد غير داخل فى حد الكلام فكان للزمان الماضى القريب وسوق ذلك تعجيبا. قيل: ووجه آخر أن يكون تكلم حكاية حال ماضية أى كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيا فى المهد فيما سلف من الزمان حتى تكلم هذا.

(قَالَ) بعد ما أمره زكريا أو بعد إشارتها أو لسماع مناظرتهم وبعد الإشارة وكان يرضع فترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه متكئا على يساره وأشار بسبابته وذكر ما قال الله عنه قبل ولم يتكلم حتى بلغ وقتا يتكلم فيه الصبى.

(إِنِّى) وفتح الياء حمزة. (عَبْدُ اللهِ) أنطقه الله أولا بهذا لأنه أول المقامات العبودية وردًّا لما يقول النصارى: إنهُ إلهٌ. وذكر بعد ذلك مايدل على براءتها ويزيل الحزن عنها فإن ولد الزنى لا يؤتيه الله الكتاب فى صغره حيث لم يمهد ولا يجعلهُ نبيا. وذكر بعد ذلك أنهُ ما كان لله أن يتخذ من ولد. وقيل: لم يؤت الله عيسى الكتاب فى صغره.

(آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا) عبر بالماضى لتحقق الوقوع أى سيؤتينى الكتاب وسيبعثنى نبيا كما قال سيدنا محمد ﷺ: كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد. أو المراد أنهُ قضى فى الأول بإيتاء الكتاب والجعل نبيا والكتاب: الإنجيل. قيل: والتوراة.

وقيل: علّمه الله الكتاب وهو طفل فى المهد وعليه الأكثر. وقال الحسن: فى البطن وكذلك أكمل الله عقله فى طفوليته ونبأه.

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا) نفاعا للناس من بعد حين .

وقيل : معلما للخير أدعو إلى الله وتوحيده وعبادته ناهيا عن المنكر .

وقيل : مباركا على من تبعنى ومن يعلم الناس الحكمة ويسوقهم فى فعلها فلا أعظم منه ومقامه كمقام نبى . (أَيْنَ مَا كُنْتُ) حيث كنت .

(وَأَوْصَانِي) أمرنى (بِالصَّلَاةِ) صلاة ركوع وسجود . وقيل : الدعاء .

(وَالزَّكَاةِ) زكاة المال إن ملكته وزكاة النفس عن الذنب كانه طفلا لكمال عقله .

وقيل : أمرنى أن أصلى وأزكى إذا بلغت أو أوصانى أن أبلغهما وآمر بهما وأفعلهما . (مَا دُمْتُ حَيًّا) فى الأرض والسماء .

(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي) بارا بها محسنا إليها ، والعطف على مباركا كأنه قيل : وجعلنى مباركا . وقرئ بكسر الباء على أنهُ مصدر وصف به عيسى .

قال أبى : وناهيك جعل ذاته برا لفرط بره ، أو على تقدير مضاف ، أو منصوب على هذه القراءة بمحذوف دل عليه أوصى ، أى وكلفنى برا . ويقوى هذا الوجه قراءة من قرأ وبر بالجر وبكسر الباء عطفا على الصلاة .

(وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا) متكبرا . (شَقِيًّا) عاصيا لله ، أو عاقا لوالدتى ، بل أنا خاضع متواضع .

روى أنه قال : أنا لين القلب ، صغير فى نفسى . وكان يأكل الشجر ، ويلبس الشعر ، ويجلس على الأرض ، ويأوى حيث جنه الليل . ولا مسكن .

قال بعض : لا تجد العاق إلا جبارا شقيا . وتلا الآية .

وقيل : المراد فى الآية بالشقى : مَن يذنب ولا يتوب عن الشرك .

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ) عند الولادة من طعن الشيطان وغير ذلك .

وعن بعض : إنما ولدته من خاصرتها . وبعض : من إبطها .

وأل للعهد الذكرى أى والسلام الموجه إلى يحى فى المواطن الثلاثة موجه إلىّ . وذلك لاطلاعه على أن ذلك كان ليحى وأن له مثله .

والصحيح أنها للجنس ، جعل جنس السلام لنفسه ، تعريضا بأن جنس اللعن على أعدائه من اليهود ومن أشرك من النصارى وغيرهم ؛ فإن المقام قمين بهذا التعريض ، لكونه مقام عناد . ومثله : « والسلام على من اتبع الهدى » فإنه تعريض بأن العذاب على من كذّب وتولّى .

وعن الحسن : التقى يحى وعيسى عليهما السلام فقال يحيى : استغفرلى ؛ أنت خير منى .

فقال عيسى : استغفرلى ؛ أنت خير منى . سلّمت على نفسى وسلّم الله عليك .

(وَيَوْمَ أَمُوتُ) من الشرك . (وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) من أهوال القيامة .

ولما سمعوا ذلك أذعنوا وقالوا : إن هذا الأمر عظيم . ولم يتكلم بعد ذلك حتى بلغ أوان الكلام :

(ذَٰلِكَ) الذى قال ما قال (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) لا ما تصفه النصارى . وهذا تكذيب لهم فيما يصفونه به على الوجه الأبلغ بالطريق البرهانى ؛ حيث جعله الموصوف بخلاف ما يصفونه .

(قَوْلَ الْحَقِّ) خبر لمحذوف ، أى الكلام المذكور قول الحق الذى لا ريب فيه . و لإضافة للبيان . وإن شئت قدرت المبتدأ ضميراً لكلام أو ضميراً لتمام القصة .

ويجوز أن يكون قول خبرا ثانيا لاسم الإشارة ، على أن المعنى كلمة الله ، وأن يكون نعت عيسى أو بدله .

وقرأ الحسن : قول الحق بضم القاف .

وقرأ ابن مسعود : قال الحق بضم اللام ؛ فإنه يقال : القول والقال بفتح القافين ، والقول بضمهما كالرهب بفتح بإسكان وبفتحتين ، كما أن القال أصله القول بفتحتين ، قلبت الواو ألفا والرهب بضم بإسكان .

وقرأ عاصم وابن عامر وابن عباس قيل : ويعقوب : قول الحق بالنصب .

وعن ابن مسعود قال : الحق بالنصب أيضا . والنصب قيل : على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، إن أريد قول الثبات والصدق ، وإن قلنا : الحق الله . وكأنه قيل : كلمة الله فالنصب على المدح . ويجوز النصب على المدح عندى ولو أريد بالحق الثبات والصدق .

وإنما قيل لعيسى عليه السلام : قول الحق وكلمة الله ؛ لأنه ولد بقوله عز وجل : كن ، من غير واسطة أب تسمية للمسبب باسم السبب .

وإذا أريد بقول الحق عيسى فالحق الله أو الصدق .

قيل : ويعضد هذا قوله : (الَّذِى فِيهِ) أى فى أمره (يَمْتَرُون) أى أمره حق يقين ، وهم فيه شاكّون . والامتراء : الشك أو الجدال .

قالت اليهود : ساحر كذاب . وقالت النصارى : الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وقرأ علىّ تمترون بالمثناة الفوقية على الخطاب . وعن أبىّ : قول الحق الذى كان الناس فيه يمترون .

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) تكذيب لمن يقول من النصارى : هو ابن الله .

(إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) تبكيت لهم بأن من إذا

أراد إحداث أمر أوجده يقول له : كن ، منزه عن شبه الخلق وعن الحاجة ، فى اتخاذ الولد ؛ بإحبال الإناث ؛ إذ من المحال الواضح أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد .

وقول كن حقيقة ، يخلق الله لفظ كن فى الهواء ، وحيث شاء ، أو مجاز على أن المراد أن إرادته الشىء يتبعها كونه من غير توقف . وهذا مذهبنا ويقويه : أنه يقول لأول مخلوق: كن وليس حينئذ مخلوق ولا هواء يخلق فيه كن. وقيل : الهواء عدم والعدم لا يصلح أن يكون ظرفا لقول والخصم يقول: له ما يخلق فيما شاء إذا أوجد ما يخلق فيه . والفاء للعطف على يقول أو للاستئناف إن قلنا: إنه يأتى الفاء للاستئناف كالواو .

وقرأ ابن عامر بالنصب . قال القاضى : هو على الجواب أى جواب الأمر وهو كن وفيه أنه ليس منخرطا فى سلك المقول فإنه ليس مما يقوله إذا أراد شيئا وقال له : كن ولعل النصب عطف على مصدر مقدر معنى أى فإنما أمره القول كن فيعطف مصدر يكون على القول على حد : ولُبس عباءة وتقرّ عينى ويأتى إن شاء الله مزيد كلام .

(وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا) المذكور . (صِرَاطٌ) طريق (مُسْتَقِيمٌ) مؤد إلى الجنة وذلك من كلام عيسى عليه السلام ولام الجر مقدرة قبل أن متعلقة باعبدوه والفاء زائدة ويجوز العطف على الصلاة والزكاة والاستئناف على تقدير : اذكر ، فلا تقدر اللام .

وقرأ الكوفيون وابن عامر بكسرة الهمزة على الاستئناف . وقرأ أبىّ بالكسر وإسقاط الواو . وقيل فى قراءة الفتح العطف على الكتاب . وقيل فى الكسر : إن ذلك من تمام ما أمر به محمد ﷺ أن يقوله

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ) الذين تحزبوا (مِنْ بَيْنِهِمْ) كانوا أحزابا فى أمر عيسى . قالت اليهود : إنه من زنا وإنه كاذب ، حاشاه ﷺ .

وقالت النصارى : إله ، أو ابنه ، أو ثالث ثلاثة .

وقيل : المراد فرق النصارى قالت النسطورية منهم : إنه ابن الله ، تعالى الله عما يشركون .

وقالت اليعقوبية : هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء .

وقالت الملكانية : هو عبد الله ونبيه .

وعن قتادة : جمع بنو إسرائيل أربعة أحبار منهم غاية فى المكانة والجلالة وطلبوا منهم أن يبيّنوا أمر عيسى فقال أحدهم : عيسى هو الله . فقال له الثلاثة : كذبت ، واتبعته اليعقوبية .

وروى أنه قال : هو الله هبط إلى الأرض فخلق ما خلق وأوحى ما أوحى . ثم صعد إلى السماء فكذبه الثلاثة ثم قيل للثلاثة فقال واحد منهم : هو ابن الله . وقال الاثنان : كذبتَ واتبعته النسطورية . ثم قيل للاثنين فقال أحدهما : أحد ثلاثة : الله إله وعيسى إله ومريم إله فقال له الرابع ، كذبت واتبعته الإسرائيلية من النصارى . فقيل للرابع فقال : هو عبد الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وتبعه قوم ، وهم الحقون المؤمنون ، وقالوا لهؤلاء الكفرة أو قال لهم الرابع وحده : نناشدكم الله هل تعلمون أن عيسى كان يأكل الطعام ، وأن الله لا يطعَم ؟

فقالوا : اللهم نعم .

فقال : هل تعلمون أن عيسى كان ينام ، وإن الله لا ينام ؟

فقالوا : اللهم نعم . فخصّهم فاقتتلوا .

فقيل : إن اليعقوبية ظهرت يومئذ على المسلمين وغيرهم مأنزل الله : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق » .

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يوم القيامة . والمشهد مصدر ميمى ، أى من حضورهم لهول ذلك اليوم وحسابه وجزائه ، أو اسم زمان ، أى من وقت حضورهم له ، أو اسم مكان ، أى من مكان حضورهم فى ذلك اليوم . أو مصدر ميمى مضاف لما هو فاعل معنى ، أى من شهادة ذلك اليوم عليه . وإسناد الشهادة مجاز فى الإسناد ، أو مجاز بتقدير مضاف ؛ فإن الشاهد الملائكة والأنبياء وألسنتهم وأرجلهم ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان على إسناد الشهادة اليوم . أو مصدر ميمى ، على أن المعنى من شهادتهم على عيسى وأمه ، أو مصدر ميمى بمعنى اسم مفعول ، على معنى ماشهدوا به على عيسى وأمه

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ) الهاء فاعل أسمع جر بالباء المجىء فعله على صيغة الأمر ، وأبصر مثل أسمع لكن فاعله محذوف ، أى أبصر بهم ، لدلالة ما قبله ، والفعلان للتعجب مصروفا إلى المخلوق أى تعجب من إبصارهم وسمعهم يومئذ بعد ما كانوا صما عميا فى الدنيا .

وقيل : معناه التهديد بما يسمعون ويبصرون ، مما يسوؤهم ويشق قلوبهم .

وقيل : إنهما فعلا أمر مستترا فاعلاهما ، والجار والمجرور المذكوران والمقدران فضلات . والصحيح الأول ، وعليه ابن هشام .

قال الشيخ خالد : وإنما حذف لدليل مع كونه فاعلا لأن لزومه للجر كساه صورة الفضلية ، خلافا للفارسى وجماعة ، ذهبوا إلى أنه لم يحذف ولكنه مستتر فى الفعل حين حذفت الباء كما فى قولك : زيد كفى كاتبا أصله كفى به كاتبا .

ورده ابن مالك بوجهين : أحدهما لزوم إبرازه حينئذ فى التثنية والجمع .

والثانى : أن من الضمائر ما لا يقبل الاستتار كنا من أكرم بنا . انتهى كلام الشيخ خالد .

وقد يجاب بأن عدم إبرازه لإلحاقه بضمير أفعل فى نحو ما أحسن زيدا . فكما لم يجمع ولم يثن فيما أفعل كذلك فى أفعِلْ به ، لاتفاق الفعلين فى المعنى ، ولكونه فى تركيب جرى مجرى المثل فلا يغير . وبأن للفارسى أن لزم امتناع الاستتار فى نحو : أكرم بنا ، ويخص الاستتار بغيره .

(يَوْمَ يَأْتُونَنَا) هو يوم القيامة .

(لَـكِنِ الظَّالِمُونَ) المشركون والمنافقون .

وقيل : المراد من سبق ذكره ، ووضع الظاهر موضع المضمر إشعارا بأن لا ظلم أشد من ظلمهم ، حيث غفلوا عن الاستماع والنظر حين ينفع ذلك (الْيَوْمَ) فى الدنيا . (فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) عن الحق وهو ترك الاستماع والنظر .

وقيل : اليوم يوم القيامة قرن بأل التى للحضور لأنه لتحقق وقوعه كأنه حاضر أو أل فيه للعهد الذكرى أى هم فى ضلال عن طريق الجنة بخلاف المؤمنين .

(وَأَنْذِرْهُمْ) خوف يا محمد كفار مكة . يزعم زُويعم أن الإنذار منسوخ بآية السيف (يَوْمَ الْحَسْرَةِ) يوم يتحسر الناس كلهم ، المسىء على إساءته ، والمحسن على قلة إحسانه .

وقيل : المراد تحسر الكافر على فوات منزله فى الجنة ، والصحيح الأول .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : ما من أحد يموت إلا ندم . قالوا : وما ندمه يارسول الله ؟ قال : إن كان مُحسنا ندم أن لايكون ازداد ، وإن كان مسيئا ندم أن لا يكون نزع أى كف عن الذنب .

وزعم بعض من أكثر المفسرين أن الحسرة ذبح الموت. عن أبى سعيد عنه ﷺ : يؤتى بالموت على صورة كبش أملح، أى مختلط ببياض وسواد ، ويجعل على سور بين الجنة والنار ، فيناديهم مناد : يا أهل الجنة يا أهل النار فيشرفون أى يمدون أعينهم ينظرون ، فيقول: هل تعرفون هذا ؟ فيقول : نعم هو الموت . وفى رواية : ينادى أهلَ الجنة : هل تعرفون هذا ؟ فيقول : نعــم ثم أهل النار كذلك ، فيذبح على السور . فيقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . فلو أن أحدا مات فرحا لمات أهل الجنة . ولو أن أحـدا مات حزنا لمات أهل النار ، ويزداد أهل الجنة فرحا ، وأهـل النار حزنا ثم قرأ : « وأنذرهم يوم الحسرة » .

(إذْ) بدل من يوم أو متعلق بالحسرة . (قُضِيَ الأَمْرُ) فرغ من الحساب، هذا إلى الجنة ، وذلك إلى النار ، أو قضى لهم العذاب مع الخلود ، وذبح الموت .

ويجوز أن يراد بالحسرة الجنس ؛ لأن فى ذلك اليوم حسرات هول الموقف ، وأخذ الصحف بالشمائل ، وزفير النار ، وغير ذلك .

وذبح الموت تمثيل عن أنه لاموت ؛ فإن الموت هو زوال الحيـاة ، عرض لا جسم ، فضلا عن أن يكون فى صورة كبش ، أو يخلق الله جسما يذبح حقيقة ، أو يرد الله العرَض جسما ، والقدرة صالحة لذلك . ومشهور مذهب المنع من ذلك (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) فى الدنيا عن ذلك اليوم .

والجملة حال من ضمير الاستقرار فى قوله : « فى ضلالٍ » وما بينهما اعتراض . وقيل : مستأنفة . وقيل : حال من هاء أنذرهم ، ففيها معنى التعليل . وكذا الكلام فى قوله : (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بذلك اليوم ، لكن هذه الجملة إنمـا تكون حالا بواسطة العطف . ويجوز كون واوها للحال ، وصاحب الحال ضمير الاستقرار فى قوله : « فى غفلة » .

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا) من العقلاء وغيرهم ، كناية عن بقائه بلا غاية بعد فناء خلقه . والمراد نميتهم ونخرب ديارهم وأموالهم ، أو نفنى أجسادهم والأرض وما فيها .

(وَإِلَيْنَا) لا إلى غيرنا (يُرْجَعُونَ) لنجازيهم بما عملوا .

(وَاذْكُرْ) اتل بلسانك وأشهر لهم ، وإلا فالله هو الذاكر (فِي الْكِتَابِ) القرآن . (إِبْرَاهِيمَ) أى أمره .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا) الصِّدِّيق : ملازم الصدق ، أو كثير الصدق ؛ لكثرة ما صدّق من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله . وهو بناء مبالغة كالسِّكيت والنِّطيق والضحِّيك .

والصِّدِّيقية : قريبة من النبوة . ومِلاك أمر النبوة الصدق . ولذا أعقب بذكر النبوة .

وعن بعض : أن من صدّق اللهَ فى وحدانيته ، وصدّق أنبياءه ورسله والبعث ، وعمل بالأوامر فهو صِدِّيق .

وقال الشيخ إسماعيل ـ رحمه الله ـ : الصِّدِّيق : مَن صَدَق قولا ونية وإرادة وعزما ووفاء بالعهد وعملا ، وصدّق فى تحقيق مقامات الدين .

(إِذْ) بدل من إبراهيم وما بينهما معترض ، كقولك : رأيت زيدا ـ ونعم الرجل ـ أخاك بإبدال الأخ من زيدا . ومتعلق بكان أو بصديقا او بنبيا .

(قَالَ لِأَبِيهِ) آزر : (يَا أَبَتِ) التاء عوض من ياء الإضافة . ولذلك لا يقال : يا أبتى ويقال : يا أبتا . وإنما يذكر ذلك استعطافا ولذا كرر . قاله القاضى .

قلت : لا يقال : يا أبتى لئلا يجمع بين العوض والمعوض عنه كما هو مشهور .

قيل : ويقال : يا أبتا لعدم الجمع بين ذلك ؛ إذ الألف بدل من الياء لا من التاء .

وأقول : هذا أيضا جمع بين العوض والمعوض عنه : فإن التاء عوض عن الياء والألف بدل من الياء فكأنه جمع بين الياء والتاء . نعم لم يجمع بين لفظ الياء ولفظ التاء .

وقد يقال : يا أبتى بالياء وهو ضرورة خلافا لكثير من الكوفيين ويا أبتا أسهل لذهاب صورة المعوض عنه .

وقال ابن مالك : الألف فى يا أبتا ليست بدل ياء بل هى الألف التى يوصل بها آخر المندوب والمنادى البعيد والنكرة .

(لِمَ تَعْبُدُ) استفهام للإنكار والتوبيخ (مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ) يجوز أن يحمل نفى السمع والإبصار على كل المسموعات والمرئيات .

(وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا) من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعا ولا يدفع عنك ضررا .

وكان إبراهيم جامعا لخصائص الصدّيقين والأنبياء حين خاطب أباه بتلك المخاطبات . وذلك أن أباه يعبد الأصنام ، فدعاه إلى الهدى وبيّن ضلاله ، واحتج عليه أبلغ احتجاج ، وأرشده برفق وحسن أدب ، حيث لم يصرح بضلاله ، بل طلب العلة التى تدعوه إلى عبادة ما يستخف به العقل الصريح ، ويأبى الركون إليه ، فضلا عن عبادته التى هي غاية التعظيم ،ولا تحق إلا لمن له الاستغناء التام والإنعام العام ، وهو الخالق الرزاق المحيي المميت المعاقب المثيب .

ونبَّه على أن العاقل ينبغى أن يفعل ما يفعل لغرض صحيح . والمعبود ولو كان حيا مميزا سميعا بصيرا نافعا ضارا لكنه مخلوق ، لاستنكف العاقل عن عبادته وإن كان أشرف الخلق كالملائكة والنبيين ؛ لأنه يراه مثله فى الحاجة والانقياد إلى القدرة الواجبة ، فكيف إذا كان جمادا لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ؟ ! ذكره الزمخشرى .

وذُكر عن أبى هريرة عنه ﷺ : أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : إنك خليلى ، حَسِّن خُلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار ؛ فإن كلمتى سبقت لمن حسُن خلقه ، أظله تحت عرشى ، وأسكنه حظيرة القدس ، وأدنيه من جوارى .

(يَا أَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ) بالله .

وقيل : من النبوة (مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى) على دينى (أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) مستقيما ، يوصلك إلى خير دائم ، وينجيك من عذاب مؤلم .

ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) أى لا تطعه .

ويا أبت : دعاء ثالث لأبيه وزجر عما هو فيه ؛ فإن عبادة الأصنام مع خلوها عن نفع مستلزمة للضر ؛ فإنها عبادة للشيطان، لحبه إياها وأمره بها . وبيَّن الضرّ بأن الشيطان مستعص على ربك المولى بالنعم كلها كما قال :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) كثير العصيان ، ومطيع العاصى المحارب عاص محارب ، مع أن الشيطان هو عدوك الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ، وعدو أبيك آدم .

لكن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص، وارتقاء همته فى الربانية ،

لم يذكر هـذه الجناية ، أعنى الجناية بالمخلوق ، وذكر الجناية برب العزة ، وهى عصيانه ، كأن نظره فى عِظم ما ارتُـكب فى جنب الله غمر فكره ، وانطلق على ذهنه ، مع أن هذه الجناية شاملة للجناية فى جنب المخلوق وأصل لها . والشيطان الذى استعصى على ربك هو الذى ورطك فى الضلالة ، ليغضب عليك ربك ، وينتقم ، ويزيل عنك النعم . كما قال :

(يَا أَبَتِ إِنِّي) وسكن الياء غير الحرميين وأبى بكر (أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ) يصيبك (عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) قرينا فى اللعن أو العذاب فى النار ، تليه أو يليك أو ثابتا موالاته ؛ فإن كونه من أشياع الشيطان أكبر من العذاب ، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب .

استهجن إبراهيم عليه السلام على أبيه عبادة الأصنام ، وزجره عنها ، وخوَّفه سوء العاقبة بألطف وجه ، حيث عبَّر بقوله : يا أبت وكرره . وذلك دليل على شدة الحب ، والرغبة فى صرفه عن العقاب ، وحيث لم يصرح بأن العذاب لاحقٌ له ، بل عبَّر بالخوف ، وحيث عبَّر بالمس الذى هو فى العـذاب بحسب الظاهر كالذوق فى الأكل ، وحيث عبَّر بعذاب نكرة كأنه قال بعض العذاب ، وغير ذلك مما مر ، كالتعبير بولاية الشيطان .

والخوف بمعنى العلم قاله الطبرى . أو على ظاهره ، أى إن أصررت على الكفر دخلت النار . وإلا فالجنة . كأنه قال : إنى أخاف أن تموت على كفرك فتدخل النار .

ورجَّحه بعض وقال : إنه فى وقت المقـالة جاهل للعاقبة لم يكن آيسا من إيمانه . والرفق واجب على كل أحد فى مقام الرفق ، ولا سيما مَن هو نبى ، ولا سيما مع الأب .

(قَالَ) أبوه (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ) أتارك أنت عبادتها فتعيبها .

والاستفهام توبيخ وإنكار وتعجيب ، يعني أن آلهتي ما ينبغي أن ترغب عنها . وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه .

وشتان ما بين إبراهيم وأبيه ؛ فإن إبراهيم عليه السلام على الحق ، وقد تعطف وتلطف لأبيه ما تلوته عليك . وأما أبوه فقابله بالفظاظة وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقل : يا ابني أو يا بنيّ ، وأخره ، وقدم الرغبة اعتناء بعظم أمرها عنده . وراغب خبر ، وأنت مبتدأ ، وعن آلهتي متعلق برغبت محذوفا لا براغب ، لئلا يلزم الفصل بأجنبي بين العامل والمعمول . والأجنبي هو أنت . قاله ابن هشام بمعناه .

والظاهر عندي جواز هذا الفصل ، فيجوز تعليقه براغب . ويجوز كون راغب مبتدأ وأنت فاعل أغنى عن الخبر . وعن متعلق براغب .

واعتُرض : بأن هـــذا الوصف كالفعل والضمير المرتفع بالفعل لا ينفصل بغير موجب .

وأجاب ابن هشام : بأنه لو لم ينفصل لاستتر فيُجهل المعنى ، بخلاف الفعل ؛ فإنه يبرز معه متصلا ، ولأن طلب الوصف لمعموله دون طلب الفعل لمعموله ، فاحتمل معه الفصل وبأن مرفوع الوصف سد مسد واجب الفصل وهو الخبر .

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ) عن سب آلهتنا والرغبة عنها . (لَأَرْجُمَنَّكَ) قال الحسن : بالحجارة .

وعن فرقة : لأقتلنك . والقولان قيل : بمعنى :

وعن ابن عباس : لأضربنك . فلعله أراد الضرب بالحجارة .

وعن الضحاك : لأرجمنك بالقول القبيح . فالمراد الشتم .

والظاهر عندى : أن مراد الحسن الطرد بالحجارة ، ومراد الفرقة إثباته ورجمه حتى يموت كما نفعل نحن بالزانى المحصَن .

وقيل : المعنى لأبعدنك عنى .

(وَاهْجُرْنِي) العطف على محذوف دل عليه الرجم ، أى فاحذرنى واهجرنى أى تباعد عنى قبل أن أقتلك ، أو أن أثقلك بالضرب حتى لا تستطيع النهوض .

وعن ابن عباس : اعتزلنى سالما لا تصيبك منى معرة .

قال الثعالبى : إذا قلنا : المعنى لأقتلنك . فالمراد اهجرنى مع الانتهاء .

(مَلِيًّا) دهراً طويلا من الملاوة بضم الميم وفتحها و كسرها ، وهى الحين .

ومنه : الملوان : الليل والنهار ، أو هجرا مليا ، أى طويلا .

وقيل : اهجرنى مليًّا بالذهاب عنى .

وقيل : اهجرنى سالماً .

ويجوز تقدير القول أى وقال : اهجرنى .

ويجوز العطف على المقول قبله . فافهم .

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ) لا أجازيك ولا أصيبك بمكروه . وذلك أنه لم يؤمر بقتاله ، وفى ذلك توديع ومتاركة ومقابلة السيئة بالحسنة ، وخطابُ حليم لسفيه ، كقوله عز وجل : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » .

« وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » وفيه دليل الهجران والمفارقة .

وقيل : ذلك سلام تحية .

والجمهور الآن على منع ابتدائك الكافر بالسلام .

ويجوز أن يكون تحية كما قال غير الجمهور؛ فإن الدعاء بالسلامة ليس بأشد من الاستغفار الذى وعده ووفى به ، وقصده بالتحية استمالة قلبه .

(سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) سأسأل ربى أن يوفقك للتوبة والإيمان فتنال المغفرة وذلك حين أعياه أمره. وقد وفى بوعده بقوله المذكور فى الشعراء : «واغفر لأبى» وهذا قبل أن يتبين لإبراهيم بالوحى ، أو بالموت على الكفر أنه عدو لله .

وفى الآية دليل على جواز الدعاء بالتوبة ، والهداية للكافر ما لم يمت على الكفر ، أو ينزل فيه النص على أنه شقى . والمشهور المنع

وأما أن يقال : اللهم اغفر ذنوب فلان الكافر فلا يجوز .

قيل : إلا على شريطة التوبة عن الكفر ، وذلك ولاية الشريطة ، وهى وبراءة الشريطة غير جائزتين عندنا ، وهالك من عمل بهما الآن ، وأجازهما بعض أصحابنا المشارقة .

وقد حمل بعضهم الآية على استغفاره لذنوب أبيه مشترطا لتوبته ، كما ترد الأوامر والنواهى على الكفار . والمراد اشتراط الإيمان وكما يؤمر المحدِث بالصلاة ويراد اشتراط الوضوء ويؤمر الفقير بالزكاة ويراد اشتراط النصاب .

وقيل : وعده بالاستغفار ووفى ؛ لأن عقله لم يمنع من ذلك . وهذا إيماء إلى أن الأشياء قبل ورود الشرع فيها على الحل ، إلا ما يكون فعله من مناكر الأخلاق ، وفعله من محاسنها .

ولما ورد الشرع بامتناع الاستغفار للكافر امتنع قال عز وعلا : « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » فلو كان إبراهيم قبل شارطا للإيمان لم يكن مستنكراً ومستثنى عما وجبت فيه الأسوة .

(إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) الهاء متعلقة بما بعدها. والحفى : البار .

وقيل : البليغ فى البر والألطاف .

وعن الكلبي ـ الحفى : الرحيم .

وقيل : اللطيف .

وقيل : ذو المنزلة ، أى هو بى حفى فيجيب دعائى ولا يرده ، وقد عودنى الإجابة .

وفى ذلك شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى .

(وَأَعْتَزِلُكُمْ) من أرض كوثا إلى الشام مهاجراً بدينى .

(وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) أى ما تعبدون من دون الله .

والدعاء : العبادة لأنه منها ومن وسائطها قال ﷺ : الدعاء هو العبادة . ويدل له قوله : « فلما اعتزلهم وما يعبدون » .

ويجوز أن يريد الدعاء الذى فى الشعراء .

(وَأَدْعُوا رَبِّى) أعبده .

(عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا) خائباً ضائع السعى فى العبادة مثلكم فى دعاء آلهتكم .

ومراده عسى أن أسعد وأنجو من العذاب اللازم لكم ، ولكنه عرّض لهم بشقاوتهم بدعاء آلهتكم . وعبّر بعسى تواضعاً وهضما للنفس وتنبيهاً على أن إجابة الدعاء وقبول العبادة والإثابة عليها غير واجبة وأن مِلاك الأمر خاتمته .

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ) ولدين له ، يأنس بهما من وحشة فراق وطنه وقومه ، وشد عضده بهما . أما إسحاق فابنه ، وأما يعقوب فابن ابنه . وإسحاق أصغر من إسماعيل .

روى أن هاجر حملت بإسماعيل فغارت سارة فحملت بإسحاق ، أى مالت للحمل وتسببت فيه فانظره .

(وَكُلًّا) من إسحاق ويعقوب أو منهما ومن إبراهيم .

(جَعَلْنَا نَبِيًّا) تفضلا منا .

(وَوَهَبْنَا لَهُمْ) الثلاثة . وهـذا يقوى أن المراد بالكلمة الثلاثة ؛ لأنه الأنسب ، ولو جاز أن يراد بها إسحاق . وكذا قيل يعقوب وبضمير الجمع الثلاثة أو الاثنان تعبيراً عنهما بضمير الجمع .

(مِنْ رَحْمَتِنَا) النبوة والأموال والأولاد بيسط .

والأولى أن يراد هبة الأموال والأولاد فقط ؛ لتقدم ذكر النبـوة ، إلا إن أريد تجدد ذكرها أنها هبة . فافهم .

وقيل : المراد العلم والمنزلة والشرف فى الدنيـا والنعيم فى الآخرة . والظاهر أن المراد جميع ما ذكر .

(وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) جعلنا لهم فى الناس ذكرا رفيعا صادقا ، يثنون عليهم بخير ويحمدونهم ، وهم أحقاء بذلك ، كما يدل عليـه إضافة اللسان للصدق . ومحامدهم لا تخفى ولا تنقطع ، على تباعد الأعصـار ، وتحول الدول ، وتبدل الملل . وترى كل ملة تنتسب إليهم . وقد أجاب الله دعاءه : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » وأطلق اللسان على الذكر لأنه واسطته .

وروى أن أول ما نزل من أرض الشام بقرية اسمها حران . وتزوج سارة ، وولدت له إسحاق ، وولد من إسحاق يعقوب . وخصهما بالذكر لأنهما شجرتا الأنبياء ، أو لأنه أراد أن يذكر إسماعيل بفضله على الانفراد .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى) تشريفا (إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) موحداً لله ، أخلص عبادته عن الشرك والرياء ، وأخلص نفسه له ، وأسلم وجهه لله . وفتح الكوفيون اللام ، أى أخلصه الله من الدنس واصطفاه .

(وَكَانَ رَسُولًا) إلى الخلق . (نَبِيًّا) قيل : للمعنى : أرسله إليهم فأنبأهم عنه . ولذلك قدم الصفة الخاصة ، وهى الرسالة ، وأخر العامة ؛ فإن الرسول : من أوحى إليه ، وأمر بالتبليغ ولو لم يكن معه كتاب . والنبى : مَن أوحى إليه ولو لم يؤمر .

وقيل : الرسول : الذى معه كتاب من الأنبياء ، وأن النبى من لم يكن معه كتاب كيوشع .

(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ) من جهة جبل بين مصر ومدْين يسمى الطور . وذلك حين أقبل من مدين، ورأى النار (الْأَيْمَنِ) نعت الجانب . ويجوز كونه نعتا للطور . والواضح الأول ، أى ناديناه من جهته اليمنى . وهى أيضا جهة يمنى لموسى . وذلك أنها كانت جهة يمينه إلى الطور ، وإلا فالجبل نفسه لا يمين له ولا يسار .

ويجوز أن يكون الأيمن من اليُمْن وهو البركة ، فلا إشكال فى جواز كونه نعتا للطور ، بل هو أولى فيما قيل .

(وَقَرَّبْنَاهُ) أى شرفناه . فالتقريب تقريب تشريف كمن قرّبه عظيم للمناجاة حيث كلمه بلا واسطة ملك .

قال أبو العالية : قرّبه حتى سمع صرير القلم الذى كتبت به التوراة ، خلق له كلاما فى الهواء أو فى الشجرة أو غيرهما فسمعه .

(نَجِيًّا) مناجيا ، حال من إحدى الهاءين أو مِن نا . وإنما صلح لذلك لأنه مصدر بمعنى اسم فاعل ، فيقدر بمناجيا ، إذا جعل حالا من نا .

وقيل : معناه مرتفعا ، من النجو ، وهو الارتفاع ، فهو وصف لا مصدر ، فيكون حال من إحدى الهاءين لا غير .

روى أنه رفع فوق السموات حتى سمع صرير القلم . ويحتمل أن هذا من آراء أبى العالية .

(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا) من للتعليل أو للتبعيض أو للابتداء . (أَخَاهُ) أى معاضدة أخيه ومؤازرته ، وإلا فهارون أكبر من موسى سنا .

قال ابن عباس : وقعت الهبة على معاضدة هارون له ومؤازرته لكبره . وفى ذلك إجابة لدعائه : « واجعل لى وزيرا من أهلى » وهو مفعول .

وقيل : إن جعلت من للتبعيض فهو بدل منها ومن مجرورها . وقيل منها بناء على أن من التبعيضية اسم مضاف لما بعده (هَارُونَ) بدل أو عطف بيان (نَبِيًّا) حال من الأخ . وعن بعض أنه وهب له مؤازرة هارون ومشاركته فى النبوة .

(وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) وكل الأنبياء كذلك ، لكن إسماعيل أبلغ فى الصدق فيما قيل . والصدق أشهر أوصافه ، لم يَعِدْ شيئا إلا وَفَّى به واحتاط .

وقيل : لقبه بصادق الوعد تشريفا وتكريما . روى أنه وعد صاحبا له فانتظره إلى ثلاثة أيام .

وعن ابن عباس : انتظره فى مكان الوعد سنة حتى جاءه فى المكان .

وقيل : انتظره يوما وليلة فجاء الرجل . وقد انتظر نبينا ﷺ صاحبا له فى الوعد يوما وليلة قبل البعثة .

وروى أنه قال : لو لم تأت لكان حَشْرى من هاهنا .

ومن شدة صدقه فى الوعد أنه وَعد الصبر للذبح فوفّى .

وسُئل الشعبى عن رجل وعد ميعادا إلى أى وقت ينتظر ؟

فقال : إن وعد نهارا فكل النهار ، أو ليلا فكل الليل .

وسُئل بعض فقال : من ذلك الوقت إلى مثله غدا .

قيل : أسوأ الكذب خلف الوعد ، ورمى البرئ .

(وَكَانَ رَسُولًا) إلى جُرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا على هاجَر أم إسماعيل بوادى مكة وهو جرهم بن يعرب بن قحطان بن عامر بن سابح وقحطان أبو قبائل اليمن .

وقيل : لا عربيةَ إلا من إسماعيل . وهو أبو العرب واليمنية والمضرية ترجع إليه . وهو الذبيح فى قول الجمهور الراجح ؛ لقوله : « ومِن وراء إسحاق يعقوب » كيف يؤمن بذبح ولد بُشّر أبوه بأن سيكون منه ولد ولأن أمر الذبح كان بمنى وإسحاق دخل البلد ورجع وإسماعيل نشأ به وكان أبوه إبراهيم يزوره على البراق من الشام ويرجع من يومه ، وهو مركب الأنبياء .

وإسماعيل جد نبينا ﷺ قال : أنا ابن الذبيحين . أجل هما أبواه : عبدالله نذر أبوه : إن رزقه الله عشرة أولاد ذبح لله واحداً فخرجت القرعة على عبد الله والآخر إسماعيل عليه السلام (نَبِيًّا) ولزم من ذلك أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة ؛ فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته .

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ) ثم يأمر غيرهم ليجعل أهله قدوة لمن وراءهم . ومن حق الصالح ألا يألو نصحا للأجانب فضلا عن الأقارب .

ويجب على الإنسان أن يهذب نفسه بالعلم والعمل فأهله فأهل بلده فأقرب البلدان إليه وهكذا . قال سبحانه وتعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » « وأمر أهلك بالصلاة » « قوا أنفسكم وأهليكم نارا » .

وقال الحسن : أهله : قومه ؛ لأن أمم الأنبياء فى عداد أهليهم ويعضده قراءة ابن مسعود : وكان يأمر قومه .

(وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) رضيه واصطفاه للطاعة والنبوة والرسالة . وأصله مرضوى كمضروب ، قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء ، وقلبت الضمة كسرة . والصحيح أن لامه واو بدليل الرضوان فأصله مَرْضُوٌّ بضم الضاد وتشديد الواو ، قلبت ياء وقلبت الضمة كسرة وأما رَضِىَ فأصله رَضِوَ قلبت الواو ياء للكسرة قبلها .

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ) هو خنوخ . وقيل : أخنوخ وهو سبط شيث . وجدّ نوح . قيل : هو إدريس بن فرد . وقيل : ابن نارد بن مهلاييل بن قينان بن نوش بن شيث بن آدم وأمه أشوة قيل : سمى إدريس لكثرة دراسته صحفه الثلاثين . قيل : وصحف آدم . وهو إفعيل من الدرس كذا قيل .

واعترض بأنه لو كان إفعيلا من الدرس ، وأنه سمى لكثرة الدرس لكان عربيا فلا يمنع الصرف لوجود العلمية وحدها . بل هو عجمى ، وبذا منع الصرف . وكذا إبليس عجمى وليس من الإبلاس كما يزعمون ، ولا يعقوب من العقب ، ولا إسرائيل من السرال كما زعم ابن السكيت . ومن لم يحقق ولم يتدرب للصناعة فكثرت منه أمثال هذه الهنات . نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة درسه فحسبه الراوى مشتقا من الدرس .

وكان خياطا . وهو أول من خاط ، وأول من خط بالقلم ـ على قول ، وأول من لبس الثياب ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار ، وأول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول من ألقى السماد والعَذِرة فى الأرض للحرث .

(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) أى فى مكان علّ وهو شرف النبوة والزلفى .

وقال الحسن : الجنة ولا شيء أعلى منها .

ولما أنشد النابغة الجعدى بحضرة رسول الله ﷺ :

بلغنا السماء مجدُنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

قال ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى ؟

قال : إلى الجنة إن شاء الله أو قائل : إن شاء الله هو النبى ﷺ

وقيل : فى السماء السابعة .

وقيل : السادسة .

وقيل : الرابعة : وهى رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه رأى إدريس فى الرابعة ليلة المعراج وهو حى فى أحد تلك المواضع إلى الآن .

قال الثعلبى فى عرائس القرآن : سار يوما فى حاجة فأصابه حر الشمس . فقال : يارب إنى مشيت يوما فتأذيت بها فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى كل يوم ! اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها يعنى المَلَك الموكل بها .

قلت : المشهور أن الملائكة لامشقة عليهم فكأن إدريس لم يطلع على ذلك فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وزوال حرها ما لا يعرفه إلا الله فقال : يارب خلقتنى لحمل الشمس فما الذى قضيت فىّ ؟

قال : أمَا إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك ثقلها وحرها فأجبته ـ إذا قلنا لايشق عليهم شىء فالإجابة جارية على مقتضى فهم إدريس ـ .

فقال : يا رب اجمع بينى وبينه ، واجعل بينى وبينه خُلة فأذن له . وهذا من الملك رحمة لهذا الذى دعا له ولو كان ثقلها وحرها لايضرانه لما له بشفقته عليه . فكان الملك يجالس إدريس .

فقال له إدريس : أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت ، وأمكنهم عنده ، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى فأزدادَ شكرا وعبادة .

فقال الملك : إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها .

قال : قد علمت ذلك ، ولكنه أطيب لنفسى .

قال : نعم أنا مكلمه لك بما كان يستطيع أن يفعلهُ لأحد من بنى آدم فهو فاعله لك ثم حملهُ على جناحه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس ثم أتى ملَكَ الموت فقال : لى إليك حاجة .

قال : أفعلُ كل شىء أستطيعهُ .

فقال : صديق لى من بنى آدم تشفَّع بى إليك لتؤخر أجلهُ .

قال : ليس إلىّ ولكن إن أحببتَ أعلمتهُ أجلَه فيقدم لنفسه .

فقال : نعم .

فنظر فى ديوانه وأخبره باسمه فقال : إنك كلمتنى فى رجل ما أراه يموت أبدا .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس .

قال : إنى أتيت به وتركتُه هناك .

قال : فانطلق فإنه قد مات . والله ما بقى من أجل إدريس شىء .

فرجع الملك فوجده ميتا .

وفى خبر آخر : قال وهب : كان يُرفع لإدريس كلَّ يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل زمانه ، فتعجب منه الملائكة . واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن فى زيارته فأذن له . فأتاه فى صورة بنى آدم . وكان إدريسُ ـ عليه السلام ـ يصوم الدهر فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه ، فأبى أن يأكل . ففعل ذلك ثلاث ليال ، فأنكره إدريس .

وقال إدريس : إنى أريد أن أعلم مَن أنت ؟

قال : أنا ملك الموت ، استأذنت ربى أن أزورك وأصاحبك ، فأذن لى .

فقال إدريس : لى إليك حاجة .

قال : ما هى ؟

قال : اقبض روحى فأوحى إليه الله أن اقبض روحه فقبضها . ثم أحياه الله بعد ساعة . وقال له ملك الموت : ما الفائدة فى سؤالك قبض الروح ؟

قال : لأذوق كرب الموت وغمته . فأكون لهُ أشد استعداداً . ثم قال له : لى إليك حاجة ؟

قال : ما هى ؟

قال : ترفعنى إلى السماء لأنظر إليها وإلى الجنة وإلى النار . فأذن له الله فى ذلك فلما قرب من النار قال : لى إليك حاجة .

قال : ما هى ؟

قال : تسأل مالكا يفتح لى بابها فأرِدها ، ففعل .

فقال : فكما أريتنى النار أرنى الجنة فاستفتح ففُتح له فأدخلهُ الجنة .

فقال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة فبعث الله مالكا حكما بينهما فقال له : اخرج . وقال : لا أخرج لأن الله قال : « كل نفس ذائقة الموت » وقد ذقته . وقال: « وإن منكم إلا واردها » فقد وردتها . وقال تعالى : « وما هم منها بمخرجين » فلست أخرج .

فقال الله لملك الموت : دعه فإنه بإذنى دخل الجنة وبأمرى يخرج منها ! فهو هناك حى تارة يتنعم فى الجنة وتارة يعبد الله فى سماء على ما مر. انتهى كلام الثعلبى فى عرائس القرآن .

وإنما ذكر إدريس تلك الآيات لنزولهن فى صحفه، أو أعلمه الله بأنهن فى القرآن، أو أوحى إليه بمعناهن فعبَّر عنه بذلك، أو نسب إليه ذكرهن مجازا ؛ على أن المراد أنه لا يعترض عليه بدخول الجنة ؛ لأنه قد فعل ما ذكر فيهن وأنت خبير بأنهم اختلفوا فى حياة إدريس .

فقيل : ميّت ، وهو الخبر الأول .

وقيل : حى ، وهو رواية وهب .

ومن أراد رفع شأنه والقبول عند الناس والسلطان فليكتب : « واذكر فى الكتاب إدريس - إلى عليا » فى خرقة حرير أصفر بزعفران محلول بعسل نحل ثم يخرز عليه ويعجن الشمعة بحصى لبان ويبخر الكتاب به ثم يعلقه على نفسه .

(أُولَٰئِكَ) الأنبياء المذكورون فى السورة مبتدأ خبره قوله : (الَّذِينَ) وجملة : إذا تتلى الخ استئناف لبيان خشيتهم من الله سبحانه وتعالى وإخباتهم له ، مع ما لهم من علو الطبقة فى شرف النسب ، وكمال النفس ، والزلفى من الله عز وجل . أو الذين تابع لأولئك وجملة إذا تتلى الخ خبره .

(أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) بأنواع النعم الدينية والدنيوية .

(مِنَ النَّبِيِّينَ) بيان للموصول وقوله : (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) بدل من الجار والمجرور قبله .

ويجوز أن تكون من للتبعيض فى قوله : « من ذرية آدم » لأن الأنبياء بعض الذرية والذى من ذرية آدم عليه السلام : إدريس ونوح أقربهما بعض قرب بالنسبة لغيرهما وإدريس أقرب .

وقيل : المراد إدريس .

(وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) فى السفينة أى ومن ذرية من حملنا معه خصوصا .

والمراد إبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح وهذا العطف وما بعده عطف خاص ؛ فإن الكل من ذرية آدم . وأيضاً الذى هو من ذرية إبراهيم ذرية لنوح والذى من ذرية إسرائيل هو من ذرية إبراهيم . وفعل ذلك لتجدد الفضل، وشرف تلك الأجداد وشهرتهم .

(وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أراد إسماعيل وإسحاق ويعقوب .

(وَإِسْرَائِيلَ) أى ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب، وأراد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ؛ فإن أمه من ذرية إسرائيل .

وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية ، فلو أوصى لذريته دخلت أولاد البنات حيث جازت الوصية ، وكذا الإقرار وغيره .

وللمانع أن يقول : لا دليل هنا لأن هذا من حيث إن عيسى لا أب له ، فيدخل بأمه ، بخلاف من له أب فافهم .

وقيل : المراد أن ذرية إبراهيم وإسرائيل واحدة وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .

(وَمِمَّنْ هَدَيْنَا) إلى الحق عطف على « من النبيين » أو على « من ذرية » والأول أولى .

(وَاجْتَبَيْنَا) اصطفينا للنبوة والكرامة .

(إِذَا تُتْلَى) وقرئ بالتحتية .

(عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ) المنزلة . وقيل : الجنة والنار وغيرهما (خَرُّوا) وقعوا على وجوههم . (سُجَّدًا) جمع ساجد .

(وَبُكِيًّا) جمع باك كشاهد وشهود وقاعد وقعود . أصلهُ بكوى بضم الكاف وإسكان الواو وقلبت ياء وأدغمت فى الياء وقلبت الضمة كسرة .

وقالت فرقة : هو مصدر بمعنى البكاء واختاره الطبرى ومكى ، واستدلا بأن عمر رضى الله عنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال : هـذا السجود فأين البُكِىّ ؟ يعنى البكاء .

قلت : يحتمل أن يعنى : أين الباكون ؟

وعنهُ ﷺ : اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وعن صالح المرى : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ فى المنام فقال لى : يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟

وعن ابن عباس : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبُه .

وعن رسول الله ﷺ : إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا .

ويستحب أن يدعو فى سجـدة التلاوة بما يليق بآيتها . فإن قرأ آية تنزيل السجدة قال : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المتـكبرين عن أمرك .

وإن قرأ سجدة سبحان قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك ، الخاشعين لك .

وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم ، الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك .

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ) بعد النبيين المذكورين جاء خلفهم ، فمن بَعْدِهِم فيه توكيد .

(خَلْفٌ) عقب سوء. وأما خلَف بالفتح فعقب صدق. هذا مشهور كلام العرب.

(أَضَاعُوا الصَّلَاةَ) وقرأ الحسن وابن مسعود والضحاك الصلوات بالجمع.

قال ابن عباس: المراد اليهود، تركوا الصلاة المفروضة.

وقال إبراهيم ومجاهد: أخروها عن وقتها.

قيل: ويؤيد الأول قوله: «إلا من تاب وآمن».

قلت: لا دليل فيه؛ فإن تأخيرها عن وقتها ترك لها يوجب التوبة، وتجديد الإيمان أعنى إصلاحه.

وعن عبادة بن الصامت عنه ﷺ: إذا أحسن الرجل الصلاة قالت: حفظك الله كما حفظتنى، ورفعت بيضاء براقة. وإذا أساءها قالت: ضيعك الله كما ضيعتنى، وتلف كما يلف الثوب الخلَق، فيضرب بها وجهه.

(وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) قال ابن عباس: المراد اليهود، استحلوا إنكاح الأخت من الأب، وشربوا الخمور، وفعلوا ما تشتهيه أنفسهم، وانهمكوا فى المعاصى.

وعن على: اتبعوا الشهوات: من بناء المشيد، وركوب المنظور، ولبس المشهور.

وقيل: المراد اليهود والنصارى. يتناول معنى الآية كل من فَعَل فِعل هؤلاء.

وعن قتادة: الآية فى هذه الأمة.

وقيل: قوم يظهرون فى آخر الزمان يتفاخرون فى الطرق والأسواق والأزقة.

(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) شرا. وكل شر عند العرب غى، وكل خير رشاد قال الشاعر:

فمن يَلْقَ خيرا يحمدِ الناسُ أمره ومن يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغىّ لائما

ويغو من باب علم أو باب ضرب . قال أبو زيد : الغى : الخسران ويكون بمعنى الضلال أى ضلال عن طريق الجنة .

وقال الزجاج : جزاء غى .

وعن ابن مسعود : واد فى جهنم بعيد القعر خبيث المطعم . وكذا قال ابن عمر .

وعن ابن عباس : واد فى جهنم تستعيذ منه جهنم أو أوديتها كل يوم - وقيل - كل وقت سبع مرات .

وقيل : واد فيها ، بعيد القعر ، خبيث الطعم ، يسيل قيحا ودما .

وقيل : هو أبعدها قعرا وأشدها حرا . فيه بئر تسمى البهيم كلما خبت جهنم فتح الله تلك البئر فتستعِرُ بها جهنم . قيل : أعد للزانى ، وشارب الخمر ، وآكل الربا والعاق ، وشاهد الزور .

وقيل : الغى : العذاب . وقرئ يُلقَوْن بالبناء المفعول .

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) والاستثناء متصل . وزعم بعض أنه منقطع . قيل : وآمن يدل على أن الآية فى المشركين . ولا دليل لما مر لجواز كون المراد بالإيمان تقويته وإصلاحه وكون المراد إلا من جمع التوبة والعمل الصالح والإيمان .

(فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) مفعول مطلق أى ظلما أو مفعول له أى لا ينقص شىء من ثوابهم بل يضاعف ثوابهم .

وقيل : المراد لا ظلم فى الجنة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب ببناء يدخلون للمفعول من الإدخال .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) إقامة : نوع من الجنان بدل من الجنة بدل شىء من شىء بناء على أن المراد بالجنة هذه الجنات ولو كان لفظ الجنة حقيقة فى كل الجنات كما

تقول : أكرمت الإنسان: زيدا وعمرا وبكرا، أو بناء على أن الجنة حقيقة الجنة مطلقا وكذا جنات عدن ، فالجنة كلها جنات عدن .

وإن أريد بالجنة الحقيقة مطلقا وبجنات عدن نوع فبدل بعض أى جنات عدن منها .

وعن بعض : أن جنات بدل كل من بعض وليس بشىء .

وإذا قلنا : جنات علَم لإضافته لعدن الذى هو علَم على الإقامة ، أو أرض فى الجنة ، فلا إشكال فى إبدال جنات من الجنة .

وإذا قلنا : إنه نكرة وعدن نكرة بمعنى إقامة فإنما أبدلت النكرة من المعرفة لتخصيصها بالإضافة كما إذا خصصت بالصفة .

وزعم بعض أنها لاتبدل منها إلا إن وصفت . والصواب وصفها وإضافتها ، وحملها ، كل ذلك ونحوه مسوغ لإبدالها ، أو أبدلت من الجنة ؛لأن أل فى الجنة للجنس فكأنه نكرة . وهذا على ما اشتهر.

وإن قلت : ما معنى قول القاضى : وعدن علَم لأنه المضاف إليه فى العلم ؟

قلت : سألنى عنه بعض الطلبة فظهر لى - والله أعلم - أن مراده أن عدْنا علَم لأرض الإقامة ، وهى أرض الجنة وأن عدنا هو المضاف إليه وفى جملة العلَم المركب ، فإن العلَم المركب من المتضايفين هو من حيث التعريف بمجموع الجزءين ولو كان الإعراب على الجزء الأول ، ويخفض الثانى بالإضافة .

وإذا كان عدن هو المضاف إليه فى العلم المركب من المتضايفين فهو علم ؛ لأن العلَم المركب منهما يكون الثانى أبدا علَماً، كعبد الله علماً لرجل ، وزين العابدين .

وإذا قلنا: إنه علَم لأرض الإقامة وهى أرض الجنة أو أرض منها فعلَم شخص.

وإذا قلنا : إنه علَم للإقامة فعلم جنس .

وقال شيخ الإسلام : مراد القاضى بقوله : فى العلَم فى باب العلَم .

وقرئ جنات عدن وجنة عدن برفعهما على الخبرية لمحذوف ؛ أى هى جنات عدن أو جنة عدن أو على الابتدائية وخبره التى .

ويجوز فى قراءة النصب تقدير أعنى أو أمدح . (ٱلَّتِى) نعت لجنات إن قلنا : تعرّف بالإضافة لعدن بناء على أن عدنا علَم .

وإن قلنا : إن عدنا نكرة فجنات نكرة فالتى بدل من جنات لجواز إبدال المعرفة من نكرة مخصوصة ، فلا دليل فى الآية على أن عدنا معرفة ، وأنه لولا تعريفه لما وصفت جنات بالمعرفة .

(وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ) المتقين والرابط محذوف أى وعدها . (بِٱلْغَيْبِ) أى فى الغيوبة حال من التى أو من الرابط ، أى وعدها إياهم ، وهى غائبة عنهم ؛ لأنها فى الحال الآخرة ، أو حال من عباد أى وهم غائبون عنها والباء للسببية متعلقة بوعد ، أى وعدهم لأجل الغيب ، أى لإيمانهم بالغيب .

(إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) اسم مفعول أى يأتيه عباده ويصلونه . أصله مأتوى بوزن مضروب ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت ، وقلبت الضمة كسرة . كذا ظهر لى .

وقيل : هو اسم مفعول بمعنى اسم فاعل أى آتيا . وهو بعيد من جهة الصناعة ، وخلاف الأصل ولو اعتمده الصفاقسى . وقيل : ذلك من باب القلب . والوعد بمعنى الموعود به ، وهو الجنة .

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا) أى فى الجنة (لَغْوًا) أى كذبا ، أو باطلا ، أو

معصية . أقوال ليست فى معنى واحد ، كما قيل ؛ فإن الكذب بعض المعاصى ، والباطل : ما لا نفع فيه معصية أو غير معصية .

وقيل : اللغو : الحلف . كانوا فى الدنيا إذا شربوا الخمر حلفوا .

والصحيح أنه ما لا نفع فيه . وفيه تنبيه ظاهر على وجوب تجنب اللغو واتقائه، حيث نزه الله عنه الدار التى لا تكليف فيها . أعاذنا الله منه ومن الجهل .

(إِلَّا سَلَامًا) استثناء متصل تأكيداً للمدح بما يشبه الذم ؛ أى إن كان السلام من اللغو فلا يسمعون فيها من اللغو سواه كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فُلولٌ مِن قِراع الكتائب

أو المعنى أن السلام فيها لغو ؛ لأنه الدعاء بالسلامة وأهلها سالمون لولا أن فائدته الإكرام . أو الاستثناء منقطع لكن يسمعون قولا يسلمون فيه من العيب والنقيصة ، أو لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، وتسليم بعضهم على بعض .

وقيل : تسليمَ الله عليهم .

(وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) أى على قدر البُكرة والعَشِىّ فى الدنيا ؛ لأنه لا ليل ولا نهار فى الجنة فضلا عن وجود بكرة وعشية ، بل هى أبداً نور وضياء لكن ذلك على قدر التنعم والتوسط بين الزهد والرغبة .

والمتنعم عند العرب : من وجد غداء وعشاء ؛ فإن من الناس من يأكل الوجبة فى الدنيا ، وهى الأكلة فى اليوم ، والأخرى فى الليل .

وقيل : الأكل من ساعة إلى مثلها غداً . ومنهم من يأكل متى وجد ، وهى عادة المنهومين ، ومنهم من يتغدى ويتعشى ، وهى العادة المحمودة المتوسطة .

وقيل : إنهم يعرفون وقت النهار برفع الحجب ، ووقتَ الليل بإرخائها .

ويحتمل أن المراد كثرة الرزق ورفاهته ودوامه كما تقول : أنا عبد فلان صباحاً ومساء ، تريد الدوام على العبودية لاخصوص الوقتين .

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا) من للتبعيض المتقدم بناء على جواز ذلك . ومعنى نورث : نُبْقِي . والوراثة أقوى ما يستعمل فى الملك والاستحقاق ، من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ، ولا تبطل برد ولا إسقاط . ويقدر متعلق له .

(مَنْ كَانَ تَقِيًّا) أى نبقيها لمن كان تقيا من عبادنا من ثمرة تقواه ؛ لأن المتقين يلقون ربهم يوم القيامة ، قد انقضت أعمالهم ، وثمرتها باقية وهى الجنة فهو قد أورثهم الجنة من تقواهم ، كما يورث المال من المتوفى .

وقيل: نورث من كان تقيًّا من عبادنا ما لأهل النار من المساكن فى الجنة .

ويجوز على هذا أن يراد بالعباد أهل النار ، فيتعلق من بنورث ، وتجعل للابتداء . وقرأ يعقوب بفتح الواو وتشديد الراء .

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ) قال ابن عباس وغيره : سبب نزولها أن النبى ﷺ أبطأ عنه الوحى فلما جاء قال : ياجبريل قد اشتقت إليك أملا تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت . فهى حكاية لقول جبريل . فالضمير فى نتنزل لجبريل ونحــوه .

وقال الضحاك ومجاهد : لما سئل ﷺ عن أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيب ورجا أن يوحى إليه ، أو قال : غداً أخبركم ماأبطأ عنه خمسة عشر يوماً . وقيل : أربعين . وقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . ثم نزل بيان ذلك ، ونزل : « ما ودعك ربك وما قلى » وقال له النبى ﷺ : أبطأت حتى ساء ظنى واشتقت إليك .

فقال : إنى كنت أشوق ، ولـكنى عبد مأمور ، إذا بُعثت نزلت ، وإذا حُبست احتبست . ونزلت الآية .

وقال الداودى عن مجاهد : أبطأ جبريل عن رسول الله ﷺ ثم أتى فقال : ماحبَسَك ؟

قال : كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تأخذون من شواربكم ، ولا تستاكون ! « وما نتنزل إلا بأمر ربك » .

وعنه ﷺ : إن العبد إذا تسوّك ثم قام يصلى قام الملك خلفه ، فيسمع لقراءته ويدنو منه حتى يضع فاه إلى فيه ، فما يخرج من فيه شىء من القرآن إلا صار فى جوف الملك . وإن صلاةً على أثر سواك أفضل من سبعين صلاة بغير سواك ، وإن السواك مطهرة للفم ومرضاة للرب .

والتنزل : بمعنى النزول على مهل ، مطاوع نزّل بالتشديد بمعنى التدريج أى إن نزولنا فى بعض الأحايين وقتاً غِبّ وقتٍ ، ليس إلا بأمر الله ، وعلى مايراه صوابا وحكمة . وقد يكون بمعنى مطلق الإنزال ، وليس بممنوع فى الآية ولـكن الأول أنسب .

وقرأ الأعرج يتنزل بالتحتية . والضمير للوحى أو لجبريل . فإذا كان لجبريل فذلك ، وذلك من كلام الله . ويجوز كونه من كلام جبريل ، كما يقول زيد عن نفسه : زيد قائم . وقرأ ابن مسعود إلا بقول ربك .

(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا) من أمر الآخرة . (وَمَا خَلْفَنَا) من أمر الدنيا .

(وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ) ما يكون من هذا الوقت إلى قيام الساعة أو قيل : له ما قدامنا وما خلفنا من الأماكن والأحايين وما نحن فيه ، لا ننتقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان إلا بأمر من له الملك كله أجمع .

وقيل : ماسلف من أمر الدنيا ، وما استقبل من أمر الآخرة وما بين النفختين وهو أربعون سنة ، وهو البرزخ .

وقيل : ما مضى من أعمارنا ، وغبَر منها ، والحال التى نحن فيها .

وقيل : ماقبل وجودنا وما بعد فنائنا وما بينهما .

وقيل : الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض .

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) تاركا لك كما قالوا : ودعه ربه وقلاه . وإنما أخر النزول لحكمة، أو المعنى أنه لا يغفل ولا يذهل ، فكيف نتقلب فى ملكوته إلا إذا رأى ذلك مصلحة وأذن لنا ، وهو الحافظ العليم بكل حركة وسكون .

وقيل : أول الآية قول المؤمنين حين يدخلون الجنة . أى وما نتنزل الجنة إلا بأمر الله سبحانه وتعالى ولطفه ، وهو مالك الأمور السالفة والمرتقبة والحاضرة فما نجده وما وجدنا فهو من لطفه وفضله . وقرن جل وعلا قولهم بقوله : « وما كان ربك نسيا » أى لا ينسى أعمال العاملين وما وعدهم من الثواب كيف يغفل مدبر السموات والأرض ! أو ذلك كله من قولهم . والنسىّ صفة مبالغة بوزن فعيل أو مفعول ، فأصله على هذا نسوى كصبور قلبت الواو ياء والضمة كسرة وأدغمت الياء فى الياء. وقرأ ابن مسعود وما نسيك ربك .

(رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) رب بدل من رب أو خبر لمحذوف أى هو ربى فإن عرفته يا محمد على هذه الصفة (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) فدم على عبادته واكتسب الصبر الشديد عليها ؛ فإنه لا ينسى عبادتك ويثيبك عليها ولا تتشوش بإبطاء الوحى وهزء الكفرة وإلقائهم إليك الأغاليط . وإنما عدى الاصطبار باللام لا بعلى لتضمّنه معنى الثبات وتنزيل العبادة منزلة القِرن المحارب

فى إيراده الشدائد والمشاق كما تقول : اصطبر لِقِرنك أى اثبت . واصطبر افتعل من الصبر والطاء عن تاء .

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) أى مِثلا ونظيرا فى استحقاق العبادة وكونه رب السموات والأرض وغير ذلك من صفات الكمال المتفرد بها حتى يسمى باسمه الذى هو الله . والمشركون ولو سموا أصنامهم إلٰها لكن لم يسموها بالله الذى عوض فيه أل عن الهمزة ، لم يوفقوا للتسمية به .

وقيل : نظير فى العبادة والرزق والخلق والإحياء والإماتة ونحو ذلك .

وفى رواية عن ابن عباس : لا تَسَمَّى أحد الرحمن دونه .

ويحتمل أن المعنى لا مسمًّى باسم إلٰه أو بالرحمٰن ولا باسم الله؛ فإن تسمية غيره بالإلٰه أو بالرحمٰن ولو وجدت لكنها بباطل فهى غير معتد بها لأنه ليس غيره أهلا للعبادة فلا بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها قال الشاعر :

أخْلِقْ بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومُدْمِنِ القرع للأبواب أن يلجا

وقال :

إنى رأيت وفى الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ مَن جَدَّ فى شىء يطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

(وَيَقُولُ الْإِنسَانُ) الجنس لأن القائل منهم كقولك : بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل أحدهم ؛ قال الفرزدق :

فسيفُ بنى عبس وقد ضربوا به نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد

أسند الضرب لبنى عبس مع أن الضرب فعل ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسى كما يدل له قوله نبا بيدى ورقاء، أو بعض الجنس وهو الكفرة قديما وحديثا فإنهم أنكروا البعث .

وقيل : المراد أبىّ بن خلف فإنه أخذ عظاما بالية ففتّها وقال : يزعم محمد أنّا نبعث بعد ما نموت .

وقيل : العاص بن وائل .

وقيل : الوليد بن المغيرة .

وقيل : المراد رجال من قريش : هؤلاء الثلاثة وغيرهم من قريش .

(أَئِذَا) بتسهيل الهمزة الثانية وبتحقيقهما وبإدخال ألف بينهما على الوجهين والأولى للاستفهام .

وقرأ ابن ذكوان فى رواية عنه بهمزة واحدة مكسورة على حذف همزة الاستفهام .

وروى عنه الأخفش أنه يقرأ بهمزتين وجواب إذا مقدر تعلق به أى أخرج وليس جوابها أخرج المذكور لأن اللام مانعة من تقديم معمول ما بعدها كذا قالوا .

والحق أن المانع من كونه جواباً عدم قرنه بالفاء وإلا فالعامل فى إذا على الصحيح ما فى جوابها ولو كان فيه ماله الصدر .

فمن أجاز تجريد الجواب من الفاء أجاز كون لسوف أخرج جوابا واللام لام ابتداء . وقيل : لام جواب قسم مقدر قبل إذا ، والجملة جواب القسم .

ويجوز كون إذا خارجة عن الشرط فيقدر أخرج قبلها وعلى تقدير بعدها فإنما قدم وأولى همزة الإنكار لأن المنكر هو كون ما بعد الموت وقتا للبعث .

(مَا) زائدة للتأكيد قيل : وكذا اللام .

(مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) من الأرض أو من حال الفناء إلى الوجود أو من حال الفناء ، لكن على حد خرج زيد عالما وخرج شجاعا ، إذا كان نادرا

فى ذلك أى أحيا أنى سأخرج حيا ، حين يتمكن منى الموت والهلاك قاله هزواً واستبعاداً .

وقرأ الحسن وأبو حيوة ليس أخرج بفتح الهمزة وضم الراء . وقرأ طلحة ابن مصرف لسأخرج حيا .

وإن قلت : كيف تجعل اللام للابتداء ولام الابتداء للحال ، وهنا قد كانت بعدها سوف ؟

قلت : هى لمجرد التأكيد خارجة عن الحال ، أو هى للحال على معنى قولك : أأعتقد الآن أنى سوف أخرج ، أو أثبت الآن على أنى سوف أخرج ، أو هى لتقريب الاستقبال بالحال .

(أَوَ لَا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ) بفتح الياء وضم الكاف عند نافع وعاصم وابن عامر وبفتح الياء والكاف وتشديدها . أصل هذه يتذكر أبدلت الهاء ذالا وأدغمت فى الذال .

وقرئ يتذكر فى الأصل وهى قراءة أبى وجملة لا يذكر معطوفة على يقول بالواو ووسط همزة الإنكار بين المعطوف عليه والعاطف ، مع أن الأصل من حيث المعنى دخولها على المعطوف عليه وهو يقول ، للدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف ، وهو عدم التذكر والذكر ، وأن المعطوف عليه وهو القول ، إنما نشأ منه . فلذلك دخلت على المعطوف ، لكن قدمت على العاطف . وأل فى الإنسان للعهد الذكرى .

(أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ) من قبل حاله ، وهو حال الهباء الذى هو فيه .

(وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) موجوداً بل شيئاً معدوماً . قاله الفارسى ، وهو معتزلى ، وهو حق :

وقال القوم : الشيء لا يطلق إلا على الموجود ولو تذكر المنكر لبعث النشأة الأولى حيث أخرجه الله من العدم الصرف إلى الوجود لم ينكر البعث الذى ماهو إلا رد الأجزاء كما كانت ؛ فإن من قدر على إيجاد شيء معدوم لا على حدة وعلى غير مثال واقتداء به أقدر على خلقه على مثال سابق .

وهذا مواجهة لجاحد البعث . وإيجاد الله جل وعلا الأشياء كلها بقدرته سواء سهل أهون ما يكون ، ليس شيء منها سهلا وشيء صعبا وكل من النشأة الأولى والثانية سواء عنده وليس فى الثانية مقتديا بالأولى وقائسا عليها .

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) منكرى البعث .

(وَالشَّيَاطِينَ) كل وشيطانه الذى أغواه فى سلسلة . فالواو للمعية ، ويجوز كونها عاطفة . وأضيف الرب للكاف تشريفا لنبينا ﷺ ، والهاء للإنسان على أنه الجنس ، وإما على أنه الفرد . فالهاء له ولأمثاله الذين دل عليهم .

وإذا قلنا : الإنسان مراد به المؤمن والكافر . ومعنى حشره مع الشياطين كمعنى حشره مع الكافرين ؛ فإن الحشر عم الجميع وضمهم ؛ فإنهم مختلطون فى الطريق إلى المحشر وفى المحشر .

(ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ) السعداء والأشقياء . أما السعداء فليشاهدوا الحالة التى نجاهم الله منها فيزدادوا فرحا ويشمتوا بأعدائهم ، وأما الأشقياء فلتزداد مساءتهم وحسرتهم وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم .

(جِثِيًّا) جمع جاث من جثا يجثو . أصله جُثُوًّا كشهود فأدغمت الواو فى الواو وقلبت الواو المشددة ياء أو من جثى يجثى أصله جثوى كشهود قلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء .

وعلى الوجهين قلبت الضمة كسرة .

والمعنى : قاعدين على ركبهم لما يدهمهم من الهول حتى لا يستطيعوا القعود والوقوف ؛ ولأن ذلك من توابع التواقف للحساب قبل التواصل إلى الثواب والعقاب كما يبقى الفارغ من أمر شاق هنيهة على حاله التى هو عليها قبل الفراغ وهى حال مقدّرة ؛ فإن قعودهم جاثين بعد الإحضار لا فى حال الإحضار .

وإن رجعنا الهاء إلى الكفار صح أن يكون المعنى أنهم يساقون من المحشر بعنف وهم على حالهم التى كانوا عليها فى المحشر من قعودهم على ركبهم لا مشاة على الأقدام يَحْبُون حَبْواً إهانة وعجزاً للهول ، فالحال مقارنة .

وقال ابن زيد : الْجِثِيُّ : الجالسون .

وقال ابن عباس : الجماعات .

(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ) العطف على جواب القسم ، ولذا قرن باللام والنون .

(مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ) من كل أمة شاعت أى تابعت غاويا من الغواة كقوله تعالى جل وعلا : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً » .

(أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) جراءة والذين أشد عتيا هم الرؤساء الضالون المضلون ، لتضاعف إجرامهم ، يزيدهم عذابا فوق العذاب ، ويحملون أثقالهم وأثقالا معها ، ويليهم التابعون لهم كل بطبقته .

وقيل : يريد أن يميز طوائفهم أعتى فأعتى ، فيطرحهم فى النار على الترتيب ، بعد ما أحضروا حولها مغلولين . والآية فى المشركين كما رأيت وهم كلهم فى النار . وإن قلنا : فيهم وفى العصاة فلا يخفى أن العصاة أيضاً فيهم عات وأعتى وكل بمقامه .

واختلف الرواة : هل عصاة الأمة ذوو الكبائر من تحت المشركين ، أو من فوقهم فى النار ، بعد الاتفاق على أن من كان نفاقه إسرار شرك وإظهار إسلام من تحتهم ؟

فقيل : مَن فوق .

وقيل : من تحت .

ولو قيل: إن كان نفاقه لم يجاوزه إلى إهانة المسلمين والدلالة عليهم وخيانتهم من جانب المشركين فهو فوقهم وإن جاوز نفاقه إلى ذلك ونحوه من الإفشاء عنهم فهو تحتهم لقلنا : لم يقل شططا .

وأى مفعول ننزع اسم موصول مبنى على الضم لحذف صدو صلته والتقدير : أيهم هو أشد . وعلى الرحمن متعلق بأشد .

وعلى بمعنى عند أو فى ، أى فى دينه ، أو على ظاهرها مجازا فإنه سبحانهُ وتعالى لا يشق عليه شيء ولا حاجة إلى تعليقه بأعتى لأن فيه الحذف وأحد التأويلات المذكورة ولا يتعلق بعتيا لأنه مصدر لا يسبقهُ معموله . وقد يعلق به لأنهُ لاينحل إلى أن والفعل ما دام تمييزا ، وأيضا بتوسع فى الظروف .

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا) بجهنم (صِلِيًّا) الباء متعلقة بأولى أو بصليا ولو كان مصدرا على ماس. والذين صليهم بالنار أولى، أو هُم أولى بالصِّلى هم المنزوعون .

والصلى مصدر أصلهُ صلوى كقعود أبدلت الواو ياء وأدغمت وأبدلت الضمة كسرة ومعناه الدخول والاحتراق والفعل صلى بكسر اللام وصلى بفتحها .

تنبيه : ما تقدم فى إعراب أى هو الصحيح ، وهو مذهب سيبويه قال ابن هشام ـ وخالفه الكوفيون وجماعة من البصريين ـ : لأنهم يرون أن أيا الموصولة معربة دائما ولو أضيفت وحذف صدر صلتها .

قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط إلا فى موضعين هذا أحدهما ، فإنه يسلم أنها تعرب إذا لم تضف فكيف إذا أضيفت .

وروى أن سيبويه أجاب بأنها لما خالفت أخواتها فى جواز حذف صلتها مطلقا غُيرت مؤانسة للتغير . وردّ بإعرابها إذا لم تضف وحذف الصدر .

وعن الجرمى : إنى لم أسمع بين البصرة والكوفة وبين مكة من يقول : لأضرب أيهم قائم ، بالضم . وزعم هؤلاء أن أيا فى الآية استفهامية مبتدأ خبرها أشد ومفعول ننزع محذوف عند الخليل تقديره : لننزعن الذين يقال فيهم : أيهم أشد . حذف الموصول وبعض الصلة .

وقال يونس : مفعوله جملة أيهم أشد علق بالاستفهام .

وقال الكسائى والأخفش : مفعوله كل بناء على جواز زيادة من فى الإثبات .

وردّ بأن التعليق مختص بأفعال القلب وما جرى مجراها . ثم ظهر أنه أجاز التعليق فى غير فعل القلب وما جرا مجراه .

وردّ قول الخليل بأنه لا يجوز لَأضرِبَنّ الفاسقُ بالرفع على أن الأصل الذى يقال فيه : هو الفاسق . وقد يقال : إن الخليل يجيزه إلا إن قام الدليل على الذم .

ويرد تلك الأقوال غير قول سيبويه قوله : فسلم على أيهم أفضل ، فى رواية الضم . فلو قيل : الأصل على الذين يقال فيهم : أيهم هو أفضل ؟ لزم حذف المجرور ودخول الجار على بعض الصلة ، ولا يقال مابعدَ على مستأنفٌ ؛ لأن ما بعد الجار لا يستأنف .

وجوز الزمخشرى وجماعة كون أى موصولة ، وقدروا متعلق النزع : من كل شيعة ، ثم قدر أنه سئل عن هذا البعض . فقيل : هو الذى هو أشد ثم حذف

المبتدآن المكتنفان الموصول وهو بعيد؛ لأن فيه حذف مفعول ننزع فإن « من كل شيعة » ليس مفعوله حقيقة إلا إن أراد أن من للتبعيضية اسم مضاف فهى المفعول ، وأنّ فيه تقدير سؤال وحذف مبتدأين واجب ؛ فإن كلا من ذلك جارٍ على القاعدة ، وقول الخليل أبعد ؛ لأن فيه حذف الموصول وبعض الصلة . ولو قدر فريقا لقال فيه الخ لكان أولى .

وقال أبو الحسن بن الطراوة : إن أيا موصولة مبنية مقطوعة عن الإضافة وصدر صلتها غير محذوف وهو هم المتصل بها .

ورُدّ باتصال الهاء بالياء فى الخط إلا أن يقال : هو من الأشياء الخارجة عن القياس فى خط المصحف لكن الخروج خلاف الأصل ، وبالإجماع إنها معربة إذا لم تضف .

وقرأ طلحة بن مصرف ومعاذ بن مسلم الهراء أستاذ الفراء بنصب أىّ على إعرابها وهى موصولة .

(وَإِنْ) أى ما (مِنْكُمْ) نعت لمحذوف ، أى ما أحد منكم . (إِلّا وَارِدُهَا) أى جهنم . وقدر بعضهم القَسم أى والله إنْ منكم إلا واردها ، والخطاب للإنسان على طريق الالتفات من الغيبة للخطاب ، كما تدل له قراءة ابن عباس وعكرمة وجماعة : وإن منهم . أو يقدر : قل يا محمد . فلا التفات ، أو الخطاب للناس بلا التفات .

وإذا جعلناه للناس جميعاً أو للإنسان المؤمن والكافر ، فمعنى ورود المؤمنين إياها الانتهاء إليها ورؤيتها والعلم بها ، من غير دخول ، كقوله جل وعلا : « ولما ورد ماء مدين » ولم يقل أحد : إنه دخل الماء . وقول زهير :

ولما وردنا الماء زرقا جمامة وضعنا عصا الحاضرِ المتخيَّم

وقول امرئ القيس :

فأوردها ماء قليلا أنيسه يحاذرن عمراً صاحب القترات

وأما ورود الكافر فورود دخول ، كذا قال أصحابنا رحمهم الله . وفيه أن الورود إن كان حقيقة فى وصول الشىء أو رؤيته أو علمه كما هو فى الدخول لزم استعمال الكلمة فى معنيين .

وقد يجاب بجواز استعمالها فيهما كما هو قول وبأن المراد حقيقة الورود بقطع النظر عن كونه وصولا أو دخولا وإن كان مجازاً فى الوصول أو الرؤية أو العلم لزم استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه وهو ممنوع لكن أجازه مجيزون .

وأيضاً يجاب أن ذلك من عموم المجاز واستعمال الورود فى العلم أو الرؤية إذا قلنا : إنه مجاز فعلاقته اللزوم لاستلزام الوصول إلى الشىء أو رأيته العلم به . واستعماله فى الحضور إن قلنا مجاز فعلاقته السببية مع القرب والتجاور ؛ فإن حضور الشىء سبب لدخوله ، أو اللزوم ، فإن حضوره يستلزم دخوله استلزاماً بيانيا .

والصحيح أن الورود حقيقة فى الحضور وفى الدخول أيضاً .

وإن قلت : لو كان الورود ورودَ حضور أو رؤية أو علم لا ورودَ دخولٍ لم يقل : ونذر الظالمين .

قلت : إذا دخل الظالمون جهنم وتركوا فيها ورآها المؤمنون من غير دخول فقد نجى الله المؤمنين وترك الظالمين فيها .

ولك أن تقول : كل من ورود المؤمن والكافر ورود حضور ثم ينجّى الله المؤمنين من دخولها ، ويُدْخِل الكافرين فيها ويتركهم فيها جثيا كما كانوا حولها ، ففى ذلك حذف أى ندخلهم ونذرهم . وما تقدم فى الورود مذهب ابن عباس .

وروى عنه وعن ابن مسعود وخالد بن معدان وابن جريج والحسن وجابر ابن عبد الله وغيرهم أن الورود ورود دخول ونسب للأكثر، يدخلها المؤمن والكافر خامدة، فيعبرها المؤمنون، ثم تحرّ للكافرين.

وقيل: يدخلها المؤمن والكافر، باردة للمؤمن حارة للكافر فى حال واحد.

وسأل جابر رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعض لبعض: أليس وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فقال لهم: قد وردتموها وهى خامدة.

وعن ابن عباس: كأنها إهالة أى رمل.

وعن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود: الدخول لا يبقى بار ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاما كما كانت على إبراهيم عليه السلام حتى إن للنار ضجيجا من بردها. والخمود - بالخاء المعجمة والجمود بالجيم - بمعنى واحد هنا وهما مرويان.

وعنه ﷺ: من له ثلاثة أولاد لم تمسه النار إلا تحلّةَ القسَم: يعنى بتحلة القسَم «وإن منكم إلا واردها». وفيه دليل على تقدير القسم كما مر تقديره أو أراد بالقسم ما أخبر الله به؛ فإن إخباره لتحققه كالإقسام.

وعن المهدوى عن قتادة: يَرِدُ الناسُ جهنم وهى سوداء مظلمة فأما المؤمن فتضىء له حسناته فينجو وأما الكافر فتوبقه سيئاته وتحبسه.

روت حفصة عنه ﷺ: لا يدخل النارَ أحد من أهل بدر والحديبية قالت: فقلت: يا رسول الله وأين قول الله جل ثناؤه: «وإن منكم إلا واردها»؟

فقال ﷺ بانتهارٍ: مَهْ أى كفى. أفلم تسمعيه يقول: «ثم ننجى الذين اتقوا» فهذا منه إشارة إلى دخول الكل وأن المؤمن يخرج منها بلا ضرر.

وقد يقال: إن مراده أن المؤمن لا يدخلها أصلا، وإنه ينجّى من دخولها.

وفي رواية: يقول أهل الجنة: ألم تعدنا يا ربنا أن نَرِد النار؟ فيقال: بلى وقد وردتموها خامدة.

وفي الحديث: تقول النار للمؤمن: جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورُك لهبي.

وعن نافع بن الأزرق أنه قال لابن عباس: ليس الورود الدخول. فقال ابن عباس: بلى. فتلا: « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » أدخلها هؤلاء أم لا؟ والله أنا وأنت ندخلها، وأرجو أن يخرجني منها ولا يخرجك لتكذيبك بالآية. وهذا منه زجر لنافع وإلا فنافع غير مكذب بالآية لكن خالفه في التفسير.

وفي رواية: أما أنا وأنت فسندخلها وانظر هل نخرج منها أم لا؟

وإن قلت: في دخول المؤمنين النار تخويف وزجر فكيف يدخلونها؟

قلت: فإن قال بدخولهم إما أن يقول: يدخلونها وهم لا يشعرون كما هو رواية أو يدخلونها وهم يعلمون ولكن يعلمهم الله أنها لا تضرهم.

وأيضاً تقول النار للمؤمن: جز فقد أطفأ نورك لهبي إذا قارب الدخول وإذا دخلها. كما لا تجد الملائكة ألمها.

وفائدة دخولها زيادة سرورهم إذا علموا الخلاص منها وإذا خلصوا، وزيادة غم أهل النار إذا رأوا خلاصهم، وزيادة التذاذ أهل الجنة بنعيم الجنة إذا شاهدوا بقاء الكفار فيها.

وقد أشفق كثير من العلماء من تحقق الورود مع الجهل بالخروج.

ولما نزلت الآية ذهب ابن رواحة إلى بيته فبكى فجاءت امرأته فبكت وجاء الخادم فبكى وجاء أهل البيت فبكوا. فلما انقطع بكاؤه فقال: يا هؤلاء ما يبكيكم؟

قالوا : لا ندرى لكن رأيناك تبكى .

قال : آية نزلت يُنبىء فيها ربى أنى وارد النار ولم ينبىء أنى خارج .

وفى رواية : ولم ينبىء أنى صادر عنها . فلا دليل فيها على أن الورود الدخول لإمكان إرادته أن يبكى من حضوره حولها أو عدم علمه أنه ينجو أم لا .

واحتج أيضاً الذين فسروا بها الدخول بقوله تعالى : « فأوردهم النار » قال أبو القاسم البرادى : ولا حجة لهم فيه لأنه يلزم أن يكون فرعون هو الذى أدخل قومه النار .

قلت للخصم : إن يَلزم أنه أدخلهم فإنه أضلهم ، فهو سبب فى دخولهم .

واحتجوا أيضا بقوله تعالى: «ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا» .

قال أبو القاسم : وهذا أيضا ساقط ؛ فإن مجرور « فى » يصلح أن يكون ضميرا لعرصة القيامة أى أماكنها . والقنطرة : الجسر .

قلت : وهذا من أبى القاسم فى هذا المقام إثبات للجسر الذى على النار الذى يقول قومنا : إنه أدق من الشعرة وأمضى من السيف ولا ضير فى ذلك ولو ادعى بعض الأصحاب شرك القائل به أو نفاقه وأنه ليس منا ، وفى الشيخ هود مثله كما يأتى - إن شاء الله .

واستدل أبو القاسم على أن الورود غير الدخول بقوله سبحانه وتعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مُبعدون لا يسمعون حسيسها » ، وقوله جل وعلا : « ربنا إنك مَن تُدْخِلِ النار فقد أخزيته » والمؤمن لا يخزى .

قلت : وللخصم أن يقول : المراد مُبعدون عن أن يعذبوا بها لا عن دخولها ، كما أحضروا حولها ولم يبعدوا عن الحضور ، فليسوا يدخلونها ويعذبون بها ويسمعون حسيسها وهم فى العذاب .

وأما دخول النار بلا عذاب فليس بخزى ، ولا يحكم على مَن قال بأن الورود هو الدخول بالكفر ، ولا بالمعصية . بل روى الربيع عن أبى عبيدة عن جابر عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : لا يموت لأحد ثلاثةٌ من البنين فتمسَّه النار إلا تَحِلَّةَ القَسم . فهذا نص فى أن الورود دخول .

وفى تفسير الشيخ هود رحمه الله : إذا كان يوم القيامة قال الجبار : « لمن المُلْكُ اليومَ » فلا مُجيب فيقول : « لله الواحد القهار . اليومَ تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » ثم يأتى عنق من النار يسمع وينظر ويتكلم ، فيشرف عليهم فيقول : وُكِّلتُ بثلاثة : من ادعى مع الله إلٰهاً آخر ، ومن ادعى أن الله والد ، ومن ادعى لنفسه الربوبية ، فتلتقطهم التقاط الحمام للسمسم ثم تغوص بهم فتعود وتقول : إنى وُكِّلت بثلاثة : بمن سبَّ الله ، وبمن كذب على الله ، وبمن آذى الله . فمن سبه فهو الذى قال : إن الله اتخذ صاحبة والكاذب : منكر البعث « وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » والذين آذوا : هم المصورون فتلتقطهم كذلك .

وذكروا عن ابن مسعود أن الصراط على جسر جهنم مثل حد السيف ، والملائكة معهم كلاليب من حديد ، كلما وقع رجل منهم اختطفته النار فيمر الصف الأول كالبرق والثانى كالريح والثالث كأجود الخيل والرابع كأجود البهائم والملائكة يقولون : اللهم سلِّم سلِّم . ويمر الرجل ماشيا حافيا ، ورجل على بطنه فيقول : يارب لِمَ أبطأتَ بى ؟ فيقول : أبطأ بك عملك . انتهى كلام الشيخ هود .

وقيل : الضمير فى واردها لعرصة القيامة . وقيل : للقنطرة التى على النار وهى رواية عن الحسن وابن مسعود وقتادة .

وقيل : المراد بالخطاب الكفار . والورود : الدخول .

وعن مجاهد : ورود المؤمن النار : هو مس الحمّى جسده فى الدنيا ؛ لقوله ﷺ : الحمّى من فيح جهنم وإن الحمى حظ كل مؤمن من النار فأبرِدوها بالماء . والفيحُ : الحر .

(كَانَ) ورودها . (عَلَى رَبِّكَ حَتْماً) فرضا (مَقْضِيًّا) قضى به اسم مفعول ، أصله مقضوى كمضروب ، قلبت الواو ياء والضمة كسرة وكان الإدغام . والحتم مصدر يسمى به الواجب ، أو بمعنى اسم مفعول أى محتوم .

ومعنى كونه عليه حتما مقضيا أنه وعد به وعزم فلا يكون غيره .

وقيل : معناه أنه أقسم عليه .

(ثُمَّ نُنَجِّى) وقرأ الكسائى بالتخفيف وإسكان النون

وقيل : هذه أيضا قراءة يعقوب . قيل : وقرئ ننجى بالبناء للمفعول ولا وجه المفعول لعله بنون واحدة فيكون ماضيا مكسور الجيم مفتوح الياء للاستقبال . وقرأ ابن مسعود وابن عباس والجحدرى وابن أبى ليلى بفتح الثاء على الظرفية .

(الَّذِينَ اتَّقَوْا) الشرك والكفر منها (وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا) فى النار أو حولها . (جِثِيًّا) فيمضى المسلمون منها أو من حولها ويبقى الكافرون فيها أو يبقون حولها ثم يطرحون فيها .

قال ابن عبد البر ـ من علماء الأندلس وزهادها فى التمهيد ـ بعد أن ذكر رواية الورود بمعنى الدخول : وعن كعب الأحبار أنه تلا : « وإن منكم إلا واردها » فقال : أتدرون ما ورودها ؟ إنه يجاء بجهنم فتمسك للناس كأنها متن إهالة يعنى الوَدَكَ الذى يجمع على القِدر من المرقة ، حتى إذا استقرت عليها أقدام الخلائق بَرِّهم وفاجرهم نادى مناد : أن خذى أصحابك وذرى أصحابى ، فتنخسف

بكل ولي لها ، فهي أعلم بهم من الوالدة بولدها ، وينجو المؤمنون ، نَدِيَّةً ثيابهم . انتهى .

والمراد بالظالمين ظالمو أنفسهم بالشرك، أو بالكبيرة غير الشرك. فأصحاب الكبائر ممن يخلد فيها . وقومنا يقولون : إن الظالمين المشركون ، أو هم وأصحاب الكبائر. فتركهم فيها إدخالهم وتعذيبهم ، ثم يخرج أصحاب الكبائر بعد .

واحتج بعض القوم على أن الظالمين المشركون ، وأن الذين اتقوا من اتقى الشرك ولو مات على الكبيرة : بأن من آمن بالله ورسوله صح أن يقال : إنه متق عن الشرك . ومن صدق عليه المركّب صدق عليه المفرد ، ومن صدق عليه أنه متق عن الشرك صح أنه متق . ومن صدق عليه ذلك وجب أن يخرج من النار لعموم : « ثم ننجي الذين اتقوا » .

قلت : هذا بمعزل عن التحقيق ؛ فإنه ليس من صدق عليه المركب صدق عليه المفرد . ألا ترى أن المداد مركب من زاج وعفص وعلك ولا يقال : إن المداد زاج وحده ، أو عفص ، أو علك ، وزيد قائم يصدق عليه أنه كلام ولا يصدق عليه أنه كلمة إلا مجازا ، على ما فيه من البحث في محله .

ويلزم على قول ذلك القائل أن من صلى صدق عليه أنه صلى الصلوات كلها ولو كان صلى بعضا فقط لعموم صلى .

وروو عن أبي هريرة أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال : هل تُمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟

قالوا : لا .

قال : هل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟

قالوا : لا .

قال : فإنكم ترونه . يحشر الناس يوم القيامة فيقال : من كان يعبد شيئا فليتبع . فتابع الشمس ، وتابع القمر ، وتابع طاغوت . وتبقى هـذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا . فإذا أتانا عرفناه .

فيأتيهم الله فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا . فيـدعوهم ، ويضرب الصراط على جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته . ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل . وكلامهم يومئذ : اللهم سلم سلم .

قلت : هذا حديث افتروه على رسول الله ﷺ وتبوأوا به منازل فى النار كيف يرى ؟ وفى الرؤية تجسيم ولون وجهات وخلو الأماكن عنه والحلول ، والله لا يوصف بذلك ولا بعَرَض ؟ وكيف يخرج منها من دخلها مع أن من عصى الله ومات عاصيا نص الله عليه بخلوده والعصيان يعم كل كبيرة .

ولو صح حديث فى ذلك غير ما افتروه لخصصنا به العموم ، ولو جاز أن يدخل النار من يخرج منها لجاز أن يدخل الجنة من يخرج منها فيدخلها مشرك يتنعم بقدر ما عمل ومنافق كذلك ثم يخرجا .

وقد يقول الخصم : إن المشرك والمنافق أذهبا طيباتهما فى الدنيا فلا يدخلان الجنة ويخرجان ، بل المشرك لا يدخلها أصلا . والمنافق يدخلها بعد الخروج من النار ، ولا يخرج منها لسبق الرحمة الغضبَ .

والجواب والرد فى محلهما .

وقالوا : يخرج منها كل من فى قلبه حبة إيمان ، ويبقى رجل من بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة فيقول : يا رب اصرف وجهى عن النار قد أحرقنى حرها .

فيقول : هل عسيت إن فعلتُ ذلك بك أن تسأل غيره ؟

فيقول : لا وعزتك . فيعطى الله ماشاء من عهد وميثاق فيصرف وجهه عنها إلى الجنة ، فيراها فيسكت ماشاء الله .

فيقول : يارب قدمنى إلى باب الجنة .

فيقول الله : أليس قد أعطيت العهود والميثاق لا تسأل غير الذى سألت ؟

فيقول : يا رب لا أكون أشقى الناس .

فيقول : فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره ؟

فيقول : وعزتك لا أسألك غير ذلك .

فيعطيه مايشاء من عهد وميثاق ، فيقدمه إلى بابها . فإذا رأى زهرتها سكت ماشاء الله جل وعلا .

فيقول : يا رب أدخلنى الجنة .

فيقول : ويحك يا ابن آدم ما أغدرك ! ألم تُعْطِ العهد والميثاق : ألاّ تسأل غير الذى سألت ؟

فيقول : يا رب لا أكون أشقى خلقِك .

فيأذن له فى دخول الجنة . فيقول له : تمنّ فيتمنى حتى تنقطع أمنيته .

فيقول : لك ذلك ومثله معه . رواه أبو هريرة .

وقال أبو سعيد : إنه يقول : لك ذلك وعشرة أمثاله روى ذلك كله الخالفون .

ورووا أيضا عن ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها آخر أهل الجنة دخولا الجنة : رجل يخرج من النار حَبْوًا .

فيقول له الله : اذهب فادخل الجنة .

فيأتيها فتخيل إليه أنها ملئت ، فيرجع فيقول : يارب قد وجدتها قد ملئت .

فيقول له : اذهب فادخل الجنة فإن لك عشرة أمثال الدنيا .

فيقول : تسخر بى وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه .

وزعموا أن النار لا تأكل لحوم أهل التوحيد ، وأنهم يخرجون كالفحم فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كالحبة .

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ) حال من الآيات أى واضحات الإعجاز أو ظاهرات الألفاظ والمعانى بنفسها وبتوضيح رسول الله ﷺ . والحال مؤكدة فإن آيات الله لا تكون إلا واضحة ومعجزة .

والضمير المجرور بعلى عائد على المؤمنين والكافرين فقط . وعليه فقد أقيم الظاهر مقام المضمر فى قوله : (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا) قيل : اللام للتبليغ أو للتعليل أو للمعية .

(أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ) المؤمنين والكافرين . (خَيْرٌ مَقَامًا) مكان القيام . وقرأ ابن كثير بضم الميم أى موضع إقامة ونزول . وكذا المراد فى قراءة الفتح .

(وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) بمعنى النادى ، وهو مجتمع القوم للتحدث . وذلك منهم افتخار بأن مقامنا وندينا أحسن ، إذا سمعوا الآيات وعجزوا عن معارضتها وهم : النضر بن الحارث وكفار قريش . وكانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ، ويلبسون

أفخر ثيابهم ، والمسلمون فى خشونة عيش وملبس ، وفى شعث . أخذوا يفتخرون بذلك ، لقصور نظرهم ، وعدم علمهم إلا بظاهر من الحياة الدنيا .

وردّ عليهم بقوله : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) كم مفعول لأهلكنا، وهى للتكثير ولا شك أن « مِن قَرْن » بيان لِكم فهو نعت لها مع قولهم : إن كم الخبرية والاستفهامية لاتصفان ولا توصفان .

ومع ردهما على من قال : جملة « هم أحسن » نعت كم بأن كم لا توصف .

ولعل المراد أنها لا توصف بغير مِن البيانية ومجرورها .

والظاهر منع الحالية ، حيث منعت الوصفية ؛ وإن الغالب أن حكمهما واحد ويضعف كون « مِن قَرن » بيان لضمير مقدر بعد أهلكنا أى أهلكناهم ، والجملة خبر كم ، وكم مبتدأ . « ومن قرن » حال من الضمير .

وأما « هم أحسن » فالواضح أنه نعت قرن ، باعتبار معناه ، باشتماله على أفراد . وكل أهل عصر قرن لمن بعده ؛ لأنهم يتقدمونهم . وأثاثا تمييز نسبة ، بمعنى متاع البيت .

وقيل : المال : العين والعروض والحيوان .

وقيل : اللباس . والرئى ـ بكسر الراء وإسكان الهمزة بعدها ياء ـ هو من الرؤية، وهو ما يُرى ، كالطِّحن ـ بكسر فإسكان ـ لما يُطحن . والمراد : ماينظر إليه لحسنه .

وقيل : الأثاث : ماهو جديد من متاع البيت . والخُرْثى ـ بضم فإسكان ـ : ما بلى منه .

وقيل : الأثاث : ماهو جديد من الفرش . والخرثى : ما بلى منه . وذلك قراءة نافع .

وقرأه ابن عامر ريا بكسر الراء وقلب الهمزة ياء وإدغامها . وقيل : هذه

قراءة نافع وأهل المدينة أيضا . ومعناها كمعنى القراءة الأولى . وقيل : معناها : كثرة النعم لكثرة الماء .

وقرأ أبو بكر رِيئًا بكسر الراء بعدها ياء ساكنة وبعد الياء همزة ، على القلب ، كقولهم فى رأى : راء .

وقرئ رِيًا بكسر الراء بعدها ياء خفيفة ، أصلهُ رِئْ براء مكسورة فياء ساكنة فهمزة ، فنقلت حركة الهمزة للياء فحذفت الهمزة .

وقرأ ابن جبير وابن عباس ويزيد البربرى زِيًا بزاى معجمة وياء مشددة من الزى وهو الجمع ؛ لأن الزى محاسن مجموعة .

وقيل : بمعنى الملبس .

(قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ) وقوله : (فَلْيَمْدُدْ) لفظه أمر ومعناه إخبار ولكن عبر بلفظ الأمر إيذانا بوقوع المد لا محالة ، كالشىء المأمور به الذى يجب امتثاله ، أو جاء على طريق الدعاء ، كقولك: مَدَّ له الرحمن ، أى امدد له يارحمٰن أو أمرٌ تنبيه بالدعاء .

(لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا) يمهله بطول العمر والتمتع ، ليزداد إثما ويقطع عذره ، ويقول لهم : « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » فليس المد بما ذكر إكراما .

(حَتَّىٰ) غاية للمد أو غاية لقولهم : « أى الفريقين خير » أى يبرحون مفتخرين بذلك حتى الخ . ومن أجاز إخراج إذا عن الظرفية أجاز كون حتى جارة .

(إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ) فى الدنيا كالقتل والأسر على أيدى المؤمنين . العذاب بدل كل باعتبار ما عطف عليه .

(وَإِمَّا السَّاعَةَ) فيقالهم خزى وعذاب فى الحشر والمحشر والنار .

(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا) من الفريقين بأن عاينوا الأمر بعكس ما قدّروا ، وأنّ ما متعوا به استدراج لهم . والجملة جواب إذا ، إذا جُعلت حتى ابتدائية وهو الصحيح .

وقوله : « من هو شر مكانا » قابل به قولهم : نحن خير مقاما . وقابل قولهم : « وأحسن نديا » بقوله : (وَأَضْعَفُ جُنْدًا) من حيث إن حسن النَّدِيّ إنما هو باجتماع وجوه القوم وأعيانهم ، وظهور قوتهم . والجند : الأنصار والأعوان جندهم الشياطين الجنية والإنسية . وجند المؤمنين : الملائكة .

(وَيَزِيدُ اللهُ) بنزول الآيات .

(الَّذِينَ اهْتَدَوْا) آمنوا وأيقنوا .

(هُدًى) إيمانا ويقينا وهو مفعول ثان ليزيد . والحق أن العطف على قوله : « من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا » كأنه قال : إنما يمد الكافر استدراجا لعذابه ، ويقصر حظ المؤمن ويزيده إيمانا ، ليعوض له الخير العظيم .

وقال الزمخشرى : العطف على ليمدد له الرحمن ؛ لأنه فى معنى إسقاط اللام . ورفع الفعل لأن الشرط ماض .

والعطف بالرفع دليل أن الجواب فى نية الرفع كذا يزيد . ويرتبط الكلام بتقدير ضمير ، كأنه قيل : ويزيد الذين اهتدوا المقابلين لهم ، أعنى الممدود لهم هدى .

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) الطاعات كلها قولا وفعلا واعتقادا ، سميت لأن فائدتها تبقى أبدا .

وقيل : المراد خصوص الصلوات الخمس .

وقيل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . قال ﷺ لأبى الدرداء : خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ، فهن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة :

وقال ﷺ : خذوا جُنّتكم .

قالوا : يا رسول الله أمِن عدوٍّ حضر ؟

قال : من النار .

قالوا : ما هى يا رسول الله ؟

قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . وإذا ذكر أبو الدرداء هذا الحديث قال : لأهللن ، ولأكبرن الله ، ولأسبحنه حتى إذا رآنى الجاهل ظننى مجنونا .

(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) مما متع به الكفرة لفنائه ، وتعقب الحسرة له ، وما عند ربك باق .

(وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مرجعا وعاقبة ، أو منفعة ، كقولك : ليس لهذا الأمر مَرَدّ تعنى منفعة . وهل يرد بكائى زيدا ، يعنى هل ينفعه . وهاتان الخيريتان فى مقابلة قولهم : « أى الفريقين خير » أيضا .

وإن قلت : كيف قال : « من هو شر مكانا وأضعف جندا » كأن المؤمنين أيضا نصيبا من الشر والضعف ؟

قلت : هما اسما تفضيل خارجان عن التفضيل ، أو باقيان عليه ، لكن على أن المقابل ليس المؤمنين كأنه قال : سيعلمون مَن هو غاية فى الشر والضعف ، حتى فاق فيهما غيره على الإطلاق ، أو على المجاراة لقولهم ؛ فإنهم يقولون : إن المؤمن فى ضعف وشر . فقال الله : إنهم على ما هم من الشر والضعف الدنيويين أنتم شر وأضعف منهم ، باعتبار ما لكم فى الآخرة .

وإن قلت : فكيف قال : « خير عندك ربك ثوابا » كأن للكافرين ثوابا فتفضل عليه ثواب المؤمن ؟

المعنى : إن ثواب المؤمن خير مما متع به الكافر ، أو أراد أن النار ثواب الكافر كما يقول : « فبشرهم بعذاب » ولكن هذا نوع من التهكم ، وهو أغيظ للمهدد . وليس المعنى أن المؤمن أبلغ في ثوابه من الكافر في عقابه كما آل إليه كلام القاضي تبعا للزمخشري . ولو صح هذا المعنى في قولك : العسل أحلى من الخل والصيف أحر من الشتاء ، أي العسل أبلغ في حلاوته من الخل في حموضته ، والصيف في حره أبلغ من الشتاء في برده ، إلا أن بينا هذا المعنى على معنى التهكم المذكور .

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا) أخبرني عن قصته والمراد التعجيب . استعمل الرؤية بمعنى الإخبار ، لأن مشاهدة الأشياء ورؤيتها طريق إلى الإحاطة بها علما وصحة الإخبار عنها ، ولأن رؤيتك الشيء أقوى من أن يخبرك به غيرك . والفاء للترتيب ، أي اذكر قصة هذا عقب قصة أولئك .

والمشهور أن الآية في العاص بن وائل . قال خباب بن الأرت : كان لي عليه دين فاقتضيته . فقال : لا والله حتى تكفر بمحمد .

قلت : لا والله لا أكفر بمحمد حيا ولا ميتا ، ولا حين تُبعث .

قال : فإني إذا مت أبعث ؟

قلت : نعم .

قال : إذا بعثت جئتني وسيكون لي ثم مال وولد فأعطيك .

وقيل: صاغ له خباب حُليًّا فاقتضاه الأجر فقال: إنكم تزعمون أنكم تبعثون، وأن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا فأنا أقضيك ثَمَّ؛ فإنى أوتى مالا وولدا حينئذ.

وعن بعض أن خبابا كان فى الجاهلية حدادا فعمل له سيفا فجاء يتقاضاه فى أجرة العمل فكان ما ذكر.

وقيل: كان جماز بن الأزد حدادا فى الجاهلية وعمل سيفا للعاصى وكان ما ذكر.

والجمهور على أن ذلك فى العاص مع خباب وهو مذهبُ مسروق.

وقال الحسن: فى الوليد بن المغيرة مع خبّاب.

(وَقَالَ) : والله (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) إن بُعثت.

وقرأ الكسائى بإسكان اللام وضم الواو جمع ولد كأسد وأُسد، أو لغة فى الولد المفرد، كقولهم فى العَرَب بفتحتين: العُرْب بضم فإسكان.

وقرأ يحيى بن معمر بكسر الواو.

(أَطَّلَعَ) بقطع الهمزة همزة استفهام إنكارى وتوبيخى وحذف همزة الوصل. (الْغَيْبَ) أى أعَلِم الغيبَ الذى توحَّدَ به الله لعظمة شأنه، حتى ادعى أنه يؤتى مالا وولدا.

(أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) أن يؤتى ما ذكر. لم يطلع الغيب، ولم يتخذ العهد، فلا يتوصل إلى علم ذلك وليس له ما ادعاه، وإنما يعلم ذلك بالاطلاع وبالاتخاذ.

وقيل: العهد: كلمة الشهادة، والعمل الصالح وهو قول قتادة والكلبى.

(كَلَّا) لا يؤتى ذلك فليرتدع عن غيه.

(سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ) أى سنظهر له أنا كتبنا مايقول ، كقوله : « إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة » أى أظهر أنى لم تلدنى لئيمة ، أو سننتقم منه انتقام من كانت جريمة العدو مكتوبة عنده محفوظة لينتقم منه يوماً ما .

وقيل : السين هنا لمجرد الوعيد ، كما تقول للجانى : سوف أنتقم منك ، ولست تعنى أن زمان الانتقام بعيد ، ولكن أردت أنه لا يفوتك الانتقام منه ولو طال الزمان .

قال ابن هشام : وزعم الزمخشرى أنها ـ يعنى السين ـ إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة . ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل ودخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده . انتهى .

وأجاز بعض كون السين للاستمرار ، ويرده أن الاستمرار يفيده المضارع . قاله ابن هشام .

وإنما احتجنا لتلك التأويلات ؛ لأن الكافر لا تتأخر كتابة ما فعل أو قال ولو لحظة ، والموحد لو تأخرت كتابة ما فعل من شر لكن سبع ساعات . وقيل : أقل .

(وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) أى نزيده منه لزيادة كفره وانتزائه واستهزائه والتأكيد بالمصدر للدلالة على فرط غضبه عليه ـ نعوذ بالله منه ـ ومن المد ـ بمعنى المضاعفة .

ويقال أيضاً : أمد إمدادا كما قرأ على بضم النون وكسر الميم ، أو المعنى : نطول له فى العذاب ، ونعذبه بما يعذب به الكفار المستهزئون . والتطويل كناية عن الدوام والإعظام .

(وَنَرِثُهُ) بإهلا كنا إياه (مَا يَقُولُ) ما يذكر من مال وولد ، وما بدل اشتمال من الهاء ، أى هذه الأشياء التى ادعى أنه يؤتاها فى الآخرة يرث الله ماله منها فى الدنيا بإهلاكه وتركه لها كذا ظهر لى . والحمد لله . ثم رأيته للثعالبى فهو شبيه بالاستخدام ؛ فإن المال والولد فى قوله : « لأوتين مالا وولدا » المال والولد فى الآخرة .

والمراد بما يقول : الولد والمال فى الدنيا . وهذا كما يقول الرجل : لى ألف دينار وألف فضة وألف جمل فتقول له : لى ما تقول أو أكثر .

وقال النحاس : نرثه ما يقول : نحفظه لنعاقبه ، كقوله ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء .

ويحتمل أن الكافر تمنى وطمع أن يؤتيه الله مالا فى الدنيا وولدا وحلف على ما تمناه بقوله : لأوتين الخ فقال الله جل وعلا على تقدير أنه آتاه : « ونرثه ما يقول » أى نزع عنه ما أوتى .

ويحتمل أن المعنى أنه يقول ذلك ويتمناه . فإذا بلغ أجله لم ينله ولم يتمنه فإرث إزاحة ذلك القول بهلاكه .

(وَيَأْتِينَا) يوم القيامة (فَرْدًا) عن المال والولد إن كانا له فى الدنيا ، فكيف يؤتى فى الآخرة مالا وولدا ؟ أو عن قوله : « لأوتين مالا وولدا » فى الآخرة ، تلزمه عقوبة قوله وفقد ما طمع فيه .

والمعنى أنه يأتينا معتقدا الانفراد عن أن يكون له مال وولد فى الآخرة ، ففردا حالا مقدرة على هذا .

وأما إن قلنا : المعنى منفرداً عما له من مال وولد فى الدنيا ، أو عن تمنيهما فى الدنيا فغير مقدرة .

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) شرفا حيث يشفعون لهم .

(كَلَّا) ردع لهم عن التعزز بالأوثان .

وقرأ ابن نهيك كلا بضم الكاف فهو منصوب على الاشتغال والفعل الناصبه سيكفرون أى سيجحدون كل إله غير الله، ومثله زيدا مررت به . ويجوز تقدير سيكفرون فإنه قد يتعدى بنفسه .

وقال ابن جنى : كلا بفتح الكاف والتنوين وقال : إنه مصدر لمحذوف أى كَلّ هذا الرأى كَلًّا بفتح الكاف أى ضعف . انتهى .

ويصح أن يكون هذا المفتوح المنون هو كلا الردعية نونت وقفا ، أى قلبت ألفه نونا كما أبدل ألف الإطلاق نونا فى قول الشاعر :

أقلى اللومَ عاذلَ والعتابن وقولى إن أصبتُ لقد أصابن

فقيل العتابن وأصابن كما قال الزمخشرى ، ومثّل له بسلاسلا . ورده أبو حيان بأن ذلك صح فى سلاسلا لأنه اسم أصله التنوين فرجع به إلى أصله للتناسب على لغة من يصرف ما لا ينصرف مطلقا أو شرط كونه مفاعل أو مفاعيل .

وأجاب ابن هشام بأن نون الإطلاق لا تختص بالاسم . وقد صرح الزمخشرى بأن النون للفاصلة فى قراءة بعض والليل إذا يسر بتنوين يسر ولم يحصر الزمخشرى الحكم فى سلاسلا ولكن مثل به تمثيلا فقط .

واختار ابن هشام أن كَلا مفعول مطلق أو مفعول به . قال : قرئ بالتنوين إما على مصدر كَلّ إذا أعيا ، أى كَلُّوا فى دعواهم وانقطعوا ، أو من الكَلّ وهو الثقل ، أى حملوا كَلًّا .

(سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ) لسوء العاقبة كما قالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » فالكل فى قراءة ضم الكاف : الآلهة والواو للكفرة والهاء للآلهة أيضا فالإضافة إضافة مصدر لمفعوله وكذا الكلام فى الواو والهاء فى قراءة فتح الكاف .

ويجوز رجوع الواو للآلهة والهاء للكفرة ، والإضافة إضافة مصدر لمفعوم أى ستجحد الآلهة عبادتهم . وجاز كون كلا بضم الكاف مراد به للكفرة والهاء للآلهة فلا اشتغال بل مفعول لمحذوف أو مفعول مقدم . وكذا إذا قيل : كلا للآلهة والهاء للكفرة وجحود الآلهة لعبادة الكفرة مذكور فى غير هذا الموضع أيضا كقوله : « وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم » .

(وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) ضد العزة وهو الذل . وهذا يؤيد كون واو يكفرون للآلهة ولا يوجهه .

وقيل : الضد : العون . يقال : هو من أضداده أى أعوانه ولكن المعنى أنهم يكونون فى عذابهم معونة، ضددت عليه أعنت عدوه عليه . وذلك أن الأصنام توقد نيرانا على عابديها .

ويجوز كون هذه الواو للكفرة وهذه الهاء للآلهة أى تكون الكفرة أعداء للآلهة ، وإنما وجد ضد الوحدة المعنى الذى به مضادتهم ، وأنهم بذلك كالشىء الواحد .

وفى الحديث : المسلمون يد على من سواهم لفرط اتفاقهم ولم يقل أبدا .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) بأن سلطناهم عليهم ، وقيضناهم قرناء (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) تزعجهم إزعاجا عن الطاعة إلى المعصية ، وتحثهم بالتزيين .

ومعنى إرسال الشياطين : التخلية بينهم وبين الكفرة ، وعدم توفيق الكفرة لا الجبر وحب الكفر ولو شاء لمنعهم قهراً .

والمراد : تعجيب رسول الله ﷺ من قول الكفرة ، وإصرارهم فى الغى بعد وضوح الحق بالآيات . والأز : التحريك بالشدة .

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ) بطلب العذاب لتستريح أنت والمؤمنون وتطهر الأرض منهم ؛ فإنه لم يبق لهلاك إلا أيام محدودة ، وأنفاس معدودة كما قال :

(إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ) الأنفاس والأيام (عَدًّا) ذكروا أن أجل العبد مكتوب فى أول صحيفته ثم يكتب بعد ذلك : مضى يوم كذا حتى يأتى على أجله .

وكان ابن عباس إذا قرأها بكى وقال : آخر العدد خروج نفسك . آخر العدد فراق أهلك . آخر العدد دخول قبرك .

وقرأها ابن السماك عند المأمون فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ولم يكن مدد فما أسرع ما تنفد .

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ) متعلق بمحذوف ، أى نفعل بالمجرمين والمؤمنين ، أو نفعل يوم نجمع المتقين ، أو متعلق بيملكون ، على أنه لا صدر للا النافية ؛ أو مفعول باذكر .

(إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا) جمع وافد بمعنى راكب . ذكر المتقين بلفظ التبجيل وهو أنهم يجمعون إلى ربهم الذى غمرهم برحمته كما يفد الوفود إلى الملوك المنتظرين للكرامة ، ولذلك اختار اسمه الرحمن. وفى تكريره فى السورة ثلاث عشرة مرة ليس إلا لشأن عظيم .

ومساق السورة ذكر النعم ، وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها .

وقرأ الحسن يُحشر المتقون .

قال أبو هريرة : يحشرون على الإبل .

قال على : يحشرون على نوق ، رحالها الذهب ، ونجائب سروجها الياقوت إن شاءوا سارت ، وإن شاءوا طارت بأجنحتها ، وكل خطوة مد البصر . والأزمّة من ياقوت وزبرجد .

قيل : هى أعمالهم الصالحة تجسمت .

وقيل : يركبون ما شاءوا إبلا وخيلا وسفناً تجرى فى الأرض وفى الهواء .

وظاهر الآية . قيل : إن ذلك إلى الجنة بعد الحساب .

وقيل : المراد الحشر من القبر . وورد أن الضحية مطية صاحبها المؤمن إلى الجنة .

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ) بإهانة واستخفاف كالبهائم مشاة حفاة . وقرأ الحسن ويساق المجرمون .

(إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً) جمع وارد بمعنى عطشان .

وقيل : معناه عاطش ماش . والأول قول الحسن وأبى هريرة وابن عباس يساقون وقد مالت أعناقهم وتدلت من العطش . والتعذيب بالعطش من أشد التعذيب

اللهم أعذنا منه دنيا وأخرى .

اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين وكثر الأنين وبكا علينا الحبيب وأيس منا الطبيب .

اللهم ارحمنا إذا وارنا التراب وودّعنا الأحباب وفارقنا النعيم وانقطع النسيم .

اللهم ارحمنا إذا نُسِيَ اسمنا وَبَلِيَ جسمنا واندرس قبرنا ومُحِيَ ذكرنا .

اللهم ارحمنا يوم تُبلى السرائر وتبدو الضمائر وتنشر الدواوين وتُحضر الموازين يا حى يا قيوم ارحمنا يا أرحم الراحمين .

وعنه ﷺ : يحشر الناس : واحد على بعير ، واثنان على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير والبقية تحشرهم النار تقيل حيث قالوا .

وعنه ﷺ : صنف ركبان ، وصنف مشاة ، وصنف على وجوههم ، يمشيهم عليها الذى أمشاهم على أرجلهم .

(لَا يَمْلِكُونَ) الضمير للعباد ودل عليه ذكر المتقين والمؤمنين .

(الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) شهادة أن لا إله إلا الله ، والعمل الصالح . ومن بدل ، أو منصوب المحل على الاستثناء .

وأجاز الزمخشرى كون واو يملكون علامة للجمع . ومن فاعل ، وهى جمع فى المعنى . قلت : وهو ضعيف لأنه بمنزلة قرن الفعل فى التفريع بالتاء مثل ما قامت هند .

ويجوز كون المعنى إلا من أخذ من الله إذنا فيها كقوله : « لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن » كقولك : عهد الأمير إلىّ بكذا إذا أمرنى به .

ويجوز كون مَن مفعولا به على حذف مضاف ، أى إلا شفاعة من اتخذ .

وقيل : للضمير للمجرمين ، أى لا يملكون أن يشفع أحد فيهم إلا من اتخذ عند الله عهدا منهم بالإسلام . والاستثناء متصل لا منقطع كما قيل .

وقيل : الواو للمتقين .

وقيل : الضمير للناس ومَن عائد للنبى ﷺ ، أى إلا النبى محمدا الذى اتخذ عهد ذلك . فالشفاعة هى الشفاعة العامة لأهل الموقف من طول الوقوف .

وقيل : العهد : لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وروى أنه ينادَى يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم .

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم : أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا ؟

قالوا : وكيف ذلك ؟

قال : يقول كل صباح ومساء : اللهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك بأنى أشهد أن لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك ، وأنك إن تكلنى إلى نفسى تقربنى إلى الشر ، وتباعدنى عن الخير ، وإنى لا أثق إلا فى رحمتك فاجعل لى عهدا توفينيه يوم القيامة ؛ إنك لا تخلف الميعاد . فإذا قال ذلك طُبِع عليه بطابع ، ووضع تحت العرش . فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين الذين لهم عند الرحمن عهد فيدخلون الجنة .

(وَقَالُوا) : اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب بدليل قوله :

(اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا) وقيل : الضمير للمجرمين .

وقيل : لجميع الناس لأن القائلين منهم .

وقرأ الكسائى بضم الواو وإسكان اللام على حد ما مر وكذا فى الموضعين الآتيين وفى الزخرف : « إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » .

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا) التفات من الغيبة للخطاب مبالغة فى الذم ، وتسجيلا عليهم بالجرأة على الله . (إِدًّا) عظيما منكرا . والإد: الشدة وأَدَّنِى الأمر وآدنى: أثقلنى وعَظُمَ علىّ .

وقيل : الإد : العجيب .

وقرئ بفتح الهمزة . والمعنى واحد من القولين .

(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ) يتشققن . (مِنْهُ) مرة بعد أخرى .

وقرأ غير نافع والكسائى بالفوقية فى يكاد ، وكذا فى الشورى .

وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب ينفطرن بالنون ساكنة وكسر الطاء والأول أبلغ لدلالته على التكرر ولأن أصل التفعل التكلف فمن يكدن أن لا يتركن شيئاً من الانشقاق إلا تشققنه . وقرأ ابن مسعود يتصدعن .

(وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ) كما تكاد السماء تنفطر .

وقيل : المعنى تخسف بهم . (وَتَخِرُّ) تقع .

(الْجِبَالُ هَدًّا) انهداما مفعول لأجله لتخر ، ويصح مفعولا مطلقا . ويصح حالا أى ذات هد ، أو مهدودة أو متهدمة .

وعن الباجى عن ابن مسعود أن الجبل يقول للجبل : يا فلان هل مر بك اليوم ذا كر لله . فإن قال : نعم سُرَّ به . ثم قرأ عبد الله : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً - إلى ولدا » قال : أفترونهـا تسمع الزور ولا تسمع الخير ؟ والباجى هذا قطب بالأندلس

وقد روى عن أنس مثل ما روى عن ابن مسعود وذلك لا يقال من جهة الرأى .

وعن جعفر بن زيد عن أنس : ما من صباح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضاً : أى جارتى هل مرَّ بكِ اليوم عبد يصلى أو يذكر الله ؟ فمن قائلة : لا ومن قائلة : نعم . فإذا قالت : نعم رأت لها بذلك فضلا .

قال محمد بن كعب : كاد أعداء الله أن يقوموا علينا الساعة .

وعن كعب : غضبت الملائكة وسُعِّرت جهنم حين قالوا ما قالوا . قال

ابن عباس : فزعت الملائكة والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت تزول .

والمعنى أن الله سبحانه يقول : كدت أفطر السموات وأشق الأرض وأخر الجبال غضبا على من قال ذلك ، لكنى حليم لا أعجل بالعقوبة كما قال : « إن الله يمسك السموات – إلى – حليما غفوراً » .

والمعنى : إنه عَظَّم القول وهوّله وصوّر أثره فى الدين وهدمه لأركانه وقواعده حتى إنه لعظمه لو صور بصورة محسوسة لم تحملها هذه الأجرام العظام وتفتتت .

وقيل : معنى خرور الجبال : انطباقها عليهم .

(أَنْ دَعَوْا) سموا وأثبتوا ونسبوا (لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا) بفتح همزة أن وهى مصدرية يقدر حرف التعليل قبلها كاللام ومن ، وتعلق بتكاد . وفى تعليقه بيتفطرن أو بتنشق أو بتخر أو بهداً أحوج تقدير مثله لغيره أو تنازع . والمحل بعد حذف الحرف الجار مع أنْ وأنّ أو كى المصدريات نصب على نزع الخافض ، أو جر ، قولان .

ويصح أن يكون قوله أن دعوا بدلا من الهاء فى منه بدل كل ، وأن يكون خبرا لمحذوف ، أى موجب التفطر والانشقاق والحزن « أن دعوا للرحمٰن ولدا » .

وإن أجزنا إعمال المصدر المنون فى الفاعل والنائب والمفعول الصريح صح أن يكون أن دعوا فاعلا لهدًّا كأنه قال هدّها ادعاؤهم الولد لله تعالى سبحانه وتعالى عما يشركون .

قال القاضى : فيكون دعا بمعنى سمّى المتعدى إلى مفعولين . وإنما اقتصر على المفعول الثانى ليحيط بكل من دعا له ولدا أو من دعا بمعنى نسب الذى يطاوعه ادعى إلى فلان : إذا انتسب إليه . انتهى .

وخص اسم الرحمٰن لأنه هو الرحمٰن وحده، لا يستحق هذا الاسم غيره، لأن كل نعمة أصلا أو فرعاً منه، كما قال بعضهم: فلينكشف عن بصرك غطاؤه فأنت وجميع ما عندك عطاؤه. فمن أضاف إليه ولدا فقد جعله كبعض خلقه، وأخرجه عن استحقاق اسم الرحمٰن.

(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) لا يليق أن يوصف باتخاذه لاستحالته؛ لأنه تعالى لا يشبه شيئا، ولا يتخذ صاحبة. وأما الولد بالتبنى فلا أيضا لأنه يكون من جنس المتبنِّى، وليس له تعالى جنس.

(إِنْ) أى ما (كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) من موصولة، أو هى نكرة موصوفة.

وزعم الكسائى أنها لا تكون نكرة موصوفة إلا فى موضع يخص النكرات كقوله: رُبَّ من أنضجت غيظا صدرُه.

(إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ) بإسقاط الياء من الخط تبعا للنطق وثبتت فى مصاحف غيرنا معشر المغاربة.

وقرا ابن مسعود وأبو حيوة بتنوين آت ونصب الرحمٰن. (عَبْدًا) مملوكا يأوى إليه بالعبودية والانقياد والذل يوم القيامة عيسى وعزير وغيرهما.

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ) حصرهم ولا يخرجون عن قبضته.

(وَعَدَّهُمْ عَدًّا) عدّ أشخاصهم وأنفاسهم وأعمالهم.

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) منفردا من الأتباع والأنصار والمال.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا) محبة فى القلوب من غير تعرض منهم لأسبابها لإتباعهم إياها كما تقذف فى قلوب أعدائهم الرهبة.

قال أبو حيان فى البحر : ومن الغريب ما أنشدنا الإمام اللغوى رضىّ الدين أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى لزبيبنا بن إسحاق النصرانى المصعبى :

عدى وتيم لا أحاول ذكرهم	بسوء ولكنى محب لهاشم
وما يعتربنى فى علىٍّ ورهطه	إذا ذُكروا فى الله لومة لائم
يقولون : ما بال النصارى تحبهم	وأهل النهى من أعْرُبٍ وأعاجمِ
فقلت لهم : إنى لأحسَب حبَّهم	سرى فى قلوب الخلق حتى البهائمِ

والسين إما لأن السورة مكية وكان المؤمنون ممقوتين بمكة فوعده ذلك إذا قوى الإسلام ، وإما لأن الموعود فى القيامة حين يعرض حسابهم على رؤوس الأشهاد فتظهر حسناتهم ، وإما أنه ينزع الغل من صدورهم يوم القيامة فيتحابون.

وقيل : سيجعل لهم ودا فى الدنيا فيتحابون ، وكانوا دون تلك المرتبة ؛ قال ﷺ لعلى : قل : اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة .

وعنه ﷺ : إذا أحب الله عبدا نادى جبريلُ : إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض .

ويروى أنه يقول : قد أحببت فلانا فأحببه يا جبريل فيحبه . فينادى . وإذا أبغض فبعكس ذلك .

وعن قتادة : ما أقبل العبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب العباد إليه . ومثله عن هرم بن حيان ، إلا أنه قال : بقلوب المؤمنين .

قال كعب : فى التوراة : لا محبة لأحد فى الأرض حتى يكون ابتداؤها من الله ، ينزلها على أهل السماء ثم أهل الأرض . ومصداقه الآية .

وروى ثوبان أن العبد ليلتمس رضى الله فيقول الله جل وعلا لجبريل: إن فلانا يلتمس رضاى فعليه رحمتى فيقول جبريل: على فلان رحمة الله. فيقول حملة العرش فمَنْ حوله ؛ فكل أهل سماء، فأهل الأرض. وعكس ذلك فى السخط.

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ) سهلناه أى القرآن (بِلِسَانِكَ) يا محمد أى بلغتك.

(لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ) الصائرين إلى التقوى فبشرهم ، أو أراد بالمتقين من قد اتقى.

(وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) شداد الخصومة ، آخذين فى كل لديد ، أى فى كل شاق من الجدال بالباطل ، وهم كفار مكة ، أو فى كل شِق وجانب من الجدال.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ) تخويف لهم ، وتجسير له ﷺ على إنذارهم.

(هَلْ تُحِسُّ) تجد أو ترى. وقرئ بفتح التاء وضم الحاء بمعنى تشعر.
(مِنْهُمْ) متعلق بتحس ، أو نعت لما بعده لأن من زائدة.

(مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ) وقرأ حنظلة بالبناء للمفعول من أسمعه الكلمة يسمعه إياها. (لَهُمْ رِكْزًا) صوتا خفيا. فكما أهلكنا هؤلاء نهلك من كذبك.

والركز أصله: الخفاء مطلقا. رَكَزْتُ الرمح: غيبت طرفه فى الأرض.
والركاز: المال المدفون.

اللهم ببركة سيدنا محمد وآله وصحبه وببركة السورة صلِّ اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.